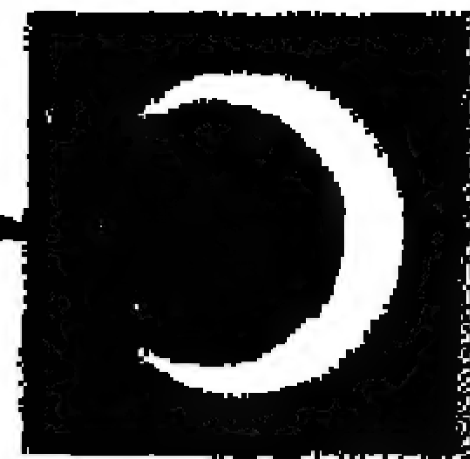
كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

محمود درويش

شاعر الأرض المحتلة

رجاء النقاش



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٠ ربيع الثانى ١٣٨٩ يوليه ١٩٦٩

No. 220 — July 1969.

مركز الادارة

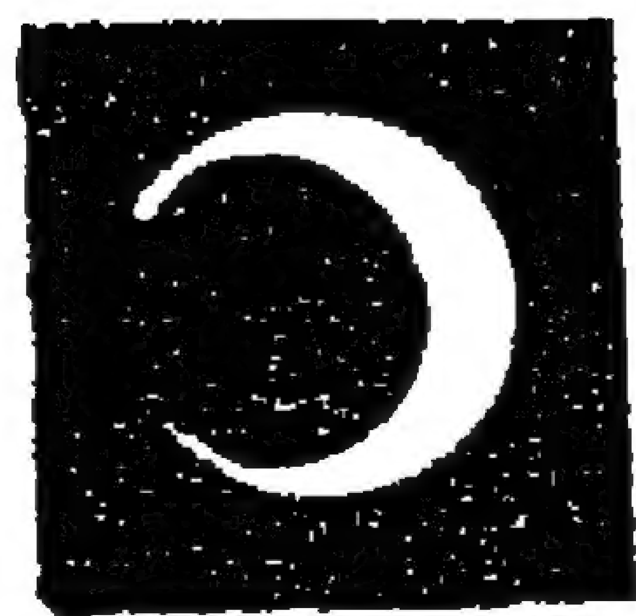
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج٠ع٠م) — والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
حــلمى التـــونى

رجاء النقاش

محمود درويش

شاعر الأرض المحتلة

دار الهلال

مقدمة

كان لقائى الاول مع ادب المقاومة فى ارض فلسطين المحتلة فى أواخر سنة ١٩٦٦ ، واذكر اننى فى ذلك الحين كنت فى زيارة للجزائر مع وفد صحفى من الجمهورية العربية المتحدة ، وكان ضمن برنامج هذه الرحلة أن نزور المنطقة البترولية فى صحراء الجزائر ، وكان من الضرورى أن نركب طائرة تحملنا من العاصمة الى قلب الصحراء ، وذلك لطول المسافة ، حيث تستغرق المواصلات العادية وقتا طويلا لا تحتمله أيام زيارتنا المحدودة . وفى الطائرة وقعت يدى على جريدة جزائرية وأخذت أتصفح الجريدة التماسا لقضاء الوقت حتى نصل الى منطقة البترول ، وفى ركن من أركان الجريدة وقعت عينى على قصيدة قصيرة بتوقيع « محمود درويش » ، وقد قدمتها الجريدة على أنها قصيدة لشاعر من أرض فلسطين المحتلة . وقرأت القصيدة فهزنى ما فيها من صدق وبساطة وجمال فنى ، وهزنى فوق ذلك كله ما فيها من حرارة ثورية عنيفة . ولست أدرى كيف ثبت فى وجدانى آنذاك أن « محمود درويش » هذا ليس اسما حقيقيا وانما هو اسم مستعار لمناضل عربى ثورى يعيش متخفيا فى الارض المحتلة ، كما ان القصيدة نفسها بدت لى نوعا

من المنشور الثورى الذى كتبه ذلك المناضـل السرى ليرفع الروح المعنـوية للعرب المقيمين فى فلسـطين المحتلة . ولم اكن اتصور أن بين عرب الارض المحتلة حركة ادبية ثورية لها قيمتها وخطورتها ، ولعل ذلك يعود الى قلة المعلومات عن عرب الارض المحتلة وندرتها ، ثم صعوبة الوصول الى مصـادر دقيقة تصور أحوالهم وواقعهم وطريقة تفكيرهم واحساسهم وتعبيرهم عن انفسهم ، فحتى ذلك الحين ـ عام ١٩٦٦ ـ كان عرب الارض المحتلة يعيشون فى ظل ستـار حديدى عنيف لا يستطيع احد أن يعرف ماذا يدور وراءه من احداث ، ولم يكن هـذا الستار الحديدى من صـنع اسرائيل وحدها ، بل كان من صـنع العرب أيضا ، فالعقلية العربية فى ذلك الوقت ، بل وبعد ذلك أيضـا ، كانت ما تزال خاضـعة لمنطق غريب هو تجاهل ما يدور فى الارض المحتلة سواء بالنسبة لليهود أو بالنسبة للأقلية العربية هناك . ولعـل ذلك كان يرجع الى الاستهانة بالعدو الاسرائيلى ، والنفور الشديد منه ، وعدم تقدير قوته الحقيقية .. لقد كان هنـاك وهم كبير يعيش فى الوجدان العربى هو أن اسرائيـل عدو سهـل يمكن هزيمته بنفخة هواء أو بلمسة اصبع أو بركلة قدم ، ومثل هذا العدو لا يستحق منا فهما أو دراسة أو بحثا فى أصوله وجذوره .

وعندما وقعت هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، اهتز الضمير العربى كله ، وبدأت الاقلام الجادة المخلصـة تفتش عن أسباب المأساة ، وكان على رأس أسـبابها الواضحة ان العرب يعرفون القليـل عن اسرائيل وما يجرى فيها ، وان الاسرائيليين على العكس يعرفون كل

شيء من العرب . ولقـــد كان على العرب أن يعرفوا عدوهم بدقة حتى يتمكنوا من مواجهته . وكان هـــذا الامر بديهية من البـــديهيات . ومع ذلك فقد غابت هذه البديهية عن النضال العربى وقتا طويلا ، وبصورة مثيرة للدهشة بل ومثيرة للفزع . ولم يبدأ العرب في التعرف على حقيقة عدوهم الاسرائيـــلي بصورة سليمة الا بعد أن ظهر مركز الابحاث التابع لمنظمة التحـــرير الفلسطينية والذى يرأسه الدكتور أنيس صايغ . ومع ذلك ورغم المجهود الضخم الدقيق الامين الذى يبذله مركز الابحاث الفلسطينية ، فان دراسات هذا المركز لم تحظ باهتمام كاف الا بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . فقد احدثت الهزيمة اثرها العنيف واصـــبح المثقفون متلهفين على فهم هذا العدو المجهول فهما كاملا . ومن خلال موجة اكتشاف العدو ومحاولة فهمـــه احتلت الاقلية العربية داخل اسرائيل ، بظروفهـــا ومشـاكلها ونشاطها الفكري والعملى ، مكانا بارزا فى الدراســـات التى ظهرت قبيل عدوان ٥ يونيو وبعده . وهنا بدأنا نعرف بعض التفاصيل عن شعراء المقاومة داخل الارض المحتلة وعلى رأسهم : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وراشد حسين ، وبدأت الصورة تتضح أمامنا بشيء من النضج والاكتمال ..

وقد ساعد على ذلك احتلال اسرائيل للضفة الغربية من الاردن . واصبح العرب داخل الارض المحتلة بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ نســـبة عالية تقرب من المليـــون مواطن أوتزيد. واتصل أهل الضفة الغربية بالعرب المقيمين داخل أســـوار اسرائيـــل وعرفوا الـــكثير عنهم وعن ظروفهم السياسية والفكرية والاقتصادية . واستطاع

اهل الضفة الغربية بوسائل متعددة أن ينقلوا الى العرب فى كل مكان كثيرا من المعلومات والحقـائق عن أبنـاء الارض المحتلة الاصليين . ومن بين ما تسلل من الارض المحتلة فى تلك الفترة بعض دواوين شـعراء المقـاومة الذين يعيشون داخل أسوار اسرائيل .

ولقد كان اتساع حركة الفدائيين وزيادة نشـاطهم داخل الارض المحتلة وسيلة أخرى من وسائل تسرب المعلومات عن عرب الارض المحتلة . وبهذه الوسـائل كلها وبغيرها ، بدأت تتوفر أمامنا صورة تقريبية لأدب المقاومة فى فلسطين المحتلة . وبدأت تظهر أمامنا صورة لم تكن متوقعة هى : ان هناك حركة شـعرية ناضجة ورائعة فى داخل الارض المحتلة ، وان الحكم بنضجها وروعتها من الناحية الفنية والفكرية ليس راجعا الى تعاطفنا السياسى أو النضالى مع هـذه الحركة ، ما دام اصحابها من الشعراء الشبان يعيشـون فى ظـروف صعبة داخل اسوار اسرائيل .. ان هـذا التعاطف حقيقة لا شك فيها ، ولكن الحركة الشعرية الجديدة داخـل الارض المحتلة تتمتع بقيمة فنيـة وفكرية على اكبر درجة من النضج والاصالة بصرف النظر عن جميع الاعتبارات السياسية والعاطفية الاخرى. ان الشعراء الشبان البـارزين فى الارض المحتـلة هم شـعراء موهوبون ، ولو ظهروا فى ظروف اخرى وأرض أخرى لـكان لهم أيضا قيمتهم كفنـانين بارزين . ان هؤلاء الشعراء انما يرتفعون الى مسـتوى كبير لا عن طريق القضية التى يعبرون عنها فقط وانما عن طريق مواهبهم الشعرية الـكبيرة فى نفس الوقت . فنحن لا نجاملهم من أجل قضيتهم وانما هم فى الواقع أصحاب قضيـة

كبيرة وأصحاب مواهب كبيرة فى نفس الوقت بحيث نستطيع أن نقول : انهم من ألمع الشعراء العرب الذين ظهروا فى المرحلة الراهنة من تاريخنا الادبى . وعلى رأس هؤلاء الشبان يقف محمود درويش ، وهو أول اسم عربى تسلل بشعره الى خارج الاسوار الاسرائيلية ، وهو بالنسبة لى أول وجه حبيب التقيت به فى بحثى عن حركة الشعر فى الارض المحتلة ، وقد هزنى هذا الوجه بفنه ونضاله معا ، ومن خلال الحقائق التى تجمعت لدى عن حياة هذا الشاعر وفنه أقدم هذه الدراسة ، التى ارجو أن تساهم فى القاء بعض الضوء على هذه الحركة الاصيلة من حركات الشعر العربى المعاصر ، وهى حركة شعر المقاومة فى الارض المحتلة ، والتى أرجو ايضا أن اقدم بعدها دراسات آخرى عن سميح القاسم وغيره من شعراء الارض المحتلة

ولقد كان من الطبيعى أن تمتد أى دراسة لمحمود درويش الى دراسة القضية التى يعبر عنها ويستمد منها تجاربه الانسانية ... هذه التجارب التى يعتمد عليها فى قصائده المختلفة ولذلك فقد عنيت فى هذه الدراسة بقضية العرب فى اسرائيل وظروفهم المادية والنفسية ، كما حاولت أيضا أن ألقى بعض الضوء على التراث الشعرى فى فلسطين منذ سنة ١٩٣٦ حتى ظهور محمود درويش ورفاقه ، وذلك لأن هذه المدرسة الشعرية الجديدة لم تنشأ فى الفراغ ، وانما اتصلت بشكل أو بآخر بالحركات الشعرية السابقة التى ظهرت فى المراحل المختلفة للنضال العربى الفلسطينى .

كما حرصت دائما على أن أشير الى زملاء محمود درويش وأبناء جيله من الشعراء البارزين فى هذه

الحركة الشعرية الجديدة ، ذلك لأن محمود درويش ليس مجرد عبقرية فنية فردية وليس نموذجا نضاليا شاذا ، بل هو فنان مرتبط بحركة شعرية واسعة ، وتجربة نضالية عريضـــة ، وهو يتأثر برفاقه ويؤثر فيهم ، لأنه مرتبط بهم ارتباطا واضحا لا شك فيه .

ولعل خير ما أختم به هذه المقدمة هو تلك الابيات التى تفيـــض بالثورية والتفـــاؤل والحرارة والرفض الـكامل لليأس ، والتى كانت أول ما قرأت من شعر المقاومة فى الارض المحتلة ، وأول ما قرأت من شـــعر محمود درويش ، وكان ذلك فى طـائرة جزائرية ذات يوم من أيام عام ١٩٦٦ ، وفى احـدى الصحف التى تصدر فى ذلك البلد المناضل الذى عرف أحزانا وجراحا شبيهة بالاحزان والجراح التى تنزف من قلب فلسطين.

اما هـذه القصيدة فقد نشرها محمود درويش فى ديوانه « أوراق الزيتون » بعنوان « عن الامنيات » :

لا تقل لى :
ليتنى بائع خبز فى الجزائر
لأغني مع ثائر !
لا تقل لى :
ليتنى راعى مواش فى اليمن
لأغني لانتفاضات الزمن
لا تقل لى :
ليتنى عامل مقهى فى هافانا
لأغنى لانتصارات الحزانى
لا تقل لى :
ليتنى أعمل فى أسوان حمالا صغيرا
لأغنى للصخور

يا صـــــــــديقى
لن يصب النيل فى الفولجا
ولا الـكونغو ، ولا الاردن ، فى نهر الفرات
كل نهر ، وله نبع ... ومجرى ... وحياة
يا صـــــــــديقى
أرضنا ليست بعاقر
كل أرض ولها ميلادها
كل فجر وله موعد ثائر !

•• ذلك هو الشاعر الثائر النبيل الذى تدور حوله هذه الدراسة ، وتلك هى لغة فنه ولغة قلبه ولغة تفاؤله الثورى العظيم ••

رجاء النقاش

العرب
في إسرائيل

بعد اعلان قيام اسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ بقى عدد من العرب داخل حدود الدولة الجديدة ، بعد أن هاجر بقية المواطنين العرب أو طردوا بقوة السلاح الاسرائيلى من أرضهم ، وكان عدد الذين واصلوا الحياة داخل أسوار اسرائيل سنة ١٩٤٨ يبلغ ١٥٦ ألفا من المواطنين العرب ، ولكن هذا العدد وصل اليوم الى ما يزيد على ثلاثمائة ألف مواطن .

وقد تعرض هؤلاء العرب لألوان عنيفة من الاضطهاد، كانت كلها تهدف لابادتهم بطريقة من الطرق ، فاما أن يهاجروا نهائيا من البلاد نتيجة للارهاب الذى يتعرضون له فى كل مجالات الحياة ، واما أن يموتوا فى المذابح المختلفة التى تصطنعها اسرائيل وتلفق لها الاسباب وتقتل فيها عددا كبيرا من المواطنين العرب .

ولعل أكثر ما يمثل شعور الاسرائيليين نحو العرب هو موقف « بن جوريون » الذى يمكن اعتباره « المواطن الاسرائيلى الاول » ، فهو الأب الروحى لاسرائيل ، وهو الاب المادى أيضا وقد هاجر الى فلسطين من بولندا سنة ١٩٠٦ فهو بذلك أقدم زعماء اسرائيل الاحياء ، وقد ظل أقواهم نفوذا فى الحياة السياسية الاسرائيلية حتى سنوات قليلة حيث اعتزل العمل السياسى المباشر بسبب شيخوخته .

ان موقف « بن جوريون » هو موقف شـــديد التعصب ، انه يكره كل شيء يتصل بالعرب ، ويعبر عن كراهيـــته بشكل عنيف خال حتى من الليـــاقة السياسية التي يحاول أن يتظاهر بها بعض السياسيين الاسرائيليين الآخرين ، وخاصة أبا ايبان ، حيث يردد كثيرا فى تصريحاته : « ان العرب واليهود » هم أبناء عم ، والمفروض من وجهـــة نظره الا يختلفوا ... أن « بن جوريون » لا يتحدث بهذه الروح الديبلوماسية ، ولا يخفى خنجره فى حرير ناعم ، انه يكره الشخصية العربية ، واللغة العربية ، والاسماء العربية والاماكن العربية ... ويود لو استطاع أن يمحو كلمة عرب من كل لغات العالم .

وينقل لنا المحامى العربى المقيم فى اسرائيل صبرى جريس وذلك فى كتابه الهام عن « العرب فى اسرائيل » ، ما قالته احدى المجلات الاسرائيلية ســـنة ١٩٥٨ ، عن « بن جوريون » الذى كان آنذاك رئيسا للوزراء ... لقد قالت هذه المجلة : « ان رئيس حكومة اسرائيل ما زار مدينـــة أو قرية عربية منذ قيـــام اسرائيل ، وعندما زار مدينة الناصرة العليا اليهودية ، رفض أن يزور مدينة الناصرة العربية وهى لا تبعـــد الا بضع مئات من الامتار عن الناصرة اليهـــودية . وخـــلال السنوات العشر الاولى من قيـــام اسرائيل لم يستقبل « بن جوريون » وفدا واحـــدا من المواطنين العرب . وتحت ضغط حزبه تكرم باستقبال أعضاء الـكنيست العرب ، وفى هذا الاستقبال وعدهم وعودا عرقوبية . وفى ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، التقى بهؤلاء الاعضاء ثانية بمناسبة الانتخابات . و « بن جوريون » الذى تعلم

اليونانية ليقرأ افلاطون ، والاسبانية ليقرأ سرفانتس ما راى من واجبه أن يتعلم العربية ليقرأ الذخائر العربية المجيدة ، ورغم انه سلخ ٥٣ سنة من هجرته الى اسرائيل الا انه لا يفقه شيئا من الاذاعة او الصحافة العربية » .

هذا ما قالته احدى الصحف الاسرائيلية عن « بن جوريون » ، ويجب أن نلاحظ هنا أن اللهجة الطيبة التى تتحدث بها هذه الصحيفة عن العرب والثقافة العربية انما هى وليدة المعارضة السياسية لـ « بن جوريون » ، ومحاولة تجريحه سياسيا بسبب موقفه من العرب فى اسرائيل ، فحقيقة الموقف الاسرائيلى من العرب لا يختلف بين حزب اسرائيلى وآخر اختلافا جوهريا ، انما هى كلها اختلافات مظهرية شكلية ... فالجميع ضد العرب والجميع يوافقون فى اللحظات الحاسمة ، على الاجراءات التعسفية العنيفة ضد المواطنين العرب .

واذا حاولنا أن نتتبع الاجراءات التى تتخذها السلطات الاسرائيلية ضد هؤلاء المواطنين الذين وقعوا فى مصيدة الدولة الاسرائيلية ، فاننا سنجد أمامنا عددا من الاساليب المحددة التى تحكم تصرفات اسرائيل مع العرب المقيمين بها ..

فالاسرائيليون يعاملون العرب كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة ، والعرب لا يتمتعون بحقوق المواطن العادى ، ويجدون صعوبات لا حد لها فى مواصلة حياتهم اليومية وتحديد مستقبلهم ، واذا أردنا أن نقدم بعض النماذج التى لا تمثل حصرا كاملا لاساليب الضغط والارهاب الاسرائيلى فسوف نجد أمامنا أشياء كثيرة :

فالعامل العربى فى اسرائيل لا يتمتع بأى حقوق ، ولا ينتسب الى أى نقابة ، وهو دائما يقوم بالاعمال الشاقة الصعبة ، كالعمل فى المجارى والبناء ، ويتقاضى دائما اجورا أقل مما يتقاضاها العامل الاسرائيلى حتى لو كان يقوم بنفس العمل . وكما يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » : « كان العامل العربى البسيط سنة ١٩٥٢ ، يتلقى مقابل عمل يوم واحد لدى دائرة الاشغال العمومية ، ليرة اسرائيلية واحدة ، فى حين كان العامل اليهودى يأخذ مقابل العمل نفسه وفى الدرجة نفسها ٢٫٦٣ من الليرات الاسرائيلية لليوم الواحد ، وبينما كان العامل العربى المهنى « كعامل البناء مثلا » يأخذ ٢٫٥٠ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم ، كان العامل اليهودى يأخذ ٣٫١٤ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم » .

كل هذا بالاضافة الى امكانية طرد العمال العرب من اعمالهم فى أى وقت دون أية مسئولية قانونية ، أو دون خوف من حساب أو عقاب ، بل ان الجهات الاسرائيلية الرسمية تشجع هذا الاسلوب فى معاملة العمال العرب وتؤكده باستمرار . ويصل وضع العرب الى حد بعيد من السوء عندما نعرف ان بعض المواطنين يضطرون كثيرا الى تغيير اسمائهم الى أسماء «عبرية» حتى يستطيعوا مواصلة حياتهم والحصول على خبزهم . فشاب اسمه « محمد » يسمى نفسه اسما يهوديا مثل « دافيد » ، وشاب اسمه « رشيد » يسمى نفسه « اتسحاك » ، كما جاء فى بعض المقالات المنشورة فى صحف اسرائيل نفسها . وانى أستأذن القارىء فى نقل نصين هنا ، ترجمهما عن العبرية الاستاذ « ربحى

كمال » فى كتابه « العرب فى الارض المحتلة » وهمـــا نصان يكشفان عن نفسية المواطن العربى العادى فى حياته اليومية وما تعانيه هذه النفسية من آلام كثيرة لا تنتهى ،

وهى آلام تواجهه فى كل لحظة وفى كل حركة خـــلال حياته اليومية · وهذان النصان منشوران فى الصحف الاسرائيلية نفسها . والصحف الاسرائيلية لا تنشر هذه الحقائق عن العرب من باب الايمان الحقيـــقى بتعديل هذه الاوضاع ، بل من باب الصراع السياسى فى داخل اسرائيل بين الاحزاب المختلفة ، ومن باب تدعيم المظهر الديمقراطى فى اسرائيل ، وهو مظهر خارجى يخفى فى داخله نظاما عسكريا ارهابيا ليس فيه منفـــذ للحرية الحقيقية او الديمقراطية الحقيقية ، ومن ناحية اخرى يقوم نشر هـــذه الحقائق بنوع من الدعاية الخارجية لاسرائيل ، فكأن اسرائيل بمثل هذه المواقف الصحفية تضم جنـــاحا اسرائيليا يدافع عن حقـــوق الاقلية العربيـــة ويحميهـــا . وهو مظهر لا يتعدى حـــدود « الدعاية » الى الدفاع الجدى عن هـــذه الحقوق .

على اننا فى نهاية الامر قد نجد بين المثقفين الاسرائيليين من يشعر بخطورة المشكلة العربية فى اسرائيل ولـكن هؤلاء المثقفين لا يفهمون المسألة فهما جذريا وانمايتصرفون بناء على تصور محدد ، هو أن بالامكان أن يقبل العرب وجود اسرائيل لو احسنت اسرائيـــل معاملة العرب فى الداخل . وقد يكون هؤلاء هم خير المثقفين فى اسرائيل ولـكنهم فى حقيقتهم لا يختلفون عن غيرهم فى تأييـد قيام اسرائيل وبقائها على جثـــة العرب الذين خرجوا من فلسطين وتركوا بلادهم وتحول عدد كبير منهم الى لاجئين مشردين . ولذلك فان أمثال هذه المواقف بين المثقفين الاسرائيليين لا تغير صـــورة اسرائيل الجوهرية

وهى انها دولة عنصرية ... ترفع العنصر اليهودى على غيره من العناصر وبخاصة العنصر العربى ، وهى دولة تقوم على أساس اغتصاب حق العرب واضطهادهم ومحاولة ابادتهم . ان الخلافات بين الاسرائيليين هى خلافات فى « الدرجة » وليست خلافات فى « النوع »

ونعود الى النصين المنشورين فى الصحف الاسرائيلية والنص الاول هو رسالة فى بريد القراء نشرتها احدى الصحف الاسرائيلية لمواطن عربى اسمه محمود اسامة ويقول هذا المواطن فى رسالته :

« ان لدينا معشر المواطنين العرب المقيمين فى اسرائيل الشىء الكثير من المشاكل المزعجة كقيود السير والتنقل ومصادرة الاموال ولكننا لا نبتغى شيئا سوى السماح لنا بالعيش موفورى الكرامة على الاقل » ويواصل هذا المواطن العربى حديثه فيقول : « وحسبى أن أستشهد بما حدث من حوادث خلال أسبوع واحد فقط للوقوف على كيفية معاملتنا فى اسرائيل . ففى خلال هذا الاسبوع وحده حدثت معى الحوادث التالية :

١ ـ قال لى بائع التذاكر فى « بيت ليد » : اذهب واشتر تذاكر من عند عبد الناصر !

٢ ـ وفى مقهى عدن أشار الينا بعض الزبائن اليهود وقالوا : عرب ، عرب ، ماذا يفعلون هنا ؟

٣ ـ وفى مكان عملى شتمنى العمال اليهود ثم سبوا دين النبى محمد

٤ ـ وفى حيفا حدثت مشادة بيننا وبين بعض المواطنين اليهود لاهانتهم ايانا ، ولما ذهبنا لتقديم شكوى الى مركز البوليس قيل لنا : لم هذا الازعاج ولا داعى لتقديم شكوى ... »

ولعل مضمون هذه الرسالة هو ما يعبر عنه احد شعراء الارض المحتلة من رفاق محمود درويش وهو سميح القاسم فى احدى قصائده ، وفى هذه القصيدة وعنوانها « اخوة » يرد سميح على هؤلاء الذين يفتعلون الحديث عن « الاخوة الاسرائيلية العربية » من بين أبناء اسرائيل ، ثم يمارسون فى واقع حياتهم أسلوبا من أقسى أساليب التفرقة ضد المواطنين العرب .. ويقدم سميح القاسم قصيدته بقوله : « الى الذين يعرون الاخوة من جلدها .. ويتركونها مرتجفة فى صقيع الزيف ! » ثم يقول فى القصيدة نفسها :

اخوك انا ؟ من ترى ذادنى عن البيت والكرم عنوة
تحملني من صنوف العذاب بما لا اطيق وتفشاك زهوه
وتشتمنى .. وتعلم طفلك ، شتم نبيى .. بارض النبوه
تشك بدمعى اذا مابكيت وتسرف فى الظن ان سرت خطوة
وتحصى التفاتاتى المتعبات .. فيوما اشار ويوما تفوه
وان قام ، من بين اهلك واع يبرئنى .. تزدريه بقسوه
وتزجره شاجبا « طيشه »وتلعن انى توجهت لغوه
واما شكرتك .. فمنك اليك.. لتحكم كيف اشتهتفيك شهوه
فكيف اغنى قصائد حب وسلم .. وللكره والحرب سطوه
وانشد اشعار حرية .. لقضبان سجنى الكبير المشوه ؟

ففي كلمات الشاعر سميح القاسم ما يكاد يكون تصويرا مباشرا لواقع العرب داخل اسرائيل ، وللظروف النفسية والمادية القاسية التى يعيشون فيها هناك ، واذا كانت أبيات سميح القاسم تصور هذا الواقع تصويرا فنيا فان رسالة المواطن العربى السابقة الى الصحيفة الاسرائيلية تصور نفس الواقع تصويرا حيا مباشرا من خلال الاحداث اليومية ..

وهناك نص آخر يكشف عن تلك اللعنة اليومية التي تطارد العربي في اسرائيل حتى في حياته العادية البسيطة ، وهذا النص الثاني نشرته احدى الصحف الاسرائيلية أيضا وذلك في تحقيق بعنوان « الاقلية العربية في تل ابيب » وقد جاء في هذا التحقيق :

« أما الاماكن التي يسكنها العرب فهي في غاية الحقارة والقذارة في « أوسخ » أحياء تل أبيب . اليك مثلا هذا الشاب رشيد شريف ، في الحادية والعشرين من العمر ، يعمل كسفرجي في أحد مطاعم تل أبيب ، ومن الصعب ان تفرق بينه وبين شخص آخر يهودي من حيث لباسه وسلوكه ومنظره . قال الشاب : ليس من السهل العيش كما نعيش نحن ... اننا ندعي بأسماء عبرية ... فانا مثلا أدعى « اتسحاك » لأن الزبائن لا يستلطفون أسماءنا العربية ... وجميع الشبان العرب الذين يعملون في المطاعم يسمون بالاسماء التي يعينها لهم صاحب المطعم . انه شعور بالحقارة لكن ماذا يمكن أن نعمل؟ يجب أن نبدل أسماءنا لنعيش وحينما أمشي في الشارع ، وانا احمل ترانزستور افتحه على محطة عبرية حتى لا يحسبني الناس عربيا ... وذات مرة صادق رفيقي « محمد » فتاة يهودية ، وكان يذهب ويجيء معها ثلاثة شهور ، ويأخذها الى السينما والى شاطيء البحر ويعاملها معاملة حسنة . وذات يوم قالت انها تريد أن ترى بطاقته الشخصية ، ولكنه لم يطلعها عليها . ثم حدثتها أنا عن العرب وقلت لها :

ـ هل تحسبين ان هناك فرقا بين العرب واليهود ؟

قالت : لقد علمونا في المدرسة ان العرب أشرار ... يأكلون الناس ، وما الى ذلك ؟ !

ولم استطع ان اسكت ، فقلت لها :

ـ انا عربى ودافيد أيضا عربى . لقد عاشرت دافيد فكيف وجدته ؟ هل قبلك يوما بالقوة ؟ هل تأخر يوما عن دعوتك ؟ الم يعاملك دائما بالاحترام ؟ فما الفـــرق اذن ؟ فراحت تبكى وقالت :

ـ صحيح ، صحيح ، لقد كان على ما يرام .

ثم ان دافيد قال لها : اذا شئت رؤيتى فاخبرينى والا فلا .

فقالت : أنا أريد أن أراك ..

ولكنها لم تعد للاجتماع به ، لان أهلها منعوها من ذلك ... »

هذه هى الصورة الانسانية البسيطة القاسية داخل اسرائيل ، والتى يرسمها مواطنان عاديان من العرب لايتعرضان فيها للمشكلة السياسية تعرضا مباشرا ، ومثل هذه الصور رغم بساطتها ، بل وسذاجتها احيانا تكشف لنا من ذلك الواقع الاليم الذى يعانيه العرب فى اسرائيل .. بما فى هذا الواقع من صعوبات ومشاكل وآلام يومية عنيفة ..

واذا كانت شخصية « بن جوريون » تقدم صــــورة اسرائيلية نموذجية للشعور بالكراهية نحو العرب والعمل على القضاء عليهم نهائيا بحيث لا يبقى لهم أثر فى أرض فلسطين ، فان هناك تصريحا أدلى به احد كبار الموظفين الاسرائيليين يزيد الامر وضوحا ويلقى كثيرا من الضوء على حقيقة موقف اسرائيـــل من العرب ، وقد أدلى الموظف الكبير بهـــذا التصريح فى ابريل عام ١٩٦٧ ، وفى هذا التصريح يقول الموظف الاسرائيلى :

« اعتقد ان الكيان القومى هو فوق كل اعتبـــار ،

ان وجود اقلية عربية فى اسرائيل يعرض للخطر مستقبل الدولة اليهودية ان آجلا أو عاجـلا ، وللحيلولة دون هـذا الخطر فان كل شيء جائز شريطة الا يحدث استنكارا أو احتجاجا فى العالم ، ويجب البحث عن طريقة مناسبة للتغطية وانتقاء الالفـاظ والمصطلحات وقد تدعو الضرورة الى تجاهل الرأى العام العالمى »

ثم يقول هذا الموظف عن العرب :

« يجب تضييق خطواتهم ، وأخذ الاراضى منهم ... واذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعـة فلا يجوز اعطاؤه عملا ، يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس سنوات ، وان يقع فريسـة اليأس ويدرك الا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر »

وتكاد هذه الكلمات أن تكون تعبيرا نظريا دقيقا عن السياسـة الاسرائيلية العمليـة التى تنتهجها الدولة الاسرائيلية فى معاملة العرب . انهم ينزعون الاراضى من العـرب بحجج واهيـة . ويستولون على ثرواتهم باستمرار . ويصل بهم الامر أحيانا الى قتل الاغنام التى يملكها العرب بسموم يرشـونها على الاعشاب والمراعى ، وبهدم البيوت العربية ، وبكل الوسائل التى تؤدى الى تجريد العربى من أى حق له أو قوة يعتمـد عليها فى حياته . بل وتعمد الاجهزة الاسرائيلية المختلفة الى محاربة العرب حتى فى ميادين « الرياضة » حيث تحدث اعتداءات متكررة وقاسـية على اعضاء الفرق الرياضية العربية وعلى الجماهير العربية التى تحاول ان تشاهد المباريات المختلفـة . وكل ذلك يهدف الى شيء واحد هو منع أى تجمع عربى فى أى ميـدان من الميادين ، فالتجمع قد يؤدى الى تقوية المواطنين العرب

حتى لو كانوا ضعفاء كأفراد ، بعد أن تم حرمانهم من جميع الفرص الطبيعية التى كان من الممكن أن تمنحهم قوة جماعية وقدرة على الدفاع عن حقوقهم ..

وبالنسبة للتعليم تضع اسرائيل قيودا عنيفة ضد تعليم العرب . فمباني المدارس رديئة غير صحية وغير نظيفة ، والمدرسون العرب غير مؤهلين للقيام بدورهم التربوى ، ولا تتاح لهم أية فرصة لتأهيل أنفسهم ، والكتب المدرسية شبه معدومة ، والقيود مفروضة على تعليم اللغة العربية ، بينما تفرض الدولة على العرب أن يتعلموا اللغة العبرية . ويكفى لكى ندرك مايعانيه العرب فى ميدان التعليم أن نعلم ان الراسبين فى الشهادة الثانوية من الطلاب العرب يبلغون ٩٠ ٪ من هؤلاء الطلاب كل عام على التقريب ، يزيدون احيانا من هذه النسبة قليلا ، أو يقلون عنها قليلا ، ولكن النسبة العامة للراسبين تدور عادة حول هذا الرقم المخيف . وحسبنا أن نقرأ رقما آخر هو رقم حاملى الشهادة الثانوية ، حيث نجد انه فى عام ١٩٦٢ ، كان الذين حصلوا على هذه الشهادة من العرب حوالى ٧٦ طالبا ، بينما حصل عليها من الاسرائيليين ٧٥٠٢ من الطلاب . واذا علمنا أن نسبة العرب فى اسرائيل تبلغ حوالى ١١ ٪ من مجموع السكان فلقد كان من الضرورى أن يكون عدد الحاصلين على الشهادة الثانوية من العرب أكثر من خمسمائة ، ولكنهم لم يزيدوا عن ٧٦ ، وذلك طبعا بسبب الحصار الثقافى العنيف المفروض على العرب : طلابهم ومدارسهم وكتبهم وأساتذتهم .

ومن الكتب المقررة على الطلاب العرب : التوراة ، وعلى الطالب العربى أن يدرس التوراة لا ان يقرأها مجرد قراءة ، وفى نفس الوقت يحذفون من القرآن بعض

الآيات حذفا نهائيا ، ويحرمون دراستها أو قراءتها أو مناقشتها بأى شكل من الاشكال ومن هـــذه الآيات القرآنية المحظورة على العرب داخل اسرائيـــل قول القرآن الـكريم فى سورة الممتحنة :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظــاهروا على اخـــراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ..

تلك هى الآية الـكريمة التى حذفها الاسرائيليون من القرآن ، ومن الواضح ان حذف هذه الآية انما يقصد الى تجنب ما فيها من دعوة صريحة للجهاد المقدس ضد الذين يعتـــدون على المســـلمين باخراجهم من ديارهم وابعادهم عن أماكنهم المقدسة ومحاولة تشـــويه الدين الاســـلامى ومحاربة أهله ، فالآية الـكريمة تدعو الى الثورة ضد الإسرائيليين ومن هنا فقدحذفوها من القرآن

ويكشف شـــاعرنا محمود درويش فى حديث أدبى نشرته له مجلة «الطريق» اللبنانية عن أساليب القهر الثقافى التى تفرضها اسرائيل على العرب فيقول : « فى المدرسة يعلموننا عن تيودور هرتسل أكثر مما نتعلمه عن محمد ، والنماذج التى ندرسها من شعر حاييم نحمان بياليك أكبر بكثير من نماذج شعر المتنبى ، ودراســـة التوراة اجبارية أما القرآن فلا وجود له ، فأحسسنا أن غزوا ثقافيا لنشر العبرية يزحف الينا ناعما كالافعى »

والاسرائيليون لا يمارسون اساليبهم فى الاضطهاد ضد المسلمين فقط ، بل ويمارسون نفس الاساليب ضـــد المسيحيين أيضا. ولعل ما يقوله شكرى الخازن ، وهو

عربى مسيحى يعيش فى حيفا ، وذلك فى شكوى قدمها الى احدى السفارات الغربية ضد اسرائيل بسبب المعاملة السيئة التى يلقاها المسيحيون هناك .. لعل ما يقـوله هذا المسيحى العربى فى شكواه ان يكشف لنا مزيدا من الحقائق عن موقف اسرائيل من العرب داخـــل الارض المحتلة ..

يقول شكرى الخازن فى شكواه :

« أن السياسة التى يتبعها الاسرائيليون نحو الذين يسمونهم كفارا « جوييم » هى القضاء علينا عاجلا أو آجلا، كما دلت على ذلك تجاربنا خلال الاعوام الثمانية عشرة الماضية ، ونحن كمسيحيين لا ينبغى لنا أن ننتظر من حكام اسرائيل سوى الاعمال المؤلمة ، واذا عدنا الى الوراء رأينا ســيدنا يسوع قد صلب على أيدى بنى اسرائيل . هذه حقيقة قائمة ، ويجب الا نستهين بها بالرغم من مرور الايام والاعوام ... اننى أعيش فى هذه البلاد وكلى اقتناع بأنه قد يأتى يوم يذبحوننا فيه ولذلك فقد أرسلت نصف أفراد عائلتى الى الخارج ، لانقاذهم من الموت . وأما النصف الآخر فقـــد بقى معى ليرى وينتظر مصيرنا ، وليكونوا معى ضحايا وقرابين »

وليس اضطهـــاد الاسرائيليين للعرب : مســـلمين ومسيحيين قاصرا على محاربتهم فى أرزاقهم وثقافتهم وتعليمهم وعقائدهم الدينية ، بل ويحاول الاسرائيليون أن يخلقــــوا نوعا من التمزق الطـــائفى بين العرب ، ويحاولون على وجه الخصـــوص أن يخلقوا فجوة بين الدروز الذين يبلغون حوالى ثلاثين ألفا وبين غيرهم من السكان العرب ، والاسرائيليون يحاولون باستمرار أن يغذوا فى الدروز فكرة معينة ، هى أنهم يمثلون قومية خاصة مستقلة لا علاقة لها بالعرب ولا بالمسلمين ، ويصدر

الاسرائيليون كتبا خاصـــة بالدروز ويملأونها بالافكار التي تدعو الى انفصال الدروز عن العرب انفصالا كاملا، كما قررت السلطات الاسرائيلية اقامة محاكم خاصـــة للدروز والسماح باعتبار « القومية الدرزية » قومية مستقلة ، وكتابتها فى البطاقات الشخصية للأفراد . كما ان الاسرائيليين يقبلون الشبان الدروز فى الجيش الاسرائيلى ، وهو الامر الممنوع تماما بالنسبة للعرب ، والواقع ان الاسرائيليين يحاولون تزوير التاريخ بهـــذه الطريقة ، فالدروز فى حقيقة أمرهم ، وكما يقول المحامى

صبرى جريس فى كتابه عن عرب اسرائيل : « هم طائفة دينية عربية تأسست فى نهاية القرن العاشر الميـــلادى وطقوسها الدينية مشابهة فى أكثر تفاصيـــلها للديانة الاسلامية ، وهذه الطائفة تشكل من وجهـــة قومية ، جزءا لا يتجزأ من الامة العربية وتاريخهـــــا الحافل بالحرب ضد الاستعمار الفرنسى فى سورية فى العشرينات من هذا القرن ليس الا قســـما من التاريخ العربى ، والجدير بالذكر أن القسم الاعظم من المثقفين والشباب الدروز يستنكرون « خلق » هـــذه القومية الجديدة ويفخرون بانتسابهم الى الامة العربية »

هـــذا ما يقوله صبرى جريس ، الـكاتب والمواطن العربى الذى يقيم داخل اسرائيل ، حيث يكشف عن هدف اسرائيل فى خلق تمزق طائفى تريد أن تفرضه على العرب فى الارض المحتلة ، ويمكننا أن نضيف الى ما يقوله «صبرى جريس »: ان الطائفة الدرزية داخـــل اسرائيـــل قد انجبت شاعرا من أبرز شعراء المقاومة الشبان هوسميح القاسم ، وهو شاعر شاب موهوب ، يفيض شـــعره بالغضب الثورى وتظهر دواوينه الشعرية وبها كثير من الصفحات البيضاء حيث تحذف الرقابة فى اسرائيل هذه

القصائد وتمترض عليها ، والمشـاعر التى يعبر عنهـا سميح القاسم ، هى مشاعر مواطن عربى حـر غاضب مؤمن بقوميته العربية ... يدعو اليها بحرارة وايمان . وعندما ظهر ديوانه « أغانى الدروب » كتبت احـدى الصحف الاسرائيلية عن هذا الديوان تقول :

« ظهر فى الناصرة كتاب حافل بالاشعار الوطنية بعد أن توقف صدور مثل هـذه الـكتب سنين عديدة ...

وهو بعنـوان « أغانى الدروب » من تأليف الشـاعر سميح القاسم من قرية الرامة ، قضاء عكا . وهـذا الشاعر هو الشـاب العربى الاسرائيلى الذى خدم فى الجيش الاسرائيلى خدمة الزامية ، باعتبـاره درزيا ، ومع ذلك فقد نظم شـعره بروح هى أعنف ما ظهر فى اسرائيل منذ قيام الدولة ، بل انها روح ثورية لم تر المطبعة الاسرائيلية مثيلا لها من قبـل . وفى احدى قصائد هذا الديوان يهزأ الشاعر ممن يدعون للسـلام ويتنصل منهم . وفى قصيـدة أخرى يعبر عن سخطه على الذين يدعون الى التحاب والتعـايش بين العرب واليهود ، وفى قصـيدة ثالثـة يرثى الشـاعر لحال اللاجئين ويدعو الى الثورة لاعادة الابتسامة الى شفاه الصغار ، ويعلن فى احدى قصـائده استمداده لتحمل مسئولية دعوته »

هذا الشاعر الدرزى الشاب سميح القاسم ، حاولوا أن يجعلوا منه عدوا للعـرب والعروبة ، وحاولوا أن يجعلوا منه انسانا متعاونا مع الاسرائيليين مهادنا لهم ، حاولوا أن يقنعوه بأنه درزى وليس عربيا ، وان الخلاف كبير بين الاثنين فلم يقتنع بشىء من ذلك ، بل كانت اصالته كعربى وصاحب قضية ، أقوى من كل محاولات

التزييف فوقف فى وجه هذه المحاولات وانتصر عليها تماما .

ولنقف لحظة مع نماذج من شعر هـذا الشباب الموهوب وهى نماذج ترد بقوة على المحاولات الاسرائيلية لخلق انقسام طائفى بين العرب داخل اسرائيل سواء كان هؤلاء العرب مسلمين أو مسيحيين أو دروز ! .. فسميح القاسم الدرزى يهاجم الاحتلال الاسرائيلى لفلسطين هجوما عنيفا يؤكد أن الشبان الدروز لم يستجيبوا للمحاولات الاسرائيلية فى ابعادهم عن الشعور بعروبتهم وبأنهم ينتمون الى الامة العربية انتماء كاملا .

يقول سميح القاسم فى قصيدة له بعنوان « القصيدة الناقصة » يصور فيها كيف اعتدى الاسرائيليون على العرب وسلبوا منهم أرضهم : فلسطين . ويؤكد الشاعر أن القصة لم تنته وان لها بقية سوف تحمل العدل يوما الى المظلومين ... يقول الشاعر فى هذه القصيدة :

وكان ذات يوم
أشأم ما يمكن أن يكون ذات يوم

شرذمة من الضلال
تسربت تحت خباء الليل

الى عشاش .. دوحها فى ملتقى الدروب
أبوابها مشرعة

لكل طارق غريب
وسورها ازاهر وظل

وفى جنان طالما مر بها اله
تفجرت على السلام زوبعة

هدت عشاش سربنا الوديع
وهشمت حديقة ... ما جددت « سدوم »
ولا أعادت عار « روما » الاسود القديم
ولم تدنس روعة الحياة
وسربنا الوديع
ويلاه ... أن أحرفى تتركنى
ويلاه ... ان قدرتى تخوننى
وفكرتى من رعبها تضيع
وينتهى هنا ...
أمر ما سمعت من أشعار
قصيدة صاحبها مات ولم تتم
لـكننى أسمع فى قرارة الحروف
بقية النغم
أسمع يا أحبتى ... بقية النغم

والذى يعنيه سميح القاسم بالجنة التى دخلتهـا الصلال « الثعابين والافاعى » هو تقديم صورة رمزية واضحة لفلسطين التى دخلهـا الاسرائيليون بسمومهم وقسوتهم ونزعتهم التدميرية . والذى يعنيه سـميح القاسم فى قوله : « لـكننى أسمع فى قرارة الحروف ... بقية النغم » هو أن القصـة المحزنة لم تنته ، فسوف ينال المظلومون يوما كل حقوقهم وسوف يستعيدون ما سلبته الثعـابين والافاعى منهم ، والقصـيدة عنوانها « القصيدة الناقصة » لأن القصـة نفسها لم تتم بعد ... فهناك بقية لها . لأن الامور لا يمكن أن تنتهى عند هـذه الحدود التى اخذ فيها اليهود أرض فلسطين . والشاعر يصف هذه القصيدة بقوله :

أمر ما سمعت من أشعار
قصيدة ... صاحبها مجهول

وصاحب هذه القصيدة ليس مجهولا لأنه لا قيمة له ، بل لانه هو كل عربى مسته يد الظلم ، واساءت هذه اليد الى وطنه وأهله اساءة أليمة دامية .

اما قصيدة سميح القاسم التى يرفض فيها «السلام» والتى أشارت اليها الصحيفة الاسرائيلية فهى قصيدة بعنوان « ... للسلام » وفى هذه القصيدة يرى الشاعر انه لا معنى للحديث عن السلام بعد هذا الظلم الفادح الذى حل بالعرب .

ويقول الشاعر فى فن جميل وغضب ثورى أصيل :
ليغن غيرى للسلام

والعين ما عادت تبل صدى شجيرات العنب
وفروع زيتوننا ... صارت حطب

لمواقد اللاهين ... يا ويلى حطب .
وسياجنا المهدود أوحشه صهيل الخيل فى الطفل المهيب
والجرن يشكو الهجر ... والابريق يحلم بالضيوف
بال « ياهلا » ... عند الغروب

ورؤى البراويز المغبرة الحطيمة .
تبكي على أطرافها نتف من الصور القديمة
وحقائب الاطفال ... أشلاء يتيمة
لبثت لدى أنقاض مدرسة مهدمة حزينة

ما زال فى احنائها ... ما زال يهزأ بالسكينة
رجع من الدرس الاخير ...
عن المحبة والسلام

. . . .

ليفن غيرى للسلام
وعلى ربى وطنى
وفتي ودیانه
قتل السلام !

ان سميح القاسم يمثل الضمير الدرزى داخل اسوار اسرائيل خير تمثيل ، وهو ضمير عربى مخلص للأمة العربية ، لم تفلح معه كل المحاولات الاسرائيلية لفصله عن جذوره العربية الاصيلة ، بحيث يصبح على عداء مع العرب ، ويعيش فى كراهية عنيفة لهم ، وبحيث يشعر بأن قضية فلسطين العربية ليست قضيته ... لقد فشل الاسرائيليون فى هذا كله . وها هو سميح القاسم يعلن فى وضوح : انه عربى فى كل حرف يكتبه ، وفى كل قطرة من قطرات دمه ، وفى كل نبضة من نبضات قلبه . وهو بذلك يعلن فشل سياسة التفرقة الطائفية التى تحاول اسرائيل أن تشعلها بين العرب المقيمين داخل الاسوار الاسرائيلية .

واذا كانت اسرائيل قد فشلت بوضوح فى التاثير على جماهير الدروز ، وتمزيق الصلات الاساسية التى تربطهم ، تاريخا ودما وثقافة ، بالامة العربية ، فانها قد استطاعت أن تسيطر على قلة قليلة من زعماء الدروز فى اسرائيل ، وهى نسبة ضئيلة لا تعبر عن مصالح الدروز أو مشاعرهم الحقيقية . وحول هذه المجموعة القليلة من الدروز الذين يتعاونون مع السلطات الاسرائيلية يتحدث صبرى جريس فى كتابه عن «العرب فى اسرائيل » فيقول :

« ينبغى أن نشير الى أن تدخل اسرائيل فى شئون الطائفة الدرزية قد تم نتيجة لخضوع زعماء هذه الطائفة

التقليدية لسلطات اسرائيل ، وما هؤلاء الزعماء الا فريق من الجهلة والمرائين الذين يلبون طلبات الحكومة ، فى حين أن الطائفة الدرزية بالذات لم تستفد شيئا من هذا الخضوع فالقسم الاعظم من قراها متأخر غاية التأخر اذا ما قورن بسائر القرى العربية فى اسرائيل ، والجدير بالذكر أن السياسة الاسرائيلية هذه قد قابلها الشباب والمثقفون الدروز بمعارضة شديدة وهم ثائرون عليها ويطالبون بتغييرها باستمرار»

ان الطائفة الدرزية فى الوطن العربي خارج اسرائيل، تقف فى صف القضية العربيـة بقوة ووضوح ، وقد انجبت هذه الطائفة عددا كبيرا من القيادات الوطنية العربية التقدمية ، وحسبنا أن نذكر فى هذا الميدان الزعيم اللبنانى المعروف كمال جنبلاط ، وهو زعيم من طائفة الدروز ، وهو من الزعماء العرب البارزين الذين يدافعون عن الامة العربية والقومية العربية والتقدم العربى بصدق وحرارة واخلاص .

هكذا يحاول الاسرائيليون أن يستخدموا أسلوب التفرقة الطائفية فى صفوف العرب داخل أسوار اسرائيل ، ويحاولون ايضا استخدام شتى أساليب الاضطهاد ضدهؤلاء العرب. فالعرب يتعرضون لما يسميه الاسرائيليون بالحكم العسكرى . وهذا الحكم العسكرى يفرض على العرب الوانا من القيود تشل حركتهم ، وتضعهم على الدوام فى ظروف قاسية يخضعون فيها لالوان من التنكيل والارهاب • فمن حق الحاكم العسكرى الذى يتولى حكم المناطق العربية فى اسرائيل ان يقرر سجن

اى مواطن عربى فى اى لحظة ، وأن يمنعه من التنقل من بلد الى آخر ، أو من منطقة الى أخرى فى المدينة الواحدة ، ومن حق الحاكم العسكرى أن ينزع أراضى العرب وممتلكاتهم لأتفه الحجج والاسباب وفى ظل هذا الحكم العسكرى يتم طرد العرب من اعمالهم ، ويتم فرض رقابة واسعةعلى كتاباتهم ومطبوعاتهم واجتماعاتهم ونواديهم المختلفة . ونتيجة للحكم العسكرى تم حل جماعة « الارض » العربية ، وهى الجماعة التى كانت تهدف الى خلق نوع من التنظيم السياسى العلنى للدفاع عن حقوق العرب داخل اسرائيل ،واعتبرت السلطات الاسرائيلية اى نشاط لهذه الجماعة معاديا للدولة ، واعتقلت الكثيرين بتهمة الاشتراك فى هذه الجماعة ، وصادرت كثيرا من المطبوعات العربية بحجج مختلفة على راسها ان هذه المطبوعات تعبر عن جماعة « الارض » الممنوعة

وفى ظل الحكم العسكرى المفروض على العرب داخل اسرائيل طردت السلطات الاسرائيلية الكتاب والشعراء العرب من اعمالهم وأدخلتهم السجون مرة بعد مرة . فالشاعر سميح القاسم ، خرج من الجيش الاسرائيلى، حيث تسمح اسرائيل بتجنيد الدروز ، ثم عمل مدرسا فى احدى المدارس العربية ، ولكنه طرد من عمله لانه ثورى ، وله نشاط معاد للدولة الاسرائيلية . أما الشاعر محمود درويش فقد اتم دراسته الثانوية ولم تسمح له السلطات الاسرائيلية بأن يتم تعليمه العالى . ثم عمل فى جريدة « الاتحاد » العربية التى يصدرها الحزب الشيوعى العربى فى حيفا ثم طرد من هذه الجريدة ، ثم عاد اليها وطرد مرة أخرى ، وكانت التهمة الموجهة اليه دائما هى أشعاره الثائرة التى اعتبرها الاسرائيليون ضد

الدولة . وقد اعتقل محمود درويش مرارا ، ودخل السجون الاسرائيلية وذاق فيهـا الوانا من العذاب ، ولـكن معدنه النضالى الصلب ، ظل قويا أصيلا يزداد توهجا واشتعالا كلما ازداد عنف الاضـطهاد الموجه اليه ..

وتسمح السلطات الاسرائيلية بطبع بعض القصص التى تصدر فى العواصم العربية المختلفة ليقرأها العرب داخل اسرائيل . ولـكنهم يحرصون على أن يختاروا من هذه القصص ما يكون بعيدا عن القضـايا الوطنية والثورية للأمة العربية . ومن الحوادث الطريفة فى هذا الميدان انهم سمحوا بطبع رواية « أنا أحيا » للـكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكى ، ثم اكتشفوا ان الرواية تتضمن نقدا لاذعا وقاسيا لاسرائيل والصهيونية وكانت الرواية قد صدرت وقرأها العـرب .. وبسرعة أصـدرت السلطات الاسرائيلية قرارا بمصادرة الرواية وجمعها من الاسواق . وتمت المصادرة بالفعل . كل ذلك يكشف أمامنا بوضوح عن ذلك الارهاب الفكرى الذى تفرضه السلطات الاسرائيلية على العرب ، حيث تعمل هـذه السلطات بكل قوة على خلق حصار ثقافى خانق يقضى عليهم فكريا وروحيا ، بحيث ينعزلون تماما عما يجرى فى الوطن العربى خارج أسـوار اسرائيـل ، وبحيث ينعزلون عن بعضهم البعض ، فلا يتجمعون فى أى نوع من أنواع التجمع الثقـافى أو السـياسى ، حتى يصبح العرب فى نهاية الامر مثل النبات المنزوع من أرضه والمحروم من كل ظروف النمو والحيـاة ، والمعرض للـذبول والموت . ومن المعروف أن الحكومة الاسرائيلية لا تسمح عموما بنشر الكتب العربية الا على

نطاق ضيق . وهى تختار من هذه الكتب النصوص الادبيــة • فهى لا تسمح بنشر أى دراســات فكرية أو سياسية ، وكما يقول الدكتور أنيس صايغ فى مقال له بعنوان « ماذا يقرأ العرب فى اسرائيل » :

« ان الحكومة ودور النشر التى يهمها أن تمنع عرب فلسطين المحتلة من مناقشة قضــاياهم بشكل مباشر تحاول أن تبعدهم عن هذه المناقشة عن طريق تشجيع صنف واحد من المنشورات الادبية الصرف ـ من قصة وشعر ورواية ـ وذلك على حساب الـكتابات الفكرية والبحوث والدراسات ، ولذلك فمن بين الاربعة والستين كتابا التى وضــعها كتاب فلســطينيون عرب « من ١٩٤٨ الى ١٩٦٨ » وطبعوها فى فلسطين المحتلة يوجد ٢١ ديوان شعر و ١٩ مجموعة قصصية و ١١ رواية . ولا يبلغ عدد البحوث والدراسات الا ١١ ومعظمها بحوث ودراسات هزيلة وفى موضــوعات غير مهمة . كما ان الاغلبية الساحقة من الـكتب العربية التى أعيد طبعها فى فلسطين المحتلة لـكتاب عرب غير فلســطينيين هى أيضا كتب أدبية » ... هذا هو ما يكشفه لنا الدكتور أنيس صايغ من واقع الحياة الثقــافية للعرب داخل اسرائيل فالسلطات الاسرائيلية تحرص كل الحرص على اختيار هذه الـكتب الادبية بصورة تحقق كل أهداف الحصار الثقــافى . فمن الضرورى أن تكون الـكتب المسموح بها لتوفيق الحكيم او للعقاد أو لطه حسين كتبا بعيدة عن أى قضايا سياسية أو وطنية .

هذا هو الحصار المادى والاقتصادى والفكرى الذى يفرضــه الحكم العسكرى على المواطنــين العرب فى اسرائيل . وقد تردد صدى هذا الحكم العسكرى فى

الشعر العربى الذى يكتبه شعراء الجيل الجديد. فنحن نجد على سبيل المثال أن الشاعر سميح القاسم يكتب قصيدة بعنوان « الساحر والبركان » حيث يقول فى مقدمتها : « انها اسطورة مهداة الى الحكم العسكرى » ... وفى هذه القصيدة يقول الشاعر :

وشعوذ الساحر فانطلق
من قمقم البحار ... مارد صغير
يريد للزورق أن يقبل الغرق
يريد للحرية الحمراء
أن تقطن فى كوخ ... من الورق
يريد للجذور أن تحيا بلا شجر
يريد للانسان أن يحيا بلا ثمر
يريد للانسان أن يموت فى الحياة
يريد أن . . .
وانفجر البركان
والتهمت ساحره النيران
فعاد للقمقم يستجير
بساحر جديد
ليس له وجود

والرموز فى القصيدة واضحة ، فالساحر هو اسرائيل ، والمارد هو الحكم العسكرى ، والبركان هو الثورة العربية التى يؤمن بها الشاعر ويرى أنها سوف تلتهم الساحر والمارد معا ، فهما يريدان أن يفرضا على الحياة قيودا لا يمكن فرضها ولا يمكن أن تقبلها الحياة الطبيعية . فالحكم العسكرى سوف يؤدى الى الانفجار الذى يقضى على كل القيود .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر آخر من رفاق محمود

درويش أيضا هو الشاعر راشد حسين ، وهو واحد من الشعراء الشبان الثائرين الذين يعيشون داخل الارض المحتلة ويعانون مع بقية المواطنين الوان الاضطهاد المختلفة ، وقبل أن نقرأ القصيدة يحسن بنا أن نعرف فكرة سريعة عن موضوعها فمن بين قوانين الحكم العسكرى قانون يعين « قيما على أملاك الغائبين » من العرب وهى صيغة قانونية شكلية لسرقة الاراضى واغتصابها من أصحابها ... يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » :

« ان ما هو أكثر اثارة للذهول انما هو تطبيق هذا القانون على أملاك الوقف الاسلامى فى البلاد ، فحسب قوانين الدين الاسلامى ، تعتبر ملكية الوقف تابعة لله ، ويحول دخل هذه الاملاك لابناء الطائفة أو لمشروع خيرى او لهدف جعلت هذه الاملاك وقفا عليه ،وفى هذه الحالة لا يمكن الافتراض أن الطائفة الاسلامية لم يعد لها وجود فى البلاد بعد قيام الدولة لكن رغم ذلك نقلت املاك الوقف الاسلامى الى القيم على أملاك الغائبين وربما كان ذلك على أساس الافتراض بأن الله « غائب » حسب قانون أملاك الغائبين »

وحول هذا الموضوع كتب الشاعر راشد حسين قصيدته التى يقول فيها :

الله أصبح غائبا يا سيدى
صادر أذن حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة فهى من أملاكه
وبع المؤذن فى المزاد الاسود
حتى يتامانا أبوهم « غائب »
صادر يتامانا اذن يا سيدى

لا تعتذر ... من قال انك آثم ؟ !
لا تعتذر ... من قال انك معتدى ؟ !

حررت حتى السائمات ... غداة ان
أعطيت ابراهام أرض محمد
فخيولنا فوق الجبال طليقة

والثور يستسقى أمام المزود
والحقل يقرئك السلام ... فقمحه
شكر تجمع فى بحيرة عسجد

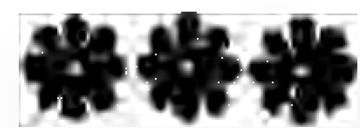
أو لم « تحرر » عنقه من حاصد
قاس... ليصبح ملك « أمدن سيد »
هل شعبك المختار أمدن سيد ؟

أم شعبك المختار أمدن معتدى
أنا لو عصرت رغيف خبزك فى يدى
لرأيت منه دمى يسيل على يدى

ان الشاعر هنا يفضح الحكم العسكرى الاسرائيلى فى هذه الابيات المليئة بالسخرية والصدق والمرارة ... فالحكم العسكرى الاسرائيلى يصدر قوانين متعسفة لنزع الاراضى العربية من أصحابها ، بالاضافة الى ما يقوم به هذا الحكم من أعمال ارهابية فى ميدان الفكر والثقافة والتعبير عن الرأى ، وفى ميدان العمل والحريات الشخصية .. والحكم العسكرى نموذج فذ للارهاب الذى يمثل العقلية الصهيونية والضمير الصهيونى خير تمثيل . ولن تكتمل صورة الارهاب الصهيونى امامنا الا اذا توقفنا أمام مثال نموذجى من امثلة الارهاب الاسرائيلى ، وقد تجسد هذا المثال فى مذبحة كفر قاسم

كفر قاسم

يا حبيبي
لا تلمني ..
قتلوني ..
قتلوني ..
محمود درويش



لا يمكن أن يقوم مجتمع انسانى حدثت فيه مثل هذه النذالة دون أن تثور فيه رعشة غضب ...

الشاعر اليهودى
نتان الترمان

فى عام ١٩٠٦ وقعت فى القــرية المصرية الصــغيرة دنشواى تلك المذبحة المشهورة التى قام فيها الانجليز بشنق عدد من الفــلاحين وجلــد بعضهم ، وكل ذلك تم أمام أهالى القرية وأقرباء الضحايا . وكانت هــذه الحادثة ذات دوى ضخم فى داخل مصر وخارجها ، وقد اتخذ منها الـكاتب الايرلندى العالمى برنارد شو فرصة شن من خلالها حملة عنيفة ضد « كرومر » المندوب السامى الانجليزى فى مصر وضد الاستعمار الانجليزى عموما ، كذلك اتخذ منها مصطفى كامل فرصة لفضح الاستعمار الانجليزى أمام الرأى العام المحلى وأمام الرأى العــام العالمى . وقد انتهت هذه الحادثة بخروج « كرومر » من مصر واشتداد قوة المقــاومة المصرية للاحتــلال الانجليزى .

ولم تكن حادثة « دنشواى » فى حــد ذاتها سببا فى كل هذه الضجة العالمية التى ثارت حولهــا ، فما أكثر ضحايا الاحتلال الانجليزى منذ أن دخل المحتلون البلاد عام ١٨٨٢ ، ولــكن حادثة « دنشـواى » كانت تجسيدا لاسـاليب الاستعمار فى معاملة المواطنين ، وخلاصة هذه الاساليب انه لا قيمة لأى اعتبــار انسانى فى ســبيل تثبيت أقدام الاستعمار فى البلاد ، كما ان المذابح التى

تقوم بها سلطات الاحتلال كانت وسيلة واضحة من وسائل الارهاب ، وما كان شنق الفلاحين فى « دنشواى» الا درس أراد به الانجليز أن يخيفوا شعب مصر ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا للمواطنين : ان كل متمرد سوف يكون مصيره هو نفس مصير الفلاحين التعساء فى « دنشواى » ، ومثل هذا الاسلوب الذى اتبعته سلطات الاحتلال الانجليزى فى مصر هو نفسه الاسلوب الذى اتبعته سلطات الاحتلال الاسرائيلية فى فلسطين منذ قيام دولة اسرائيل الى اليوم . بل لقد وصلت اسرائيل فى هذا الميدان الى أقصى درجات التطرف ، فجعلت من « المذابح » جزءا أساسيا من سياستها لارهاب العرب فى الارض المحتلة وفى خارجها على السواء . أن الاستعمار الصهيونى هو تلميذ للاستعمار الانجليزى ولقد عاش الصهيونيون طويلا فى ظل الانتداب الانجليزى على فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى ولمدة ثلاثين عاما تقريبا امتدت من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨ واستفاد الصهيونيون فائدة واسعة من المساعدات الضخمة التى قدمتها سلطات الانتداب الانجليزى لتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين ، كما استفادوا سياسيا وأدبيا من وعد بلفور الانجليزى عام ١٩١٧ ، وأخيرا فقد تعلم الصهيونيون كثيرا من أساليب العمل الاستعمارى الانجليزى ، وتفوقوا على الانجليز بعد ذلك فى تطبيق هذه الاساليب .

ومنذ اعلان قيام الدولة الاسرائيلية ، بل وقبل قيامها والاسرائيليون يعتمدون على أسلوب الارهاب العنيف حتى تمتلىء نفوس المواطنين العرب بالذعر وتستسلم لمطالب الاسرائيليين . ولذلك يلجأ اليهود بين

الحين والحين الى القيام بمذابح عنيفة قاسية يكون هدفها الاساسى هو اشاعة الرعب فى قلوب العرب .

وكانت أول مذبحة شهيرة من هذا النوع هى مذبحة « دير ياسين » التى قام بها الاسرائيليون فى ٩ ابريل عام ١٩٤٨ • وفي هذه المذبحة العنيفة قتل الاسرائيليون فى ساعات قليلة ما يقرب من مائتى مواطن عربى من بينهم نساء واطفال وشيوخ ، بل وكان من بينهم حوامل أيضا . ولم يكتف الاسرائيليون بعملية القتل الجماعية ، بل قادوا من بقى من الاحياء فى القرية العربية وثيابهم ملوثة بدماء اقربائهم ومواطنيهم من الضحايا ليقوموا بعملية استعراض لهم فى شوارع القدس حتى يزرعوا بذلك رعبا عنيفا فى قلوب العرب فلا يكون أمامهم الا أن يتركوا بلادهم ويهربوا بعد أن رأوا بأعينهم ما أصاب أخوانهم من أبناء « دير ياسين » . ولقد كان لهذه المذبحة بالفعل أثرها الكبير على العرب ، وكانت من أهم أسباب الهجرة العربية من فلسطين بصورة جماعية عنيفة عام ١٩٤٨ •

ولقد أصبحت وقائع مذبحة « دير ياسين » أمرا معروفا ، ذلك لأن « دير ياسين » نالت سمعة عربية وعالمية واسعة نتيجة لما حدث فيها من فظائع قاسية .

ولكننى أود هنا أن انقل ما كتبه المسئول عن هذه المذبحة وهو الزعيم الصهيونى ميناحم بيجن أحد دعاة العنف والتشدد فى اسرائيل ، وهو وزير الدولة فى وزارة اسرائيل التى قامت بالعدوان على العرب فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وما زال وزيرا فى الحكومة الاسرائيلية حتى الآن . لقد تحدث ميناحم بيجن عن مذبحة « دير ياسين » وذلك فى كتاب له بعنوان « الثورة »

يروى قصة حياته وقصة المنظمة التى أنشأها وتزعمها وهى منظمة « الارغون زفاى ليومى » أو «المنظمة العسكرية القومية » .. يقول ميناحم فى كتابه الـــذى ترجمه الى العربية الاستاذ سمير صنبر :

« لقد قامت دعاية عالمية ضـــدنا تعلن أننا ارتكبنا الفظائع فى « دير ياسين » . والحقيقة هى أننا أنذرنا الاهالى قبل الهجوم ، ونظرا لاشـــتداد المعركة التى خسرنا فيها كثيرا من رجالنـــا اضطررنا الى استعمال القنابل اليدوية مما أدى الى موت الاهالى الذين رفضوا أن ينسحبوا من القرية . وقد ارسلت الوكالة اليهودية رسالة الى الملك عبد الله تعتذر له فيها عن حادث « دير ياسين » وقد رد الملك عبد الله على الاعتذار قائلا : « ان الوكالة اليهودية مسئولة أيضا وانه لا يعترف أن هناك ارهابيين وغير ارهابيين » . وهكذا قامت فى البـــلاد العربية ، وفى جميع انحاء العالم موجة من الســـخط على ما سموه « بالمذابح اليهودية » وقد كانت هـــذه الدعاية العربية تقصد الى تشـــويه سمعتنا ولـكنها انتجت لنا خيرا كثيرا ، فقد دب الذعر فى قلوب العرب ، فقرية « كالونيا » التى كانت ترد هجمات «الهاجاناه» الدائمة هجرها أهلها بين ليـلة وضحاها واستسلمت بدون قتـــال ، وهرب أهالى « بيت اكسا » أيضا . وبسقوطهما واحتلال « القســـطل » استطاعت القوات اليهودية أن تحافظ على الطريق الى القدس . وفى أماكن كثيرة كان العرب يهربون دون أن يشتبكوا مع اليهود فى اى معركة وقد ســـاعدتنا أسطورة « دير ياسين » فى المحافظة على طبريا واحتلال حيفـــا . وعندما تقدمت جميع القوات اليهودية فى هجومها الناجح على حيفا كان

العرب يهربون مذعورين صائحين : دير ياسين ! ! »

هـذا هو ما يقوله ميناحم بيجن ، وهو يكشف لنا بوضوح كامل عن مغزى المذابح الاسرائيلية وخططهـا الدقيقة فهي تهدف الى تقـديم نموذج يخيف العرب ويرهبهم ويؤدى بهم الى الاستسلام للخطط الاسرائيلية

وبعد مرور ثمانية أعوام على مذبحة « دير ياسين » قدمت اسرائيل نموذجا آخر من سياستها الارهابية فى مذبحة جديدة قامت بها عام ١٩٥٦ ، وذلك فى قرية «كفرقاسم» العربية ، والتى تضم حوالىألفين وخمسمائة مواطن كلهم من العرب . وقد حدثت هذه المذبحة ليلة العدوان الثلاثى على مصر اى فى مساء ٢٩ اكتوبر عام ١٩٥٦ . وكان الهدف من هذه المذبحة هو نفسالهدف من مذبحة « دير ياسين » وهو ارهاب العرب واشاعة الذعر فى نفوسـهم ، وكان التخطيط فى هـذه المذبحة موجهـا الى عرب الارض المحتلة وخاصـة فى مناطق الحدود ، فقد كان الهدف هو دفع العرب للهروب الى البلاد العربية المجاورة وبذلك يتخلص الاسرائيليون من جزء من السكان العرب .

وتبدأ مأسـاة كفر قاسم عنـدما قررت السلطات الاسرائيلية منع التجول فى القرية العربية فى تلك الليلة ابتداء من الساعة الخامسة مساء حتىالسادسة صباحا ولـكنهم لم يبلغوا أهالى القرية بهـذا القرار الا بين الساعة ٣٠ر٤ والساعة ٤٥ر٤ ، أى قبل موعد منع التجول بحوالى ربع ساعة . وكان من الطبيعى الا يصل الامر لـكل أهل القرية فى تلك الفترة القصيرة وخاصة بالنسبة للعمال الذين يقومون بالعمـل خارج القرية . وقد عاد ما يقرب من خمسين عاملا من أهل القرية بعد

منع التجول بقليل فأطلق الجنود الاسرائيليون النيران عليهم وقتلوهم دون أن يعرف هؤلاء الضحايا سببا لذلك أو يعرفوا حقيقة التهمة الموجهة اليهم فى نظر السلطات الاسرائيلية .

وهـــذه بعض وقائع المذبحة كما رواها بعض الذين نجوا منها وكما نشرتها الصحف الاسرائيليـة نفسها ، وترجمها عن العبرية الاستاذ ربحى كمال فى كتابه عن « العرب فى الارض المحتلة » .

« يتحدث العامل عبد الله سمير بدير من قرية كفر قاسم فيقول :

« فى الساعة الخامسة الا خمس دقائق وصلت الى مدخل القرية مع ثلاثة آخرين من العمال ، وكنا نمتطى الدراجات ، والتقينـــا بدورية من حرس الحدود على سيارة ، وعددهم ١٢ شرطيا مع ضابطهم ونزل رجال الشرطة وأمرونا بالوقوف وأصدر الضابط أمره باطلاق الرصاص علينا . ولما بدأ رجال الشرطة باطلاق النار ، ارتميت أنا عبد الله سمير بدير ، على الارض وتدحرجت الى الحجرة المجاورة للطريق وأنا أصرخ ، ولـكننى لم اصب بأذى ، وتوقفت عن الصراخ وتظاهرت بالموت . واستمر الجنود فى اطلاق النار على العمال المصابين حتى قال لهم الضابط : كفى ... ووصلت بعد ذلك عربة « كارو » تحمل ثلاثة عمـــال فأوقفت الدورية العربة وأطلقت النار على العمال فقتلتهم وابتعدت الدورية عن ذلك المـكان بضـــع عشرات من الامتـــار ، واحتلت استحكاما آخر على الطريق . ووصـــل عدد آخر من العمال وسيارة شحن مملوءة بالعمال ، فانتهزت الفرصة وركضت نحو القـــرية فأطلقت الدورية النـــار على ، ولـكننى لم أصب ، واختبـأت فى أحد البيوت الاولى

للقرية حتى انتهى منع التجول »

ومن بين سيارات الشحن التى وصلت الى مدخل القرية سيارة تحمل ١٣ عاملة ، بالاضافة الى السائق ومعاونه ، وكن عائدات من عملهن فى قطف الزيتـــون خارج القرية . وعن مصير ركاب هذه السيارة تحدثت هناء سليمان عمر ، وعمرها ١٦ عاما قائلة :

ــ أوقفونا عند مدخل القرية وأمروا السائق ومعاونه بالنزول لقتلهما ، فراحت النســـاء يبكين ويتوســـلن طالبات عدم قتلهما ، ولـكن رجال الشرطة صاحوا : سنقتلـكن أنتن أيضا . ولما قتلوهما راحوا يتشاورون فيما يفعلون بالنساء . وسمعت أحـد الجنود يتحدث باللاسلـكى . وفى الحال راح رجـــال الشرطة يقتلون النساء ، وبعضهن نساء حوامل ، واحداهن فى شهرها الثامن هى فاطمة داود صرصور ، وبينهن عجائز تتراوح اعمارهن بين ٥٠ و ٦٠ عاما ، وفتيـــات صغيرات مثل لطيفة عيسى ورشيقة بدر لا يتجاوزن ١٣ عاما . أما أنا فقد جرحت ، وسقطت بين الجثث وظنوا انني فقـــدت الحياة .. »

وقد استمرت هذه المذبحة حتى بلغ عدد القتلى من سكان القرية حوالى الخمسين ســـقطوا واحدا بعـــد الآخر .. بحجة أن هؤلاء الضحايا خالفوا أمر منع التجول، والحقيقة انهم لم يسمعوا به نهائيا ، ولم يكن فى الامكان أن يسمعوا به ، لان القرية سمعت بهذا الامر بعد اصداره بفترة قصيرة تتراوح بين نصف ساعة وربع ساعة

هذه المذبحة التى قام بها الاسرائيليون عام ١٩٥٦ ، تجسد روحهم العدوانية نحو العرب فى الارض المحتلة ، وهى روح تحركها رغبة عاتية فى الانتقام والتـــدمير

على ان مذبحة كفر قاسم لم تمر بسلام على السلطات الاسرائيلية ، فقد جعل منها العرب فى الارض المحتلة ذكرى قومية يحتفلون بها كل عام بالمظاهرات والاضرابات ، وكثيرا ما تقوم السلطات الاسرائيلية بفرض الحصار على « كفر قاسم » ومنع الدخول اليها أو الخروج منها فى يوم ذكرى المذبحة . لقد اصبحت «كفر قاسم » شرارة نضالية لا تنطفىء أبدا ، واصبح شهداء « كفر قاسم » جيشا يحارب حربا قوية عنيفة ضد الاسرائيليين ، ولا يملك هذا الجيش من الشهداء مسدسات أو بنادق أو قنابل ، وانما يملك ما هو أقوى من ذلك كله ... انه صرخات المظلومين والابرياء من الاطفال والصبايا والشباب والعجائز ، وهى صرخات يطلقها هذا الجيش من الشهداء ضد سلطات الاحتلال والاغتصاب ، وسيظل يطلقها حتى يوم الحساب والحرية الكاملة .

ولقد حاكمت السلطات الاسرائيلية المسئولين عن هذه المذبحة محاكمة صورية ، بعد أن أحدثت المذبحة اثرا عنيفا لدى الرأى العام العربى داخل اسرائيل ، كما تسربت حقائقها الى الصحافة العالمية وأثارت نقمة واسعة على السلطات الاسرائيلية . وبالطبع انتهت المحاكمة الصورية بادانة شكلية للمسئولين عن المذبحة ، ثم انتهى الامر فى النهاية بالعفو عن هؤلاء المسئولين . ويكفى ان نعلم ان المتهم الاول فى هذه المذبحة وهو الضابط الاسرائيلي « شموئيل ملينكى » قد أدين وحكم عليه بالسجن لمدة ١٧ عاما ، ثم تم تخفيض الحكم فى الاستئناف الى ١٤ عاما ، ثم خفض رئيس الدولة الاسرائيلية الحكم الى خمسة أعوام . ثم أطلق سراح الضابط بعد فترة قليلة قبل أن يتم مدة السجن . ومن

الطريف ان أحد المسئولين عن هذه المذبحة وهو ضابط آخر اسمه « جبرائيل دهان » قد أفرج عنه بعد ادانته بقتل ٤٣ مواطنا عربيا فى المذبحة ، ثم عين بعد الافراج عنه مباشرة فى بلدية « الرملة » وهى مدينـــة عربية فى الارض المحتلة ، وكانت الوظيفة التى اختير لها هـــذا القاتل هى : « المسئول عن شئون العرب فى المدينة » . وقد حوكم فى القضية ايضا ضابط اسرائيلى كبير اسمه « اللواء شدمى » وحكمت المحكمة بلومه وتغريمه قرشا اسرائيليا واحدا .

ومن الطريف أيضا ، ان كان فى هذه المأساة مجال للطرافة ، ان احد الشعراء الاسرائيليين كتب قصيـدة عن هذه المذبحة وادان فيهـــا الاسرائيليين واعتبرهم مجرمين وسفاحين . يقول هذا الشاعر واسمه « نتان الترمان » :

« بعد أن تبينت لك تفاصيل ذلك العمل الرهيب ،
تفاصيله التى لا تستطيع اليد ان ترتفع لتكتبها
بعد ذلك عرفت : انه لا يجب الكتابة عن شىء آخر .
لا كتابة قصة ولا قصيدة ، لأن اللغة العبرية
ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل القذر الذى
جرى فى اسرائيل »

ثم يقول الشاعر الاسرائيلى بعد هذه الادانة لمجتمعه :
« لا يمكن أن يقوم مجتمع انسانى حدثت فيه مثل هذه النذالة دون أن تثور فيه رعشة غضب »

أما الشعراء العرب فى الارض المحتلة فقد جعلوا من « كفر قاسم » مدينة مقدســة للـكفاح والنضــال ، وكتبوا عنها مجموعة من أجمل أشعارهم ، ولا يكاد يوجد

شاعر فى الارض المحتلة الا وقد كتب قصيدة عن «كفر قاسم» .

ومن بين قصائد محمود درويش فى ديوانه « آخر الليل » ، قصيدة طويلة من ستة مقاطع بعنوان « أزهار الدم » تسجل بصورة فنية رفيعة مأساة « كفر قاسم » ، وما يتعلمه النضال العربى والانسان العربى من هذه المذبحة .

ففى المقطع الاول من القصيدة وعنوانه «مغنى الدم» يصور لنا محمود درويش شهداء « كفر قاسم » وقد تحولوا الى « أوتار » يغنى الشاعر على الحانها . فالشهداء لم يموتوا ، ولكنهم أصبحوا أصواتا الهية تعزف للأمل وللمستقبل ، لقد انطلق الشهداء ورفرفوا بأجنحتهم الحانية على كل المحزونين من أبناء الارض المحتلة يمسحون الدموع ويملأون القلوب بالامل

ويصور محمود درويش التناقض بين موقف القرية الوادعة الوديعة « كفر قاسم » وأهلها الذين لا يهتمون الا بالحياة ومشاغل الحياة وبين موقف الاسرائيليين المليء بالظلم والنزعة الدموية المعادية للحياة ... القرية والناس يحلمون أحلاما طيبة نبيلة والاسرائيليون يحلمون بالقتل والشر والدماء .

« كفر قاسم »
قرية تحلم بالقمح ، وازهار البنفسج
وبأعراس الحمائم
. . . . . .
ـ احصدوهم دفعة واحدة
حصدوهم
. . . . . .

. . . حصدوهم . . .
. . . . . .

في هذه الابيات تلخيص « انسانى » للموقف كله . فالذين قتلتهم السلطات لم يكونوا سوى عمال بسطاء في غابات الزيتون أو في الحقول الفلسطينية الاخرى او في أى ميدان من ميادين العمل اليدوى ، حيث يقوم العمال العرب باعمالهم في شقاء وصبر واحتمال .

على ان رؤية محمود درويش الشعرية لم تقتصر على تسجيل التناقض بين روح البراءة والاخلاص والسلام عند العرب الذين ماتوا في هذه المذبحة وبين القتلة والسفاحين ، بل ان الشاعر يصور امتداد المأساة الى الطبيعة نفسها . لقد تعاطفت هذه الطبيعة مع الانسان واشتركت في حزنه وأساه وغضبه . فالطبيعة لم تعد وديعة كما كانت ، لم تعد سعيدة راضية ... بل لقد تسرب اليها ما أصاب الانسان من الم ، وصبغتها جراح الشهداء بلون الدم :

غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت يا حبيبى
أن خمسين ضحية
جعلتها في الغروب
بركة حمراء ... خمسين ضحية
يا حبيبى .. لا تلمنى
قتلونى .. قتلونى
قتلونى

وليست هذه الصورة من باب « البلاغة القديمة » التى كانت تجعل السماء تمطر عند الحزن ، والازهار

تبتسم عند الفرح ، وما الى ذلك من الصـــور المفتعلة ... كلا ... فالشاعر هنا يصـــور لنا حالة نفسية عميقة ، وتجربة روحية شاملة ، لأن الحزن الذى ملأ نفس الشاعر ، وملأ نفوس أهل القرية البريئة ، قد انعكس على نظرتهم لـكل شىء فى الواقع الخارجى ، فاصـــبحوا لا يرون اللون الاخضر فى غابة الزيتون ، ولـكنهم يرون اللون الاحمر يصبغ كل شىء ، لأنه لون الدم البشرى البرىء الذى ســـال فى مذبحة « كفر قاسم » . على ان الصلة بين أهل القرية وبين الطبيعة هى صلة قوية ووثيقة ، فالنـــاس فى القرية يمتزجون بالطبيعة امتزاجا كاملا فى حيـــاتهم وعملهم ، ومعظم أهل القرية هم عمال زراعيون . فالصداقة بينهم وبين الطبيعة عميقة ، والامتزاج بينهم وبين الطبيـــعة هو امتزاج قوى أصيل ... فليس من الغريب أن يرى الشاعر تلك الرؤية ... وهى ان الطبيـــعة تحزن لمـأساة هؤلاء البشر الابرياء الذين سالت دماؤهم تحت الاشجار وفوق التراب وعلى القنوات الصغيرة .

ولـكن محمود درويش لا يكتفى بتسجيـــل هـــذه الرؤية الشعرية التى جعلت من الطبيعة شريكة للانسان فى حزنه العـــادل وأســـاه العميق . وجعلت غابة الزيتون الخضراء مصبوغة بلون الدم الذى ســـال من أجساد الضحايا الابرياء ... انمحمود درويش لايكتفى بذلك بل ينظر الى المأساة نظرة عميقة ، ويحاول أن يرى انعكاسها على الواقع الانسانى . وهذا جزء من الحوار الذى دار بين القتيل رقم ١٨ وحبيبته فى مقطـــع من هذه القصيدة الطويلة الرائعة نفسها ، وعنوان هذا المقطع : « القتيل رقم ١٨ » .. يقول محمود درويش على لسان هذا القتيل :

كان قلبي مرة عصفورة زرقاء
يا عش حبيبي
ومناديلك عندي كلها بيضاء
كانت يا حبيبي
ما الذي لطخها هذا المساء ؟
انا لا أفهم شيئاً يا حبيبي !

. . . . . .

أوقفوا سيارة العمال في منعطف الدرب
وكانوا هادئين
وأداروها الى الشرق
وكانوا هادئين ..

. . . . . .

ان هذا الهدوء الذي يصفه الشاعر ليس أكثر من تصوير صادق وأمين للضمير الميت عند كل قاتل سفاح. على ان القتيل رقم ١٨ بعد أن تصيبه الرصاصة في قلبه يتحول في خيال الشاعر الى كائن شفاف ... لم يمت ... لأن الشهيد البريء لا يموت ، ولكنه يخاطب حبيبته التي كانت تنتظره فيقول :

لك مني كل شيء
لك ظل لك ضوء
خاتم العرس وما شئت
وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما في كل ليلة
أدخل الشباك ، في الحلم ،
وأرمي لك فلة
لا تلمني ان تأخرت قليلا
انهم قد أوقفوني

هــذا التصوير الفنى الصادق العميق المؤثر لذلك القتيل الشهيد الذى رحل عن الحياة ماذا يقدم الينا ؟ انه يؤكد لنا معنى يحس به الشاعر احساسا فريدا .. فاذا كان جسد الشهيد قد رحل عن الارض التي يحبها فان ما فى قلبه من عواطف أصيلة وافكار بسيطة ونبيلة لم ترحل ولا يمكن ان ترحل . ان ما كان يحمله فى عقله وقلبه لا يمكن أن ينطفىء مع انطفاء الجسد ، ولا يمكن ان تغتاله رصاصات العدو ... حبه لأرضه ، وحبه لأهله ، وحبه للحياة ، كل هذا ما زال باقيا متجسدا فى علاقته مع حبيبته التى ما زال يتحدث اليهــا ، ويحمل لها الهدايا ، ويدخل بيتهـا من الشباك مع الاحلام والاطياف ، ويرمى لها فلة ويعتـذر عن تأخره قليلا ... ان الحياة تدب فى أوصال القتيل ، لأنه كان يحمل فى قلبه أشياء غالية لا تموت مثل حبه وبراءته .

على ان العلاقة الانسانية فى حياة الشهيد ليست هى علاقته بحبيبته فقط ، ليست هى عاطفته الجميلة التى بعثت بعد موته حية متوهجة تطل على الحبيبة وترعاها وتمنحها هداياها المعهودة ... ليس هذا هو الامتداد الوحيد لحياة الشهيد ، بل ان هنالك امتدادا آخر ، هو امتداد الكفاح فى الحياة اليومية ، فهذا الشهيد هو من سلالة عاملة تأكل خبزها بعرق أيامها ... انه من جماعة ذات قلوب طيبة وقضيـة عادلة ولكن أيديها خشنة ليس فيها نعومة البطالة والترف ... ولذلك فان الشهيد سوف يبقى ما بقيت عواطفه النبيلة ، وما بقيت تلك الايدى الخشنة التى تكافح وتعمل وتعرق .. ففى مقطع آخر من قصيدته عن « كفر قاسم » وعنوانه « القتيل رقم ٤٨ » يقول محمود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد
وقمر ...
وهو ملقى ، ميتا ، فوق حجر
وجدوا علبة كبريت
وتصريح سفر
وعلى ساعده الغض نقوش
قبلته أمه
وبكت عاما عليه
بعد عام
نبت العوسج فى عينيه
واشتد الظلام
عندما شب أخوه
ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة
حبسوه ...
لم يكن يحمل تصريح سفر
انه يحمل فى الشارع
صندوق عفونة
وصناديق أخر
آه ، أطفال بلادى
هكذا مات القمر

ان هــذا الشهيد باق اذن ، له امتداد لا ينتهى ، طالما ان هناك مكافحا آخر يبذل عرقه فى الشوارع او فى السجون او فى اى ميدان من ميادين العمل .

ان هــذا الشهيــد الذى سقط فى « كفر قاسم » لا يمكن أن يموت لانه ترك وراءه أشياء غالية : الحب والعمل وفلة لحبيبته !

وبعد هذه الرحلة مع شهيد « كفر قاسم » وعلاقاته

الانسانية التي لم تنقطع مع الرصاصات التى تلقـاها فى قلبـه ، يحملنـا محمود درويش الى المعنى العام لقصيدته الطويلة الرائعة ، وهو يحملنا الى هذا المعنى بعد أن نكون قد عشنا مع الشهيد فى لوحات مختلفة من حياته بعد الاستشهـاد ، سـواء كانت هـذه اللوحات تصويرا لعلاقته مع حبيبته أو لعلاقتـه مع أهله وأبناء قريته . وهـذا المعنى العام يجسده لنا محمود درويش فى قوله :

الذى مات هو القاتل يا قيثارتى
ومغنيك انتصر
وفى قوله :
« كفر قاسم » اننى عدت من الموت لأحيا ! لأغنى
فدعينى أستعر صوتى من جرح توهج

وأعينينى على الحقد الذى يزرع قلبى عوسج
اننى مندوب جرح لا يساوم
علمتنى ضربة الجلاد
ان أمشى على جرحى
وامشى ثم امشى ... واقاوم !

هذا هو الصوت الذى يرفعه الشاعر من بين أنقاض مذبحة « كفر قاسم » ، ومن بين أجساد الشهداء ... انه صوت أرواح الشهداء الفقراء الـذين ماتوا فى تلك الليلة الحزينة دون أن يعلموا سـببا لموتهم .. فهـذه الارواح كان لها همسها وغناؤها الباقى الذى لا يذوب أبدا امام اصوات مليئة بالضجيج والعنف . ولقد انصت الشاعر جيدا الى هذه الاصوات ونقل الينا فى قصيدته النبيلة ما قاله لنا الشهداء وما يرددونه مع الايام حتى يسود العدل :

يا « كفر قاسم » ! لن ننام
وفيك مقبرة وليل
ووصية الدم لا تساوم
ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم
أن نقاوم ...

ان القوة تولد هنا من المأساة ، و « كفر قاسم » لم تعد قرية بسيطة عادية ، بل أصبحت قريتنا جميعا لانها قرية المجروح والشهيد وطالب الثأر من الظلم

شعراء وشهداء

انني ابحث في الانقاض عن ضوء
ومن شعر جديد
**
قصائدنا
بلا لون
بلا طعم
بلا صوت
اذا لم تحمل المصباح
مـن بيت الى بيت
محمود درويش

لم يظهر محمود درويش فجأة ، ولم تظهر مدرسته الشعرية بلا مقدمات ، فمحمود درويش ومدرسته يرتبطان أشد الارتباط بحركة النضال فى فلسطين وبشعراء هذه الحركة النضالية . ولو عدنا الى تاريخ الادب العربى فى فلسطين لوجدنا أن مدرسة محمود درويش تمتد بجذورها الى جيلين سابقين هما جيل ١٩٣٦ وجيل ١٩٤٨ . ولا بد لنا من الحديث عن هذين الجيلين اذا اردنا أن نعرف المقدمات الصحيحة التى مهدت للجيل الثالث وهو جيل محمود درويش ورفاقه

والحادث الرئيسي الذى كان فرصة لظهور الجيل الاول من شعراء المقاومة هو ثورة عام ١٩٣٦ . ففى أواخر ابريل من هذا العام قامت فى فلسطين ثورة شاملة ، بدأت باضراب أعلنه الشعب واشتركت فيه معظم الطوائف باستثناء بعض العناصر من الموظفين الذين ترددوا فى الاستجابة للثورة ، ونشبت معارك مسلحة فى عدد كبير من المدن الفلسطينية بين العرب من جانب واليهود والانجليز من جانب آخر ، وأعلن العرب قبل بدء الاضراب بليلة واحدة مطالبهم المحددة أمام العالم كله ، وكانت هذه المطالب تتركز فى وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين فورا ، ثم فى اصدار قانون

يمنع تسرب الاراضى العربية من طريق بيعها لليهود أو الاستيلاء عليها بواسطة سلطات الانتداب الانجليزى ثم تسليمها لليهود بعد ذلك ، وكان المطلب الثالث الذى أعلنه العرب هو تشكيل حكومة وطنية عربيـــة تتولى السلطة فى فلسطين .

واهتزت السلطات الانجليزية أمام اجماع أغلبيـــة الشعب على الاضراب والثورة ، كما أثر موقف الشعب على القيادات السياسية التى كانت تعيش فى انقســـام وتمزق كبيرين ، فاتحدت هـــذه القيادات فيما سمى حينذاك باسم « اللجنة العربية العليا » كذلك اشترك مناضلون من خارج فلسطين فى الـكفاح المسلح الذى شمل فلسطين فى ذلك العام ، وكان موجها ضد اليهود والانجليز فى وقت واحد ، ونشأت فى المناطق الفلسطينية المختلفة حكومات محلية سميت باسم « اللجان القومية » وكانت هـــذه اللجان تشرف على توجيه الثـــورة من الناحيـــة السياسيـــة ، وكانت تشرف على تزويدها بالسلاح كما كانت تقوم بكل المهام الاخرى التى تحتاجها ادارة البلاد فى ظل الثورة .

وقد أسرع الانجليز باللجوء الى بعض الحكام العرب ليتوسطوا لدى القيـادات السياسية فى فلسطين حتى تدعو الشعب الى انهاء اضرابه وثورته لايجاد منـــاخ مناسب وفرصة جديدة للتفاهم مع الانجليز على تحقيق المطالب العربية ، وقد نجحت هذه الوساطة التى كان نورى السعيد على راس القائمين بها فى ايقاف الاضراب والثورة المسلحة ولم تنجح فى تحقيـــق أى تفاهم بين شعب فلســـطين والســـلطات الانجليزية ، وذلك لأن الانجليز كانوا قد أعدوا خطتهم على أساس اقامة دولة

اسرائيل بالارهاب تارة وبالمناورة تارة أخرى .

ومهما كانت نتائج ثورة عام ١٩٣٦ فى فلسطين ، فانها فى الحقيقة كانت ثورة عنيفة وشاملة ، بل انها كانت أكبر مما قدرته لها كل القيادات السياسية فى ذلك الحين ، واستطاعت هذه الثورة أن تخلق جيلا من عرب فلسطين له نظرة خاصة للقضية الفلسطينية ، وهى نظرة عنيفة غاضبة مناضلة ، استطاعت أن تدرك بعد تجارب عديدة انه لا حل لهذه القضية الا بالقوة المسلحة ، ولذلك فانها لم تعد تؤمن الا بالمقاومة على أعنف صور المقاومة ضد اليهود والانجليز معا ، فذلك هو الحل الوحيد للمأساة التى كان هذا الجيل يراها قادمة تزحفعلىالارض الفلسطينية ، وتنسج لشعب فلسطين العربى مصيرا دمويا لا حدود لتعاسته وشقائه .

ولقد كان الجيل الذى مهد لثورة ١٩٣٦ ثم قادها بعد ذلك يشعر بأن هناك املا كبيرا فى النصر لو ارتفع صوت المقاومة فوق كلّ صوت ، لأن المأساة لم تكن قد نسجت كلَّ خيوطها ولم يكن الظلام قد أصبح شاملا ، بل كان هناك أمام المناضلين فرصة للعمل والحركة ، ومن هنا فاننا نستطيع أن نسمى جيل عام ١٩٣٦ باسم « جيل المقاومة » ، فلقد حارب المخلصون من أبناء هذا الجيل حربا شاملة على جميع الجبهات ، فحاربوا بالكلمة والسلاح والتنظيمات السرية والتنظيمات العلنية على السواء ، وحاولوا أن يستمدوا المساعدة من البلاد العربية ومن أوربا ومن كل مكان تصوروا انه يمكن أن يخدم القضية بأى قدر ولو كان ضئيلا .

ومن الظواهر التى تلفت النظر فى هذا الجيل أن

المثقفين لعبوا دورا كبيرا فى قيادته وتوجيهه ، ولعل أصدق نموذج نضالى يقدمه هذا الجيل هو نموذج الشيخ « عز الدين القسام » الذى جسد ولا شك أفضل خصائص جيل عام ١٩٣٦ وأعظمها وأكثرها اصالة وصفاء ، ولذلك فانه يمثل الوجدان الفلسطينى فى ذلك الجيل خير تمثيل ، وربما كان هناك زعماء أكثر شهرة منه ،وربما كان هناك قادة أحزاب سياسية استطاعوا أن يجمعوا عددا أكبر من الانصار ولكن ذلك كله لا ينفى أننا فى بحثنا عن الوجدان الفلسطينى لن نجد اصدق من هذا النموذج النضالى كممثل حقيقى لجيل عام ١٩٣٦ ، ورغم ان القسام استشهد فى أواخر عام ١٩٣٥ الا ان بعض رجاله قد عاشوا بعده وساهموا فى قيادة ثورة عام ١٩٣٦ مساهمة كبيرة ، كما ان القسام كان بأفكاره الثورية التي نشرها فى طول الارض الفلسطينية وعرضها من أكبر الذين مهدوا لثورة عام ١٩٣٦ وأعدوا الشعب لها خير اعداد ، وليس مجرد مصادفة أن تشتعل الثورة بعد استشهاد القسام بحوالى خمسة اشهر ، وحتى هذه الاشهر لم تكن هادئة بل كانت تنذر بالانفجار بين لحظة واخرى ، وكان الغضب الذى يملأ قلب الشعب يعبر عن نفسه فى انفجارات صغيرة متنوعة

ولن نستطيع أن نفهم الشعراء الذين ينتسبون الى جيل عام ١٩٣٦ ويعبرون عنه دون أن نقف أمام شخصية الشيخ القسام وقفة متانية باعتباره نموذجا مثاليا يكشف حقيقة الوجدان الفلسطينى فى تلك الفترة ، وهو وجدان المقاومة والاستشهاد والغضب واشعال النار فى صفوف الاعداء ، ولم يكن القسام مجرد حالة فردية ، بل كان صورة أمينة لحقيقة

العواطف الشـــعبية فى حرارتها والتهابهـــا العنيف . وعندما نحس بشخصية القسام وصورته الواضحة ، فاننا نستطيع أن نفهم الدائرة الوجدانية التى كان يدور فيها شعر فلسطين فى تلك الفترة

وهـــذه هي صورة القسام وصورة حركته الثورية الاستشهادية كما قدمها لنا الاستاذ ناجى علوش فى كتابه القيم عن « المقاومة العربية فى فلسطين » .. وأنقل هنا هذه الصورة الدقيقة الواضحة بكل تفاصيلهـــا حتى تعطينا ما نحتاج اليه من معرفة كاملة بما كان يعيش فى قلب هذه الفترة من أفكار وانفعالات وحركات عميقة .

يقول الاستاذ ناجى علوش فى كتابه : « كان عزالدين القسام رجل دين وقورا ، وخطيبا ملك أعنة الكلام ، وتوفر على علم واسع بمجاله ، وقد وضع علمـــه ومركزه الدينى فى خدمة المقاومة العربية ، فأخـــذ يحرض على الانتفـــاض على الظلم والثورة على الاجنبى ، مذكرا فى خطبه بأن المسلم غير مكلف بالخضـــوع للأجانب وكان مؤمنا أن الثورة لابد لها من أن تعتمـــد على الفلاحين والعمال . رأى القســام ان الهبات الشعبيـــة لا تكفى لتحرير البلاد ودفع الخطر الصهيونى عنها ، كما رأى ان القيادة فى فلسطين غير أهل للمهمة الخطيرة الموكولة اليها ، ولذلك فقدعمل على انشاء حركة ثورية عقائدية ، تقوم على العقيدة الاسلامية من جهة ، وعلى التنظيم السرى من جهة أخرى ، ومن هنا بدأ القسام العمل ، فأنشأ حلقات سرية ، واخذ يعدها ليومها الموعود »

« ليس هناك تفصيلات واسعة عن تنظيمات القسام وأفكاره ، وخططه ، ولـكن ما هو موجود يدلنا على ما يلى :

اولا : اعتبر القسام أن المقاومة تقتضى وجود «كوادر» مهياة عقائديا وسياسيا وعمليا ، ولذلك فقد اتجه الى تثقيف أنصاره ومريديه تثقيفا اسلاميا وطنيا ، وكانت عملية التوعية هذه تستهدف تزويد المقاتلين بالايمان ، وحضهم على التضحية والتفانى ، وفى القرآن الكريم مادة لا تنضب من الآيات والاحاديث المفيدة جدا فى هذا المجال .

ثانيا : اعتبر القسام أن بريطانيا هى أساس البلاء ، وان الحركة الصهيونية مرتبطة بالاستعمار البريطانى ، ولذلك فان انهاء الانتداب هو الواجب الاول ، على أن تبذل الجهود لمنع الحركة الصهيونية من الاستيلاء على مزيد من الاراضى .

ثالثا : ان الثورة المسلحة هى وحدها القادرة على انهاء الانتداب والحيلولة دون قيام دولة صهيونية فى فلسطين وهذه الثورة تستلزم : نشوء تنظيم سرى — تربية المقاتلين واعدادهم للمعركة عسكريا — تعبئة الجماهير نفسيا لتاييد الثورة والاشتراك فيها .

وبدأ القسام العمل ، تحقيقا لهذه الاهداف منذ عام ١٩٢٢ ، بتأسيس الحلقات السرية . وقد انتسب عام ١٩٢٦ الى جمعية الشبان المسلمين ، فانتخب رئيسا لها ، وكان يستهدف بانتسابه للجمعية التستر على أعماله السرية . وحينما عين عام ١٩٢٩ مأذونا شرعيا أخذ يتجول فى القرى ، دارسا نفسية الشعب ، داعيا جموعه الى المحبة والوئام . وكان القسام يتصل بكل فئات الشعب ، حتى الذين لا يعرفون بالورع والتقوى ، فأثار حفيظة بعض رجال الدين وجرى بينه وبينهم نقاش حول الموضوع ، استعمل القسام منبر

مسجد الاستقلال فى حيفا لاستثارة روح الكفاح فى المصلين ، ولاختيار العناصر التى يتوسم الخير فيهـا منهم ، لتنضم الى حلقاته السرية ، وطلب القسام من الحاج « أمين الحسينى » ، مفتى فلسطين فى ذلك الحين ، أن يعينه واعظا متنقلا ، ليعمل من أجل الاعداد للثورة ، فاعتذر الحاج أمين قائلا : « نحن نعمل لحل القضية سياسيا » . وأرسل القسام عام ١٩٣٥ أحد رجاله المدعو محمود سالم ، الى الحاج امين ليعلمه بعزم القسام على اعلان الثورة فى الشمال ، وليطلب منه اعلان الثورة فى الجنوب ، ولكن المفتى أجاب : بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وان الجهود السياسية التى تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقوقهم » .

«كان القسام فى هذه الفترة قد بنى تنظيمه السرى ، واشترى كميات من الاسلحة ودرب عددا من المقاتلين ، وقد اتصل بالطليان أعداء الانجليز ومنافسيهم على المنطقة العربية وضمن تأييدهم .

وكانت لجان خمس تشرف على العمل وهذه اللجان هى :

أولا : لجنة الدعوة وهى مكونة من عدد من العلماء وظيفتها اعداد الشعب للثورة مستخدمين كل الوسائل الممكنة من الاتصال اليومى بالناس ، الى حلقات التدريس والخطب فى المساجد .

ثانيا : لجنة التدريب العسكرى ووظيفتها اعداد المقاتلين .

ثالثا : لجنة العتاد ، ووظيفتها شراء الاسلحة وحفظها فى الاماكن الامينة .

رابعا : لجنة مراقبة الاعداء ، ووظيفتها جمع المعلومات عن الانجليز والصهاينة .

خامسا : لجنة الشئون الخارجية ، ووظيفتها تنحصر فى العلاقات الخارجية .

اجتمعت قيادة الحركة بمناسبة الذكرى السنوية لاصدار وعد بلفور ، وقررت بدء الكفاح بالانتقال الى الريف ، وكان ذلك فى ١٩٣٥/١١/١٢ ، واختارت منطقة « جنين » القريبة من حيفا مسرحا لعملياتها ، وكانت تستهدف الاتصال بالفلاحين ، وتحريضهم على الاحتلال الاجنبى ، ودعوتهم للاشتراك فى الثورة .

وكان عدد الاعضاء المنظمين فى الحركة قرابة مائتين عند اتخاذ هذا القرار ، بالاضافة الى ثمانمائة من الانصار. ولاعتقاد القسام بأن الثورة يجب أن تعتمد على الفلاحين والعمال ، فقد اختار أعضاء منظمته من أوساط « الفلاحين والعمال » الذين كانوا يسكنون فى ضواحى حيفا .

حين انتقلت جماعة القسام الى الريف أحس الجواسيس المكلفون بمراقبتهم أنهم غائبون ، فازداد قلق السلطات المحتلة ، ونشطت فى البحث عنهم . وفى يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ التقى نفر من جماعة القسام بجاويش يهودى ، وشرطى عربى ، فقتلوا الجاويش ، وتركوا الشرطى حيا ، وقد أخبر الشرطى بما رأى ، فحشدت السلطات المحتلة قوة كافية ، واخذت تجوب المنطقة بحثا عما اسماه الانجليز « العصابة » .

استمر البحث أياما ، حتى ان جريدة فلسطين كتبت تقول : « قضاء جنين كأنه ساحة حرب » . استطاعت القوات البريطانية أن تحكم الطوق على جماعة القسام

الذين قاوموا مقاومة باسلة ، ولكنهم كانوا فى واد عميق ، ولم يفكروا فى التسلل والهرب ، بل فى المقاومة والاستشهاد ، ولذلك فان القسام حين طلب منه الاستسلام أجاب : « اننا لن نستسلم ، أن هذا جهاد فى سبيل الله والوطن » والتفت الى زملائه وقال : « موتوا شهداء » . واستمر الاشتباك الاخير من الفجر حتى التاسعة صباحا ، حين قتل القسام وبعض صحبه ، وجرح آخرون منهم الشيخ نمر حسن السعدى .

لم تستطع حركة القسام أن تحقق أهدافها الاولية فقد قتل قائدها ، وبعض كبار معاونيه . الا ان الحركة لم تذهب سدى ، ذلك ان بعض جماعة القسام ، قد افترقوا عنه ، بقيادة الشيخ فرحان السعدى بعد مقتل الشاويش اليهودى فنجوا ... ثم أن مقتل القسام حرك البلاد ، وأثار كوامن حقدها ونقمتها ... »

هذه هى صورة « القسام » كما يرسمها الاستاذ ناجى علوش ، بكل ابعادها الواضحة العميقة وهى صورة حية نبيلة مشرقة لمثقف ثورى عربى ، فقد ثقته بالقيادات السياسية التقليدية فى عصره ، وأحس أن اللغة الصحيحة هى لغة الثورة والاستشهاد ، وجسد فى موقفه حقيقة الوجدان الفلسطينى فى تلك المرحلة من تاريخ فلسطين . وكما يبدو أمامنا من خلال نموذج « القسام » فان الوجدان الفلسطينى فى تلك المرحلة كان وجدانا مشتعلا بروح المقاومة ، مؤمنا بأن الدين والعلم والثقافة والفن والادب وكل شىء يجب أن ينصهر فى المعركة الاساسية ، ولذلك فقد أحال هذا الشيخ الشهيد خطبه فى المسجد وجولاته فى القرى والمدن

كمأذون يربط بين القلوب برباط من القانون والشرع ، وجلساته فى صحون المساجد المختلفة ... حول هذا كله الى دعوة للثورة المسلحة ، والتنظيم القوى الذى يستطيع الوقوف فى وجه الانجليز واليهود معا . ولقد كانت عقلية «القسام» الثورية فى غاية الدقة والوضوح.

ويبدو لنا هذا كله من تنظيمه لجماعته الصغيرة الى لجان دقيقة تستوعب كل أوجه النشاط فى العمل الثورى ، كما كان اصراره على ان القاعدة الاساسية للثورة ينبغى أن تتكون من الفلاحين والعمال دليلا على فهم فذ وموهبة ثورية أصيلة فى تلك الفترة المبكرة من تاريخنا العربى قبل ثلاثة وثلاثين عاما. كما كانت أفكاره تحديدا لبرنامج ثورى شديد الوضوح حول العمل لتحرير فلسطين ، ولقد كانت هذه الأفكار التى ترددت فى برنامجه الثورى تمثيلا صحيحا لهموم الشعب وآماله ، وكانت هذه الافكار أيضا هى نفسها التى ترددت فى قصائد الشعراء البارزين فى تلك الفترة ، ولا شك ان هؤلاء الشعراء تأثروا بآراء القسام وشخصيته الثورية الجذابة المخلصة ، كما أنهم من ناحية أخرى كانوا يعبرون عن هذه الافكار باعتبارها أفكارا عامة كامنة فى روح العصر ... ولم يفعل القسام فى نهاية الامر الا انه استخرج هذه الأفكار من قلب الواقع ، ثم بلورها فى أحاديثه وخطبه ، ثم دافع عنها آخر الامر بدمه .

هذا النموذج الحى للوجدان الفلسطينى فى تلك الفترة هو الذى عبر عنه شعراء فلسطين من أبناء جيل عام ١٩٣٦ ، وهناك عدة ظواهر فنية وانسانية مشتركة عند كل هؤلاء الشعراء

فهم اولا : شعراء مناضلون ، اى ان العمل السياسى الثورى كان بالنسبة لهم « غذاء يوميا » ، بل ان شعرهم نفسه لم يكن الا أداة من أدواته هذا العمل السياسى الثورى ، وقد تعرض هؤلاء الشعراء للاضطهاد العنيف ومات بعضهم فى ميدان النضال شهداء كما مات « القسام » ، فقد كانوا من نفس النسيج الذى تكونت منه شخصية القسام ، وكانوا جميعا فى النهاية تعبيرا عن الوجدان الشعبى المقاتل وتجسيدا له فى تلك الفترة ... ذلك الوجدان الذى لم يكن يرى سوى الثورة المسلحة العنيفة الشاملة طريقا للخلاص .

وهؤلاء الشعراء ــ ثانيا ــ جعلوا من شعرهم تسجيلا للمواقف الثورية المختلفة فى فلسطين ، وجعلوا منه اعتراضا واحتجاجا على المواقف المترددة ، ويمكننا ان نستخرج كثيرا من الاحداث التاريخية الواقعية الخاصة بالثورة فى فلسطين من دواوين هؤلاء الشعراء ... لقد قدموا دواوين شعر وكتب تاريخ فى نفس الوقت ، فدواوينهم ليست مجرد تعبير وجدانى عن النضال ، بل هى وثائق تاريخية لهذا النضال ، وهى احيانا تسجيل يومى لاحداثه المختلفة .

ومن ناحية ثالثة كان هؤلاء الشعراء يستخدمون الشكل التقليدى للقصيدة العربية فى التعبير عن مشاعرهم وتجاربهم ... فالتحدى الذى كان يواجه الشاعر العربى الفلسطينى من جانب الانجليز واليهود معا هو التهديد بالقضاء على شخصيته كعربى ، والقضاء على الشخصية العربية لفلسطين نفسها . ومن هنا فلقد كان من الطبيعى أن يتمسك الشاعر بتراثه وتقاليده

الثقافية والادبية العربيـــة ، وذلك كجزء من تمسكه بشخصيته الاصـيلة التى تواجه التحـــدى وتتعرض للعاصفة .

والواقع ان المعركة العربية فى فلسطين فى تلك الفترة لم تترك مجالا امام الشاعر العربى الفلسطينى لكى يفكر تفكيرا عميقا فى قضية التجديد ، فعندما تشتعل النيران فى أنحاء البيت لا يفكر أحد فى أحدث الاساليب لبناء العمارات... ان الاساليب والاشكال هنا تميل عادة الى التبسيط والسهولة والتأثير المباشر ، لأن الهدف هو انقاذ البيت من الحريق . ومن ناحية أخرى فان قضية التجديد الادبى فى ميدان الشعر العربى فى عام ١٩٣٦ لم تكن واضحة بما فيه الـكفاية ، فلقـد كان جيـــل المجددين من الشعراء من أمثال على محمود طه وابراهيم ناجى وغيرهما ما زالوا فى البداية لم تتأكد خطواتهم فى طريق التجديد ولم تنضج بصورة كاملة ملامح حركتهم الفنية ما عدا بعض تجديدات قليـــلة مثل التنويع فى القافية وما الى ذلك ، بالاضــافة الى ان موضوعاتهم الاساسية فى تلك المرحلة كانت موضـوعات غزلية أو فلسفية ولم يكونوا فى معركة وطنيـــة أو اجتماعية ، ولعل انصراف الشعراء المجددين فى مصر فى الثلاثينات عن الموضوعات الوطنية عموما والموضوعات العربية على وجه خاص ، كان اثرا من آثار العـــزلة الوجدانيـــة والسياسية فى مصر عما يجرى فى الوطن العربى فى تلك الايام ، فبينما كانت ثورة فلســطين تشتعل فى قراها ومدنها وسهولها وجبالها فى عام ١٩٣٦ ضـــد الانجليز واليهود ، كانت القيــادات السياسية فى مصر تتوحد فى جبهة لمفاوضة الانجليز والانتهاء الى معاهدة ١٩٣٦

... أى ان الانجليز كانوا يتعاهدون ويتفقون فى مصر فى نفس اللحظة التى كانوا يطلقون فيها الرصاص على شعب عربى آخر هو شعب فلسطين ، ومن هنا فى ظنى كان الجو السياسى العام فى مصر ـ التى كانت مركزا لحركات التجديد الفنى ـ جوا هادئا نسبيا مما ابعد كثيرا من الشعراء المجددين عن الارتباط بالمعركة العربية فى تلك الايام . ومن هنا ضعف تأثيرهم التجديدى على شعراء فلسطين .

ولعل من الاسباب القوية التى جعلت الشكل التقليدى عند جيل عام ١٩٣٦ من شعراء فلسطين هو الشكل الاساسي لقصائدهم ما يتضمنه هذا الشكل نفسه من قدرة فنية على التأثير الجماهيرى الواسع ، فمن السهل حفظ هذا النوع من الشعر لما يتميز به من وحدة البيت والقافية ، ومن السهل ترديده فى المظاهرات والاحتفالات الجماهيرية ، ولقد كانت وظيفة الشعر الاولى بالنسبة لجماهير فلسطين هي وظيفة « خطابية » تهدف الى الاثارة العنيفة والتحريض ، والدعوة الى اتخاذ مواقف معينة ، وكذلك كانت القصيدة المؤثرة حقا هى القصيدة التى تشبه المنشور الثورى فى عنفها ووضوحها وارتفاع نبرتها ، وهى القصيدة التى تقترب من الشعارات والهتافات والخطابات ، كل ذلك طبعا دون أن تفقد جمالها الخاص وصدقها الوجدانى والا انتهت بفقدان التأثير على الناس أيضا . ولذلك كان شعراء هذه الفترة يلتزمون بالقصيدة العربية التقليدية ، ولذلك أيضا تقبلتهم الجماهير وتاثرت بهم اشد التاثر .

ويقول الاستاذ كامل السوافيرى فى كتابه « الشعر

العربى الحديث فى مأســاة فلسطين » صفحة ٢٩٨ :
« لايوجد بين الفلســطينيين الذين تعلمـوا فى مدارس فلســطين بعد ثورة عام ١٩٣٦ من لا يحفظ لابراهيم طوقان قصيدتيه « الفدائى » و « الشـهيد » ولعبد الرحيم محمود قصيدتيه « الشــهيد » و « الشعب الباسل » ، ولأبى سلمى داليته التى ثار فيهـــا على ملوك العرب » ...

حقا ... لقد كانت تلك القصائد منشورات ثورية عامة موجهــة الى جميـــع المواطنين لا الى المثقفين والمشتغلين بالادب فقط ، ومن هنا فرضت تلك الوظيفة الاجتماعية الثورية للشعر شروطها الفنية على شعراء تلك المرحلة ، وهذه الشروط هى : التعبــير المبــاشر الصريح ، والشكل التقليدى ذو القافية المتنوعة أحيانا ولكن فى الاطار التقليدى ، والنزعة الخطابية الصريحة العالية التى تدعو الجماهير الى موقف محدد ... كل ذلك لانه شعر يولد وسط ضجيج المعركة ... شعر يولد فى المظاهرات والاصـــطدامات المسلحة ... بين أصوات الرصاص وأنهار الدماء .

واذا بحثنا عن الاسماء اللامعة من شعراء فلسطين فى جيل عام ١٩٣٦ وجدنا على رأس القائمة ثلاثة اسماء هم : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وابو سلمى .

وابراهيم طوقان ولد فى فلسطين عام ١٩٠٥ بمدينة نابلس وما زالت عائلته تقيم فيهـــا حتى اليوم ، ومن افراد هذه العائلة الشاعرة فدوى طوقان ، وهى شقيقة ابراهيم ، وقـــد تعلم ابراهيم فى الجامعـــة الامريكية ببيروت ثم عاد ليعمل مدرسا فى « نابلس » بمدرسة اسمها مدرســة النجاح . وفى هــذه المدرســة كانت

الدروس الاساسية التي يلقيها على طلابه هي الوطنية والعروبة والنضال ، فلقد كان يربي الطلاب على الثورة وعلوم الثورة قبل أن يربيهم على العلوم المادية . وقد ترك ابراهيم التدريس بعد أن عمل به فترة قصيرة لا تزيد عن عام واحد ، ويمكننا من خلال ديوان ابراهيم طوقان ان نعرف الكثير عن وقائع النضال الفلسطيني في تلك الفترة ، كما نجد في هذا الديوان تسجيلا للمطالب الوطنية واثارة مباشرة للشعب كي يلتزم بهذه المطالب مثل : الدعوة الى عدم بيع الاراضي لليهود ، والدعوة الى وحدة الاحزاب السياسية وما الى ذلك من قضايا واقعية مباشرة .

ولنقرأ هذا النموذج من شعر ابراهيم طوقان عن الفدائي ، وكالعادة التي تتكرر كثيرا في شعر ابراهيم كتب الشاعر هذه القصيدة في حادثة معينة يسجلها في مقدمة القصيدة فيقول : « عينت الحكومة المنتدبة يهوديا بريطاني الجنسية لوظيفة النائب العام في فلسطين ، فأمعن في النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التى كان « يطبخها » ، ولما ثقلت على العرب وطأته ، كمن له احد الشبان المتحمسين في مدخل دار الحكومة واطلق النار عليه فجرحه » ... أما القصيدة فيقول ابراهيم طوقان فيها ، وهي من أشهر القصائد بين أبناء فلسطين من جيل عام ١٩٣٦ وما بعده من الأجيال حتى اليوم :

هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف خجلا من جراءته
صامت لو تكلما لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته خلق الحزم ابكما
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما

لا تلوموه قد رأى منهج الحق مظلما
وبلادا أحبها ركنها قد تهدما
وخصوما ببغيهم ضجت الارض والسما
مر حين فكاد يقتله اليأس انما
هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدئى يا عواصف خجلا من جراءته

وفى قصيدة أخرى يقول ابراهيم طوقان متحدثا عن هؤلاء العرب الذين يبيعون الارض لليهود :

باعوا البلاد الى أعدائهم طمعا
بالمال لكنما أوطانهم باعوا
قد يعذرون لو أن الجوع أرغمهم
والله ما عطشوا يوما ولا جاعوا
وبلغة العار عند الجوع تلفظها
نفسى لها عن قبول العار رداع
تلك البلاد اذا قلت : اسمها « وطن »
لا يفهمون ، ودون الفهم اطماع
يا بائع الارض لم تحفل بعاقبة
ولا تعلمت ان الخصم خداع
فكر بموتك فى أرض نشأت بها
واترك لقبرك أرضا طولها باع

وفى هذه القصيدة يقول بيته المشهور :

أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفة
ونحن منذ هبطنا الارض زراع

هذا هو شعر ابراهيم طوقان الذى يمثل « وجدان عام ١٩٣٦ » خير تمثيل فهو شعر نضالى عنيف صريح مباشر ، فيه صفاء مطلق فى الرؤية الوطنية ، وفيه دعوة وتحريض ، وتسجيل للمشاعر والوقائع التى

امتلأت بها هذه الفترة الملتهبة من تاريخ فلسطين . وقد ظل ابراهيم طوقان يكتب شعره بهذا الاسلوب الواضح الصريح ، وظـــل ملتزما بموقفه الوطنى المنيف حتى مات فى السادسة والثلاثين من عمره عام ١٩٤١ حيث كان منذ صباه يعانى ازمة مرضية صاحبته طيلة حياته حتى قضت عليه فى زهرة العمر .

أما عبد الرحيم محمود فهو تلميذ من تلاميذ ابراهيم طوقان فى مدرســـــة النجاح بنابلس ، وقـــد تعلم عبد الرحيم الشعر والوطنية على يد أستاذه وعندما أتم تعليمه بالمدرسة أصبح مدرسا بها . وكان عبد الرحيم مناضلا حقيقيا : بمواقفه وقصائده معا ، وقد اشترك فى المعارك الشعبية المسلحة ضـــد الانجليز واليهود فى ثورة عام ١٩٣٦ ، ثم هرب الى العراق بعـــد اخماد الثورة عن طريق الارهـــاب والمنـــاورات الانجليـــزية والوســـاطات المتـــكررة من بعض الحكام العرب ، وفى العراق اشترك عبد الرحيم محمود فى ثورة رشيد عالى الـكيلانى عام ١٩٤١ ، وعندما قامت الحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ اشترك الشاعر فيها ، محاربا وفارســـا ، واستشهد فى احدى المعارك بقرية الشجرة قريبـــا من مدينة الناصرة ، وكان سنه عند استشهاده خمســـة وثلاثين عاما .

وشعر عبد الرحيم محمود ، هذا المناضل والفارس والشهيد ، قريب الى حد بعيد فى خصائصه الفنية من شعر أستاذه ابراهيم طوقان وان كان يختلف عنه من الناحية الموضوعية فى أن الاحساس باللوعة والمرارة عند عبد الرحيم أعنف وأكثر عمقا ، وربما لانه عاش بعـــد موت ابراهيم طوقان ، فرأى فصولا جديدة من المأساة

حفرت فى نفسه هموما وأحزانا جديدة ، ولذلك فنحن نسمع ايقاع الحزن فى شعر عبد الرحيم محمود أكثر مما نسمعه فى شعر ابراهيم طوقان ، رغم انهما فى نهاية الامر من مدرسة فنية وفكرية ووطنية واحدة ...

يقول عبد الرحيم فى احدى قصائده مخاطبا أحد الامراء العرب عند زيارته للقدس :

يا ذا الامير امام عينك شاعر
ضمت على الشكوى المريرة أضلعه

المسجد الاقصى : اجئت تزوره
أم جئت من قبل الضياع تودعه

وغدا ، وما أدناه ، لا يبقى سوى
دمع لنا يهمى وسن تقرعه

هذا صوت حزنه ، أما صوت فروسيته ونضاله فيتردد فى كثير من القصائد الاخرى ... فهو يقول فى احدى قصائده مشيرا الى استشهاد « عز الدين القسام » ومخاطبا أبناء فلسطين :

واغصب حقوقك ، قط لا تستجدها
ان الالى سلبوا الحقوق لئام

هذى طريقك للحياة فلا تحد
قد سارها من قبلك القسام

وله قصيدة أخرى يعرفها كثير من أبناء فلسطين ويحفظونها مثلما يحفظون قصيدة الفدائى لابراهيم طوقان ، تلك هى القصيدة التى يرثى بها أحد شهداء فلسطين ويتحدث فيها عن نفسه :

سأحمل روحى على راحتى
والقى بها فى مهاوى الردى

فاما حيـــاة تسر الصـــديق
واما ممـــات يسوء العـــدى
ونفس الشريف لهـــا غايتـــان
ورود المنــــايا ونيـــل المنى
لعمرك اني أرى مصـــــرعى
ولـــكن أغـــد اليه الخطى

أرى مقتـــلى دون حقى السليب
ودون بـــلادى هو المبتـــــغى
وجســـــمى تجندل فوق الهضاب
تنـــاوشـــه جارحـــات الفـــلا

فمنه نصـــيب لطـــير الســـماء
ومنه نصـــيب لاســـد الثرى
كســـا دمه الارض بالارجوان
واثقـــل بالعطر ريح الصـــبا

وعفـــر منـــه بهى الجبـــين
ولـــكن عفـــارا يزيد البهـــا

وهكذا نجد عبد الرحيم محمود فى شـعره كما فى حياته نموذجا حيا لوجدان المقاومة العربية الذى تربى فى قلب ثورة عام ١٩٣٦ ولم يكن يفرق بين الفن والعمل، فكان شعره نضالا وحياته نضـالا وقضيـته الاولى والاخيرة هي تحرير فلسطين قبل أن تسقط فى قبضة المأساة ، ولقد أدى الشاعر الفارس النبيل رسالته حتى آخر قطرة من الدم ... فمات شهيدا لايرى طريقا غير الاستشهاد خلاصا من المحنة .

بقى من الشعراء الثلاثة الذين يمثلون وجـدان عام ١٩٣٦ ، أو وجدان المقاومة... الشاعر«أبوسلمى» أو عبد الـكريم الـكرمي ، وهو الشاعر الذى ما زال حتى

اليوم يواصل رسالته النضالية عن طريق الفن والعمل السياسي معا ، وذلك بعد أن بدأ شـــابا فى ثورة عام ١٩٣٦ كما بدأ صـــديقاه ورفيقاه : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود . وبقى أبو سلمى بعدهما حاملا لراية النضال حتى اليوم .

وأبو سلمي لا يختلف من الناحية الفنية عن زميليه ابراهيـــم طوقان وعبـــد الرحيم محمود ، وان كانت تجاربه الفنية قد اتسعت وأتيح له من العمر ما ساعده على أن يبلور شخصيته الفنية فى صورة أكثر وضوحا وتحديدا ، كما اننا نجد فى شـــعره الى جانب خطـــه الاساسي وهو خط النضال والمقـــاومة خطوطا أخرى مثل : الحزن والتعبير عن صور المأساة بعد عام ١٩٤٨، وهذه مرحلة لم يشهدها ابراهيم طوقان ولا عبد الرحيم محمود ... لم يشـــهدوا ضـــياع الارض ولا جموع اللاجئين المشردين ولم يعاصروا تلك النفسيـــة التى سيطرت على الوجدان الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ وهى النفسية المليئة باليأس والتشـــاؤم والمرارة ، والتى استمرت مرحلة بأكملها وخلقت جيلا من الشعراء يعبر عنها ويختلف عن الجيل الاول : جيل المقاومة ، ويمكننا أن نسمى جيل ما بين عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٦ من شعراء فلسطين باسم « جيـــل اليأس والهزيمة » أو جيل « الفردوس المفقود » .

لقد أصيب أبو سلمي بهـــذه الاحزان وعبر عنها ، فكانت قصائده الحزينة مثل الزهور الدامعة المعلقـــة على صدر شعره النضالى ، لأنه ما زال فى حقيقته ابن ثورة عام ١٩٣٦ التى كانت نضـــالا ومقاومة واصرارا على النصر ولو بالاستشهاد .

على أن شعر « أبو سلمى » يختلف قليلا عن شعر زميليه ، لا فى شكله الفني ولا فى موضوعه الاساسي وهو المقاومة والنضال ، ولكنه يختلف فى طريقة الاداء ، فهو يعتمد أكثر من زميليه على الطابع العقلى ، فبينما كان ابراهيم طوقان يمثل عاطفة شعرية عنيفة ، نجد « أبو سلمى » يمثل عاطفة أهدأ وتفكيرا أكثر ... وهذا ما يفسر لنا اهتمامه بالتفاصيل الكثيرة ، وبحثه المتصل عن زوايا متعددة للموضوع الذى يعالجه وبعبارة أخرى فنحن نجد عند « أبو سلمى » اهتماما عقليا وعناية فكرية بالقصيدة كعمل فنى من ناحية مادتها وشكلها وصورها الشعرية ، وهو أمر لم يكن يهتم به ابراهيم طوقان أو عبد الرحيم محمود اهتماما كبيرا ، فالقصيدة عندهما كانت فطرة تتفجر وعاطفة هادرة ومنشورا ثوريا ... كل ذلك بالطبع دون أن نفتقد فى « أبو سلمى » العاطفة الوطنية الدافئة الصادقة التى تربطه تماما بأبناء جيل عام ١٩٣٦ من الشعراء والمناضلين .

فى قصيدة كتبها « أبو سلمى » عن ثوار جيل نابلس عام ١٩٣٦ ، وهو الجبل الذى يسمى باسم « جبل النار » ... يقول أبو سلمى فى هذه القصيدة :

جبل النار يا أعز الجبال
انت لا زلت معقد الآمال
تنبت المجد فوق صفحك فينان
وتسقيه من دم الابطال
يفصح الصخر عن شمائل أبنائك
فوق اللظى وعند النزال

ما ذكرنا حمـــــــاك الا انتشـــــينا
وانتشت نخــــوة رؤوس الرجـــال

هذا هو جيل المقاومة الذى تربى فى نيران ثورة عام ١٩٣٦ ، والذى كان شعره غذاء لهذه الثورة ... يلهبها ويطعم وجدانها بقصائده النبيلة الصادقة ، ويتحمل فى سبيل موقفه النضالى كل الصعوبات فلقد أصيب هؤلاء الشعراء جميعا بألوان مختلفة من الاضطهاد ، واستشهد أحدهم وهو عبد الرحيم محمود فى المعركة ، ولـكنهم لم يترددوا لحظة فى مواصلة نضالهم والتعبـير عن عدالة قضيتهم وتحريض الشعب على العمل الثورى .

وهذا الجيل من شـعراء ثورة ١٩٣٦ هو التراث الفنى والنضالى الذى تجدد ـ شــعرا وكفــاحا ـ فى محمـود درويش وفى جيله من شعراء المقاومة فى الارض المحتلة

ثم جاءت مأساة عام ١٩٤٨ ، وقامت دولة اسرائيل على أشلاء المواطنين العرب ... ومرت أعوام ظهر فيها شعراء فلسطينيون يائسون متشائمون ... انهم شعراء الهزيمة أو الشعراء المهزومون

المهزومون

كانت سنة ١٩٤٨ تاريخا حاسما بالنسبة للوجدان العربى عموما ، وبالنسبة للوجدان الفلسطينى على وجه الخصوص ، ففى هـذا العام أقيمت دولة اسرائيل ، وانهزمت الجيوش العربيـة هزيمة سريعة ، ونجحت المؤامرة الصهيونية العالمية فى اقامة الدولة الاسرائيليـة على أشلاء الشعب العربى الفلسطينى ، وبدأت مرحلة واسعة من مراحل النفى والتشريد والابادة بالنسبة لعرب فلسطين ، فخرجوا من ديارهم ليعيش بعضـهم لاجئين فى الخيام ، وخرج بعضهم الى البـلاد العربية المجاورة يلتمس مأوى وعملا وظلا قليلا يخفى فيه حزنه ولوعته ومأساته وسالت دماء الآلاف منهم على التراب الفلسطينى وبقى البعض من أبناء فلسطين فى غزة أو فى مدن الضـفة الغربية ينظر أمامه ليجد العدو يحتل وطنه ، وليجـد أن مجموعة من الاسلاك الشائكة تفصل بين الفلسطينى وبين أخيه الخـاضع لاحتـلال اسرائيل ، وليجـد أن الراية الاسرائيلية ذات النجمة السداسية ترفرف على المـدن والقرى التى كانت فى يوم غير بعيد مدنا عربية أصـيلة . وانقسمت مدينة القدس الى مدينتين ... مدينة يحتلهـا اليهود ومدينة أخرى للعرب ... وأصبح العربى يطل على الجزء المسروق من مدينته وفى قلبه لوعة لا توصف .

لقد كانت سنة ١٩٤٨ كارثة كاملة بالنسبة للوجدان العربى ، وكانت هزيمة واضحة للانسان العربى وسحقا لكل المشاعر الثورية التى كانت تملأ قلبه .

وبالنسبة للفلسطينيين بالذات ، فان الموجة الثورية العنيفة التى انطلقت سنة ١٩٣٦ وانجبت شعراء الثورة من أمثال : ابراهيم طوقان وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود كما أنجبت زعماء وشهداء من امثال : عز الدين القسام ... هذه الموجة الثورية قد وصلت الى آخر مداها فى سنة ١٩٤٨ ، واصابها انحسار شديد ، وتحولت من موجة ثائرة فى السياسة والشعر والعمل اليومى الى موجة يائسة ... وفى سنة ١٩٤٨ بالذات مات الشاعر عبد الرحيم محمود شهيدا فى احدى المعارك وانطوى الشاعر أبو سلمى على نفسه حزينا يلعق جراحه ... وبذلك خمدت ثورة ١٩٣٦ نهائيا وانطفأت شعلتها العنيفة . واستمد اليأس بين الفلسطينيين قوة أخرى جاءته من ذلك الشعور القاتم الحزين الذى ساد الوطن العربى كله بعد الكارثة .

وفى هذا العام بدأت فترة الحزن والأسى فى الشعر العربى الفلسطينى ... فشعراء ما بعد عام ١٩٤٨ هم الشعراء « المهزومون » الذين يعبرون عن اليأس والمرارة والدموع والفردوس المفقود ، والذين فقدوا ديارهم وأرضهم ولم يجدوا بدلا منها أملا فى المستقبل أو نورا يضىء أمامهم ذلك الظلام الشامل .

وأى مراجعة لشعر هذه المرحلة سوف تكشف بوضوح ان اللغة الاصيلة فى هذا الشعر هى لغة اليأس ولغة الحزن ، وان الاصوات القليلة التى ارتفعت بالشعر الخطابى الرنان لم يكن لهما تأثير كبير ، وانها

كانت خالية من الاصالة الفنية ... لأن اللغة الصحيحة الصادقة فى تلك المرحلة كانت لغة اليـــأس والهزيمة . وأجمل نماذج الشعر الفلسطينى وأصدقها فى مرحلة ما بعد عام ١٩٤٨ هى هـذه النماذج اليائسة الحزينة التى قد تنتفض أحيانا بالامل ولـكنه أمل خافت غامض لا يعرف طريقه الى المستقبل .

ولنقف أمام بعض النماذج الممتازة من شعر هـــذه المرحلة ... وسنجد أنفسنا بوضـوح أمام روح الاسى واليأس والهزيمة .

فى قصـــيدة للشاعر الفلسطينى يوسف الخطيب ، وهو من أصدق وأعذب أصوات المـأساة الفلسطينية ، نستمع اليه وهو يتحدث الى « قبرة » ، أو بالاحرى يتحدث عنها ، وكيف ان هذه « القبرة » تملك الحرية فى رؤية الوطن والاستقرار على ترابه والتنقل بلا خـوف بين أشجاره وأعشابه وأزهاره ... بينما لا يستطيـع هو ، الفلسطينى صاحب الارض ، أن يرى بلاده ، وكل ما يملـكه هو الحزن والدموع... يقول يوسف الخطيب :

تلك يا صاح قبرة ..
فى الحدود ..
خرقت الف حرمة ..
للعهود ..
فهى تغدو طليقة ..
وتروح ..
وأنا مثخن هنا ..
بالجروح ..
ليتنى كنت قبرة ..
فاطير ..

وجناحى مصفق ..
فى الاثير ..
فوق بيارة لنا ..
وغدير ..
ليتنى كنت قبرة ..

ان فى هـذه القصيـدة التى كتبها يوسف الخطيب يأسا ومرارة واضحة ، فالشاعر لا يملك أملا فى العودة الى داره كانسان ، فلا بد له من « التحول » و «الحلول» فى جسد طائر طليق حتى يستطيع أن يعود ... وهذه الصـورة التى يرسمها لنا الشـاعر لتعبر عن تجربته النفسية تكشف لنا عن الفارق الـكبير بين الانسـان الفلسطينى سـنة ١٩٣٦ والانسان الفلسطينى سـنة ١٩٤٨ وما بعدها ... فالانسان الفلسطينى سنة ١٩٣٦ كان جزءا من شعب ، وكان هذا الشعب يعيش فى ثورة ، والثورة تجعل الفرد جزءا من جماعة كبيرة يشترك معهـا فى الفكر والشعور والامل والالم . أما انسان عام ١٩٤٨ وما بعدهذا العام فهو انسان وحيد، منعزل، فرد ،لايرتبط بغيره ، لأن الشعب الفلسطينى تمزق ، وتناثر كأوراق الوردة التى داسـتها قدم قوية ، وعبثت بهـا رياح عاصفة ... فلا هو جزء من شعب ... فالشعب مبعثر متفرق ، ولا هو جزء من ثورة تجمع الافراد فى وحدة قاسية شاملة .. انه الآن انسان وحيد ، على رصيف الحياة ، لا رفيق له ولا سـند الا الخيال والتأمل ، والحلول الرومانسية المختلفة لهمه ومأساته .

وبهذه الروح الفردية المتوحدة المنعزلة ، التى لا تجد عزاء لها الا فى الوهم والخيال يكرر الشـاعر يوسف الخطيب صـورة الطائر الذى يملك حرية العودة الى

الارض ... وهى حرية عزيزة لا يملكها الانسان الفلسطيني الوحيد الضائع ، وهذه الصورة نلتقى بها فى قصيدة أخرى رائعة هى قصيدة العندليب المهاجر ليوسف الخطيب نفسه حيث يقول :

اتراك مثلى يا رفيق تمر فى الزمن
عبر المهالك ، والليالى السود ، والمحن
لا صاحب يرخى عليك غلالة الكفن
تذرو بقية عمرك الصادى بلا ثمن
لكأن فى عينيك بعض اللمح من وطنى

***

لو عشبة بيد ، ومزقة سوسن بيد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلث أو ربى صفد
لو عشبة بيد ، ومزقة سوسن بيد
أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
ام جئت مثلى بالحنين وسورة الكمد ؟!

هذا هو الشعور اليائس الحزين ، المليء بالقلق والحيرة ، والذى يعبر عنه الشاعر المهزوم الذى ولده عام ١٩٤٨ ... فكان ابنا للهزيمة ، ولم يكن ابنا للثورة ... وابناء الهزيمة لغتهم هى اليأس والشعور بالوحدة والعزلة ، أما أبناء الثورة فلهم لغة أخرى هى لغة الانتماء والمقاومة والاحساس بأنهم جزء من جماعة كبيرة واحدة .

ومن شعراء الهزيمة ، بل ومن المع شعراء هذه المرحلة فدوى طوقان ، فشعرها فى معظمه تعبير عن الهزيمة واليأس والمرارة والحزن ، ولا شك ان فى حياة فدوى الخاصة ما يبرر حزنها مثل فجيعتها فى شقيقها

واستاذها ابراهيم طوقان ، الذى مات سـنة ١٩٤١ ، وهى فتاة صغيرة متعلقة به أشد التعلق ... ولـكن لو كانت المأساة الخاصة قد وقعت لفـدوى طوقان وهى

تنتمي الى شعب سـعيد مطمئن ، أو الى مجتمع لم يتعرض لمأساة كبيرة ، بحجم المأساة التى تعرض لها شعب فلسطين ، لو كانت فدوى تعاني من مأساة خاصة فقط فلا شك انها كانت ستجد العزاء بمرور الزمن ، وستجد ما يخفف عنها تلك المحنة الذاتية ... ولكن المأسـاة الخاصة ازدادت حدتها مع المأساة العامة التى تعرض لها شعب فلسطين . ومن هنا كان شعر فدوى دموعا ومرارة وحزنا شاملا عميقا ، حتى لقد كان اسم ديوانها الاول يحمـل لمسة من لمسات حزنها الكبير ويأسها الغامر فقد أسـمت هذا الديوان « وحدى مع الايام » ، وهذا الاسم هو تعبـير صادق عن شعور الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ ، فلقد أصبح جزءا منعزلا عن الـكل ، بعد أن كان جزءا متصلا أشد الاتصال بالشعب كله ، عندما كان هذا الشعب يواجه عدوه بالثورة المنيفة خلال أعوام ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ .

وفى قصيدة من قصائد « وحدى مع الايام » تصـور لنا فدوى طوقان هذه الروح المهزومة اليائسة فتقول :

حيـاتى ، حياتى أسى كلهـا
اذا ما تلاشى غـدا ظلهـا
سيبقى على الارض منه صدى
يردد صـوتى هنا منشـدا :
حياتى دموع
وقلب ولوع
وشوق وديوان شعر وعود
وهذا شبابى

امان كوابى

شباب سـقاه الاسى ورواه
اذا ما دعتـه اليها الحيـاة
واشـواقها ، شده الف غل
وطـوقه الف طـوق مذل
شباب عذاب
رهين اغتراب
يضيع شذاه بأسر القيـود

قد يتصور البعض ان قصيدة فدوى انما تعبر عن محنة ذاتية خاصـة بها وحدها ، ولـكن الحقيقة ان تعبير فدوى عن مأساتها انما يصور أيضا شعور الانسـان الفلسطيني بعد سنة ١٩٤٨ كما ينعكس على نفس فتاة شاعرة حساسة مثل فدوى تنظر الى الدنيـا فترى حياتها الخاصة مظلمة وترى الحياة العامة فى وطنهـا أكثر اظلاما وعتمة ، وترى اليأس ينشر سـلطانه على عيون أبناء وطنها وقلوبهم ، سواء كانوا فتيانا أوفتيات أو اطفالا أو شيوخا ، سـواء كانوا شـعراء أو كانوا عمالا أو فلاحين أو عاطلين أو ساكني خيـام يعيشون على معونة الامم المتحدة ، بينما يعيش اليهود فى بيـوت العرب ويأكلون من ثمار أرضهم

هذه الروح اليائسة ، روح الهزيمة ، تملأ كل الشعر الذى ظهر بعـد عام ١٩٤٨ ، حتى الشـاعر الـكبير أبو سلمى ، ابن ثورة عام ١٩٣٦ ، قد امتد اليأس الى قلبه ، وسـيطرت عليه روح الهزيمة ، ونحن لا نجد هذه الروح المهزومة فى شـعره الوطنى فقط ولكننا نجدها أيضا حتى فى شعره العاطفى ، فهذا الشاعر الحساس المحب للحياة ، قد أصيبت نفسه بجراح قاتلة ، جعلته

لا يجد متعة فى اى مظهر من مظاهر الجمـــال ، ولعل روحه قد أصابها ما أصاب المتنبى حين قال وقد تجمدت ينابيع الحياة فى قلبه :

اصــخرة انا ؟ ما لى لا تحركنى
هذى المـدام ، ولا هـذى الاغاريد

وبهذا الشعور المنصرف عن الحيـــاة ، الذى لا يحس بالمتعة ولا يتأثر بالجمال ولا يتـذوق طعما لأى شىء ، يتحدث أبو سلمى فى قصيدة له فيقول :

أين الشـذا والحلـم المزهـــر

اهكذا حبـــك يا اســمر ؟ . .
اهكذا تذوى أزاهـــــيرنا ؟ . .

وكان منهـــا المسك والعنبر . .
الشـــفة الحلوة ما بالهـــا ؟ . .
تحمـل لى الخمر ولا أسـكر ؟
والعين لا تبسم عنـــد اللقا . .
السـحر فى العين ولا تسحر !

الشاعر هنـا يعبر عن روح حزينة يائســة فقـدت الحياة معناها فى وجدانه ... وأصبحت خالية من كل ايحاء جميل . وتلك هى روح الهزيمة التى مست بيدها كل شىء ، واخرست كل أناشيد الفرح والامل فى قلوب الشعراء .

وسوف نجد هذه الروح سائدة فى كل شعر هـذه الفترة ... سوف نجدها عند سلمى الخضراء ، وهى شاعرة فلسطينية اصيلة ذات موهبة خصبة حقـا ، انها تعبر بطريقتها الخاصة عن روح الهزيمة والياس :

شجر الزيتون لم يثمر لنا زيتا ونارا
واســـتحال اللون فى أوراقــــه

ونسيم الصبح لم يحمل لنا شوقا مثارا
عانق الاغراب في أشـــواقه

ونقرأ لشاعر آخر من أبناء جيل عام ١٩٤٨ ، هو هارون هاشم رشيد تعبيراً مباشرا حزينا مليئا بالدمع والتساؤل والارتباط بمأساة بلاده :

يمر العام اثر العام يا أبتي ... بلا جدوى
فلا أمل ولا بشرى ، ولا نجوى ولا سلوى
سوى الآلام والشجن ، سوى الاحزان والمحن
سوى صوت من الاقدار ، يهتف دائما : وطني
لماذا .. نحن يا أبتي ، لماذا ... نحن أغراب ؟

كل ما صدر عن الشاعر الفلسطيني بعد عام ١٩٤٨ هو صدى للجرح ، وتعبير عن المأساة ، وتصوير للتشتت الذي أصاب الفلسطينيين ... ولقد كان هناك بين الحين والحين أصوات تحاول أن تتمرد ولكن صوت اليأس كان يخنق صوت التمرد ويرتفع فوقه...

ذلك لأن جيلَ عام ١٩٤٨ ... كان جيلَ الهزيمة وجيل المهزومين

الشاعر الجديد

ظل صوت اليأس بالنسبة للشاعر العربى الفلسطينى هو أعلى الاصوات جميعا بعد عام ١٩٤٨ ولمدة أعوام تالية ... وكان هذا الصوت اليائس تعبيرا عن الضياع والتشتت الذى أصاب فلسطين وشعبها ، فلقد كان الفلسطينيون بعد عام ١٩٤٨ مشردين يبحثون عن مأوى أو لاجئين فى الخيام يعيشون على المعونات والصدقات أو أفرادا متفرقين يعيشون على هامش مجتمعات عربية أو أجنبية أخرى ... وكان الوطن العربى كله يمر فى حالة من اليأس الشامل والحزن العميق ، ولذلك لم يجد الشاعر الفلسطينى مصدرا يلهمه بالقوة والامل ويمنحه شعورا بالتفاؤل ، ولو كان هذا التفاؤل محدودا وقليلا... لم يكن هناك مصدر للضوء أو منبع من منابع الامل . كان هناك بعض المظاهرات أو الانفجارات العنيفة بين الحين والحين تجرى على سطح الحياة العربية ... ولكنها كانت نوعا من البرق الخاطف ... سرعان ما ينطفىء بعد أن يشتعل بقليل .

ولكن هذه الموجة اليائسة التى غطت على الوطن العربى باكمله بدات تتغير شيئا فشيئا ، وببطء ، وكانت نقطة البداية ولا شك هى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . فلقد كانت هذه الثورة أول احتجاج ناجح على الاوضاع

الفاسدة فى الوطن العربى والتى كان من الواضـــح انها سبب رئيسي من اسباب المأساة الفلسطينية . ولقـد كشفت قصة الاسلحة الفاسدة فى الجيش المصرى على سبيل المثال ان الضباط والجنود المصريين الذين كانوا يحاربون فى فلسطين عام ١٩٤٨ ... هؤلاء المقاتلون كان ظهرهم عاريا تماما ... فالعدو أمامهم والخيانة وراءهم فى نفس الوقت . فهم يحاربون اليهود وجها لوجه ، ولكن كانت وراءهم مجموعة من التجار والاســـــتغلاليين والسياسيين والحكام الذين لا يعنيهم من الامر شيء على الاطلاق سوى مصالحهم التجارية وزيادة ثروتهم حتى ولو كان ذلك على حســـاب ارواح الجنود والضبـــاط المصريين ... حتى ولو كان ذلك على حساب الشعب الفلسطيني الذى ضاعت أرضه وتمزق أفراده وتشتتوا فى كل مكان .

ولذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو بداية الرد على هـــذه الظروف الفاسدة التى كانت من أهم عوامل المـاساة .
وكانت ثورة ٢٣ يوليو بداية لانتعـــاش الامل فى نفس الشاعر الفلسطينى ، وبداية لميلاد شعور جديد عنـده يخلصه من الاحساس بالانســـحاق والهزيمة نتيجة لما حدث فى عام ١٩٤٨ . على أن هذا الشعور الجـــديد لم يتبلور بصورة واضحة الا بعـــد عدوان عام ١٩٥٦ . ففى هذا العدوان كانت هنــــاك مواجهة صريحة بين العــــرب والاسرائيليين ، ولم يســــتسلم العـــــرب أمام المؤامرة الصهيونية التى تمت بمســــاعدة الجيـــوش الانجليزية والفرنسية ، بل صمدوا وقاوموا مقاومة شعبية واضحة فى بور سعيد ، وقاوموا مقاومة سياسية كبيرة واسعة النطاق

... وانتهى الامر بانسحاب الجيوش الغازية من الارض العربية ..

وكان الاثر الاكبر لهذه التجربة ان الامل ولد من جديد فى نفس الشاعر العربى ... والشاعر الفلسطينى على وجه الخصوص .

اذن ... فالمواجهة ممكنة ، والتمرد على الاحتلال الاسرائيلى ممكن .. والامل فى التخلص من المأساة ممكن

وبدأ الشاعر الفلسطيني يخرج من خيمة المهزومين ... ولكن على مهل ... وخطوة بعد خطوة . وساعد على ذلك قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، حيث اعطت الوحدة أملا كبيرا فى أن يحقق العرب اهدافهم ، ويستردوا حقوقهم ... ولتبدأ رحلتهم من جديد نحو استعادة أرضهم الضائعة .

وفى عام ١٩٥٦ بالذات وقعت فى الارض المحتلة مذبحة « كفر قاسم » ، التى اشرنا اليها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، وكانت هذه المذبحة صدمة عنيفة لعرب فلسطين المحتلة ، وقد أيقظتهم هذه الصدمة وقدمت لهم صورة واضحة لنوع الحياة التى تنتظرهم فى « أسرائيل » ، واثبتت لهم ان الاسرائيليين لن يتركوهم فى أمان ، حتى لو استسلموا هم للمأساة وقبلوا الامر الواقع ، وأثبتت لهم هذه المجزرة أيضا أن عرب الارض المحتلة لم يعد أمامهم سوى الكفاح والنضال للخلاص من الوضع الذى يعانون منه ، خاصة ان الامة العربية التى ينتسبون اليها قد بدأت تستيقظ ، وكان الانتصار على العدوان الثلاثى أكبر علامة من علامات الامل الجديد الذى بدأ يولد فى النفس العربية اليائسة المهزومة الحزينة .

ثم جاءت وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا فأكدت هذا الامل وغذته بالمزيد من الحرارة والقوة

واذا بحثنا فى الشعر الفلسطينى عن المظاهر الجديدة لاسترداد النفس ، وعودة الامل ، والخلاص من روح الهزيمة ... فاننا نجد أول مظهر حقيقى لهذه الروح الجديدة فى الشعر الفلسطينى انما تأتينا من داخل الارض المحتلة نفسها ، لقد بدأ الشاعر الفلسطينى طريق التمرد ... وكانت البداية من فوق التراب الفلسطينى الذى يحتله العدو ... أى من تلك المنطقة التى تصور الاسرائيليون أنهم لن يسمعوا صوتها أبدا بعد عام ١٩٤٨

ففى قصيدة للشاعر حبيب قهوجى من قرية « فسوطة » فى الارض المحتلة كتبها الشاعر خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، يقول الشاعر :

تفجر من صميمى يا قصيدى
جرىء اللحن تسخر بالقيود
وأرسلها مجلجلة تدوى
الى أرض القنال وبور سعيد
الى الابطال قد طاروا خفافا
لصد الغزو كالقدر المبيد
. . . .
قبعت بقرب مذياعى شرودا
وروحى عندكم رغم السدود
تحرق مهجتى وتذيب نفسى
معانقة المعارك من بعيد

وفى قصيدة أخرى من الارض المحتلة للشاعر حنا أبوحنا عن بور سعيد أيضا ، كتبها الشاعر فى نفس الفترة ، أى أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، يقول الشاعر :

بور سعيد الصمود ميناء عز
بك أرست احلامنا المسولة
وعلى صخرة الخليج على شطيك
تفنى كل الجيوش الدخيلة
هتف المجد بالرجال فهبوا
... أى حر يطيق الحياة الذليلة !

وقد وردت هاتان القصيدتان فى كتاب الاستاذ غسان كنفانى « أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة » ... والذى يهمنا فى هاتين القصيدتين قبل أى اعتبار فنى آخر هو روح الامل والتفاؤل بالمستقبل ، والتى بدأ الشاعر الفلسطينى يسترد من خلالها انفاسه ويرفع رأسه ، بعد أن كان مكسور الجناح لا يجد أمامه غير الهزيمة بمشاعرها السوداء القاتمة .. كل ذلك رغم ما نجده فى القصيدتين السابقتين من تعبير مباشر وصوت خطابى صارخ ، ورغم ذلك كله فالامل ينبض فى حروف القصيدتين ويملأ قلب الشاعرين

ان الشاعر الفلسطينى منذ عام ١٩٥٦ وبعد الانتصار على العدوان يتغير ويتفتح وينظر الى مصيره نظرة جديدة

بل نستطيع أن نقول : ان شاعرا جديدا قد ولد على أرض المأساة الفلسطينية ..وهو شاعر لا يحس انه وحيد منعزل مشتت منفى ، ولا يحس بأن اليأس هو غذاؤه الوحيد ، وان الحزن والكآبة هما « المادة الشعرية » الوحيدة أمامه .. شاعر ينتمى الى قوة شعبية وأمة بدأت تستيقظ وتطالب بحقوقها ، لا شاعر يحس انه لم يعد يملك الا ذكريات قديمة مبعثرة ودارا ضاعت منه وأرضا اغتصبها اليهود ولم يعد له فيها شيء ... ذلك كان صوت الهزيمة ، صوت الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٤٨ ... أما الآن فهناك صوت جديد ، صوت

الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٥٦ . وهو يولد هـذه المرة من قلب الجرح الكبير . من قلب فلسطين المحتلة

ويزداد الشاعر الفلسطينى الجديد قوة وأصـالة وذلك بعد وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ... وفى قصـيدة كتبها الشاعر توفيق زياد من الارض المحتلة أيضا ، وكتبها عام ١٩٥٨ بالتحديد ... يقـول توفيق زياد فى هـذه القصيدة التي كتبها من السجن وعنوانها من وراءالقضبان:

ان يحبسونا ... انهم
لن يحبسوا نار الـكفاح
لن يحبسوا عزم الشباب الحر
يعصف كالرياح
لن يحبسوا أغنية
تعلو على هذى البطاح
شرقية ، عربية الالحان ،
حمراء الجناح
طلعت على الارض الخصيبة
مثل آلهة الصباح

. . . .

يا طغمة الحكام زيدى
هل لاضطهادك من مزيد
القى القيود على القيود
سوداء باردة الحديد

سيعود شعبى فى ضياء الشمس
من خلف الحدود
سيعود للطلل المهدم
يبتنيه من جديد
سيعود للأرض الحبيبة

للزنابق للورود
ســــــــيعود
رغم النار ، والاغلال
خفاق البنود

هذه الروح الثائرة المتمردة المليئة بالامل والتفاؤل هى روح الشاعر الفلسطينى الجديد ... وهـــذه الروح لم تخمد أبدا منذ أن استيقظت حتى اليوم ، رغم أنها تعرضت لازمات وصدمات متعددة ، مثل انفصـــال سبتمبر عـــام ١٩٦١ بين مصر وسوريا ، ومثل نكسة يونيو عام ١٩٦٧ ان الروح التى ولدت عام ١٩٥٦ ، لم تمت ولم تستسلم واستفادت قوة جديدة من كل التجارب القاسية التى مرت بها

ومحمود درويش هو ابن هـــذه المرحلة الجديدة فى الشعر الفلسطينى ، مرحلة الامل والتفـــاؤل والتمرد والثورة ... بل أن محمود درويش هو واحد من أجمل وأصدق الاصوات الفنيـــة المعبرة عن هـــذه المرحلة الجديدة فى الشعر العربى الفلسطينى ... انه خلاصة نقية أصيلة لهذه المرحلة الجديدة ، مرحلة التفاؤل الثورى، رغم أن صوته الشعرى لم يرتفع الا بعد عام ١٩٦١ ...

ومنذ أن ارتفع صوت محمود درويش وهو يحلق فى عالم الامل والتفاؤل الثورى ، ولا يتردى أبـــدا الى قاع اليأس القاتم أو الهزيمة الساحقة ...

ذلك لأنه يرى بقلبه الـكبير حقيقة المـأساة ، ويرى أن الظلم الذى وقع على العربى الفلسطينى لا بد أن يزول ، وان منطق التاريخ يؤكد ذلك ، وأنه مهما كانت الظروف القاســـية التى يمر بها الانســـان العربى فى فلسطين المحتلة فان عودة الارض الى أصحابها هو حلم ليس ببعيد ... بل هو حلم ســـوف يجسده الواقع

فى صورة مادية حقيقية فى يوم من الايام

لقد مرت على الشاعر العربى خارج الارض المحتلة فترات من اليأس والتشاؤم صبغت شعره بلون قاتم، خاصة بعد ١٩٤٨ كما أشرنا فى الفصل السابق ، رغم أن الشاعر العربى خارج الارض المحتلة لم يتعرض أبدا الى كل ما تعرض له العرب داخل أسوار اسرائيل . فمن أين جاء الامل ومن أين جاء التفاؤل الى شعراء الارض المحتلة ؟ .. لا شك أن أقوى سبب وراء ذلك التفاؤل العظيم هو القانون الذى سماه المؤرخ الانجليزى والفيلسوف الكبير توينبى باسم قانون « التحدى والاستجابة » .. فعندما يتعرض الانسان لازمة عنيفة تهدد وجوده كله تكون هذه الأزمة هى التحدى الذى يحتاج الى استجابة معينة ... فعندما يكون الانسان قادرا على البقاء ، قادرا على مواجهة التحدى ، قادرا على أن يحاول بأفضل ما لديه من قوى وعناصر على أن يقف على قدميه رغم الظروف السيئة العاصفة التى تحيط به .. عندما يستطيع الانسان أن يفعل ذلك فانه يواجه التحدى وينتصر عليه . وعندما يعجز عن مواجهة هذا التحدى فانه ينتهى ويتلاشى .

والانسان العربى فى الارض المحتلة يتعرض لمحنة خطيرة ليس بعدها محنة ... وهى محنة تهدده بالقضاء على أرضه وحياته ... تهدده باقتلاع كل جذوره ، بل لقد تم اقتلاع جذور عدد كبير من المواطنين العرب قبل ذلك من أراضيهم فى فلسطين .. وبقى هؤلاء الذين يبلغون ربع مليون عربى أو يزيدون قليلا داخل أسوار اسرائيل ينتظرون مصيرهم .

من هنا لم يعد أمامهم الا الكفاح المستميت من أجل قضيتهم ، لم يعد أمامهم فرصة للتردد أو التخاذل ، فمصيرهم فى مهب العواصف ، ولذلك فهم يبذلون أقصى

ما لديهم من جهد مادي ومعنوى في سبيل هذه القضية • وخاصة بعد ان انتهت صدمة ١٩٤٨ بانتصار العرب على العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ •

ولذلك أيضا جاء هذا الجيل الجديد من شعراء الارض المحتلة ، وقد امتزجت فى نفسه مرارة التجربة وقسوة الضغط والارهاب ، وعمق الاحساس بظلم العدو ، امتزج هذا كله بعدالة قضية الانسان العربى •• كل هذا ساعد في تكوين نفسية خاصة للشاعر العربى الجديد فى الارض المحتلة والذى نسميه باسم « شاعر المقاومة »

لنأخذ مثلا شاعرنا محمود درويش ••• لقد هدم اليهود قريته « البروة » ، ••• أما هو فقد دخل السجن أكثر من مرة وفقد عمله أكثر من مرة ، وهو يعيش — رغم كل مواهبه — حياة مليئة بالمتاعب المادية والتمزق المعنوى •• وسميح القاسم شاعر آخر من هؤلاء الشعراء الممتازين ••• لقد طردوه من عمله وسجنوه وصادروا شعره • وتوفيق زياد ••• انه هو الآخر شاعر مطارد مضطهد هو وأهله من العرب فى كل مكان من الارض المحتلة • فماذا بقى لهؤلاء غير الثورة وغير الاصرار وغير التمرد • والثائر لا يمكن أن يكون متشائما • لان التشاؤم يشل قدرة الانسان على الحركة والعمل • انه يجعل الانسان في حالة سقوط معنوى كامل • أما الثائر الحقيقى ، فلابد أن يكون متفائلا ، فالتفاؤل وحده هو الذى يمكن أن يمنح الانسان قدرة على العمل والتمرد واحتمال الاضطهاد الكبير الذى يتعرض له •• ولا يوجد فى التاريخ كله ثائر غير متفائل، فالثورة فى جوهرها ايمان بامكانية تحقيق العدل فى هذا العالم ، وايمان بأن العمل والكفاح والمحاولة كلها أشياء مجدية •• وأن النصر في النهاية ممكن • وكلنا يذكر ذلك الثائر الصينى الذى كان يقول «هذا مجرد فشلنا الاول ••

هذا مجرد فشلنا الثالث ٠٠ هذا مجرد فشلنا العاشر »٠٠ لقد كان متفائلا لا يعرف اليأس ، وهكذا دائما شأن الثوار، فالثوار يحملون فكرة مؤمنة بضرورة تغيير الواقع ، ولا بد لهم من أن يؤمنوا بامكانية تغيير هذا الواقع ٠ وعندما وقعت أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧ لم يتزعزع ايمان « شاعر المقاومة » فى الارض المحتلة ٠٠٠ لقد هزتنا هذه الاحداث جميعا ، وأثرت فى نفوسنا تأثيرا كبيرا وكشفت لنا عن لحظات سوداء قاتمة مليئة باليأس ، ولكن أبناء الارض المحتلة تلقوا الصدمة بقوة أكثر منا ، لقد عرفوا من قبل صدمات مثلها وأكثر منها ٠٠٠ لقد تعودوا على هذه الصدمات ، ولذلك فهم قادرون على احتمالها والخلاص منها ومواصلة طريق الثورة والتفاؤل

يقول سميح القاسم فى قصيدة له عن ٥ يونيو :

نحن ، فى الخامس
من شهر حزيران ،
ولدنا من جديد

ويقول محمود درويش بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ أيضا :

وليكن ٠٠
لا بد لى
لا بد للشاعر من نخب جديد
وأناشيد جديدة

ويقول محمود درويش أيضا فى حديث له مع الكاتب اللبنانى محمد دكروب « مجلة الطريق نوفمبر ١٩٦٨ :

« أدبيا ٠٠٠ لم تخلق حرب حزيران تأثيرا مفاجئا ، ولم تقلب أفكارى رأسا على عقب ، ولم تحطم قيمى كما فعلت ، ومن الخير أنها فعلت ، بالكثيرين من الشعراء خارج بلادى، لم أكن جالسا فى برج حمام لكى تقنعنى بمثل هذا الدليل الفادح على ضرورة النزول الى الشارع ٠ ولكنها كانت

مكاشفة جارحة • وأضافت ، لمن لم يصدق حتى ذلك الحين برهانا جديدا على ضرورة ممارسة العمل والفكر الثوريين الحقيقيين ، وعلى أن الادب ليس سلعة أو متعة • وهذا ما كنا نؤمن به ، حتى النخاع ، قولا وعملا • وما زلنا بعد حزيران أشد ايمانا • ومن الضروري أن يستفيد منها أولئك الذين سودوا أطنانا من الورق ضد التزام الاديب بقضيته وضد تسلح الاديب بفكر ثوري حقيقي • ومن الموجع حقا أن يحتاج أديب الى مثل هذه الكارثة لاكتشاف ما يشبه البديهيات • واذكر انى قلت لفدوى طوقان ، في لحظات لقائنا الاول في حيفا : هل ترين يا فدوى أن شهرا واحدا من الاحتلال قد حل ، عندك ، كل المناقشات الطويلة حول الشعر ؟ مشيرا الى الانعطاف الواضح في شعر فدوى بعد احتلال نابلس • وقلت لها ، بكثير من الوجع ، « آمل أن يستفيد الجميع مما حدث ، لئلا يأتي نزار قباني ، لزيارتنا »

ويشير محمود درويش في تلميحه الاخير الى أن الاديب العربي ، والانسان العربي اذا لم ينتبها الى واجبهما كاملا فسوف تتعرض أراض عربية كثيرة للاحتلال والغزو بحيث يصبح عدد كبير من المواطنين في حالة تشبه حالة محمود درويش •• تحت الاحتلال الاسرائيلي •

يقول محمود درويش في قصيدة له :

خسرت حلما جميلا
خسرت لسع الزنابق
وكان ليلي طويلا
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلا

••• انه شاعر متفائل بين شعراء متفائلين ••• انه يرى خسائره الفادحة وهو مع ذلك صامد وصابر وقوي لانه كما يقول : « •• وما خسرت السبيلا » •

ملامح شخصية

ولد محمود درويش سنة ١٩٤١ كما تقول معظم المراجع التى لدينا عن حياته ومن هذه المراجع كلمة منشـــورة فى ديوانه الثانى « أوراق الزيتون » بقلم حنا أبو حنا ، ولكن محمود درويش نفسه يذكر أنه من مواليـد ١٩٤٢ وذلك فى حديث أدلى به للاستاذ محمد ابراهيم دكروب ونشره فى مجلة الطريق اللبنانية وفى هذا الحديث يقول محمود درويش وهو يتحدث عن مأساة ١٩٤٨ كما أحس بهــا فى قريته الفلسطينية الصغيرة « البروة » :

« ... الرصاص الذى انطلق فى تلك الليلة من صيف ١٩٤٨ فى سماء قرية هادئة « البروة » لم يميز بين أحد ، ورأيت نفسى ، وكان عمرى يومها ست سنوات ، أعدو فى اتجاه أحراش الزيتــون السوداء ، فالجبـــال الوعرة ..

مشيا على الاقدام حينا وزحفا على البطون حينا . وبعـــد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش وجــدنا أنفسنا فى بلد اسمه « لبنان » .

ويؤكد محمود درويش مرة ثانيــة أن تاريخ ميـــلاده هو سنة ١٩٤٢ لا ١٩٤١ وذلك فى نفس الحـــديث الذى ادلى به للاستاذ دكروب فى مجلة الطريق اللبنـــانية وهو يتحدث عن ديوانه الاول عصافير بلا أجنحة فيقول :

« أول ديوان مطبوع لي ، لا يستحق الوقوف امامه . كنت في سنتي الدراسية الاخيرة « ١٨ سنة » وكان تعبيرا عن محاولات غير متبلورة . صدر عام ١٩٦٠ واسمه « عصافير بلا أجنحة »

واعتمادا على حديث محمود درويش فان تاريخ ميلاده الصحيح يكون سنة ١٩٤٢ وليس سنة ١٩٤١ كما هوشائع ومعروف. اما اين ولد محمود درويش ، ففي قرية « البروة » بكسر الباء ، ويحدثنا الاستاذ مصطفى مراد الدباغ في كتابه « جغرافية فلسطين » عن قرية البروة فيقول :

« انهـا قرية تقع شرقي عكا على مسيرة ٩ كيلومترات منها ، بها ١٤٦٠ نسمة ، وقد مر بالبروة ناصر خسرو الرحالة الفارسي المسلم في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، وقال انه زار فيها قبر « عيسى » و « شمعون » والبروة من المدن التي بناها الرومان أو أعادوا بناءها في فلسطين »

ثم يقول الكاتب وحديثه هنا يتصل بفلسطين حتى سنة ١٩٤٨ : « ما زال كثير من مدن وقرى بلادنا تحتفظ بأسمائها التي عرفت بها في عهد الرومان أو حرفت تحريفا ظاهرا ، فقرية البروة كان اسمها «Biri»

هـذه فكرة عامة عن قرية محمود درويش حتى سنة ١٩٤٨ ، ولكن هذه القرية تأثرت بالمأساة الفلسطينية تأثرا مباشرا ، فقد هدم اليهود هذه القرية كما فعلوا بكثير من القرى العربية الاخرى ، كذلك غير اليهود اسم القرية من « البروة » وهو اسمها الاصلي الى « أحيهود » ، وحولوها الى « موشاف » وهو القرية التعاونية اليهودية ، وقد تأسست هذه القرية التعاونية سنة ١٩٥٠ على أنقاض

القرية العربية المهدومة ، وقام بتأسيس هذه القرية التعاونية يهود من اليمن »

في سنة ١٩٤٨ كان محمود درويش يعيش في قريته ، ثم خرج هاربا منها الى لبنان أثناء الحرب العربية اليهودية ، وبعد سنتين عاد متسللا الى الارض المحتلة وفي حديثه الى مجلة الطريق يروى لنا قصة هذه العودة فيقول :

« قيل لى في مساء ذات يوم : الليلة نعود الى فلسطين . وفي الليل ، وعلى امتداد عشرات الكيلومترات في الجبال والوديان الوعرة ، كنا نسير ... أنا وأحد أعمامي ورجل آخر هو الدليل . والدليل رجل خبير بمسارب الجبال استغل هذه الخبرة لتصبح مصدر رزق . في الصباح وجدت نفسي أصطدم بجدار فولاذى من خيبة الامل . أنا الان في فلسطين الموعودة . ولكن أين هي ؟ لا . هذه ليست فلسطين . تلك الارض السحرية ... الخلاص من الظلم والحرمان ، انها لا تحتضنني كما تصورت . وهذا العائد بعد سنتين من الانتظار ، يجد نفسه أسيرا لمصير المنفى ذاته ، بأسلوب آخر وعلى أرض ليست له ... ليست له ! هذه هي الحقيقة الثانية التي ما زالت ، حتى الان ، اعنف يد تحرك أحساسى بالمأساة كما كانت أول محاولة شعرية لى »

ومحمود درويش يشير هنا الى الحقيقة الاولى وهي خروجه في طفولته من قريته هاربا الى لبنان سنة ١٩٤٨

ويواصل محمود حديثه عن تجربته المريرة بعد العودة الى فلسطين التي أصبح اسمها اسرائيل :

« لم أعد الى بيتي والى قريتي ، فقد أدركت بصعوبة بالغة ، ان القرية هدمت وحرقت .. كيف تهدم القرى؟

ولماذا ؟ وكيف يعاد بناؤها ؟ .. ثم أجد أن اللغة الجديدة ما زالت تلبسني . اسمي الان : لاجىء فلسطيني في فلسطين ! واعود مرة أخرى الى وكالة الغوث والقربة ومطاردة الشرطة لاننا لم نكن نحمل بطاقة هوية اسرائيلية .. لاننا متسللون ! واذا كان من المتاح الان تقييم هذه التجربة ، تجربة اللاجىء في وطنه ، فانى اشعر انها تبعث على خطر القتل النفسي بصفاقة اقسى من تجربة المنفى . في المنفى يتوفر لديك الاحساس بالانتظار ، وبأن المأساة مؤقتة ، فتشم رائحة أمل ، وتحمل عذاب المنفى مبرر . والتصور للمنزل والحقل والجمال المنشود والسعادة المقبلة أمر مشروع . أما التجربة الاخرى ، اللجوء في الوطن ، فانه أمر غير مبرر وصعب الاستيعاب في حدود وعى الطفل والصبى. انك تشعر بالغصة والقهر حتى في أجمل احلامك . وتكتسب ملامحك انعكاسات واقع هى أقرب ما تكون الى الرموز . كنت أشعر انى مستعار من كتاب قديم يخلق في انطباعا غامضا لانى لا أحسن قراءته »

هذه هى الصورة التى يرسمها محمود درويش لطفولته الحزينة المليئة بالصدمات والفواجع . على أن محمود درويش في حديثه الى مجلة الطريق لم يذكر أن والده مات شهيدا في ١٩٤٨ ، وان كان من الواضح في هذا الحديث أن محمود درويش قد خرج من فلسطين في سنة المأساة ، بلا أب ، بل كان مع أحد أعمامه . وقد حدثنى شاب فلسطيني كان يعيش في الارض المحتلة حتى سنة ١٩٦٧ ، ثم خرج بعد ذلك وانضم الى منظمة فتح وعمل باحد اجهزتها الاعلامية ... حدثنى هذا الشاب ، واسمه « عماد » وكان صديقا لمحمود درويش ، كما كان يعيش معه في حيفا ويلتقى به على الدوام قال لى : أن والد محمود

درويش كان مزارعا بسيطا ، وانه قتل فى الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ . وان الارض التى كان يملكها والد محمود قد نهبت ، وأن بيتهم قد هدم ضمن بيوت القرية الاخرى • وقد تعلم محمود درويش حتى نال الشهادة الثانوية فقط ، وتعرض فى ذلك الوقت لكل ما يتعرض له العرب من ضغوط شديدة حتى لا يتموا تعليمهم الجامعى وحتى يظل مستواهم العلمى والثقافى ضعيفا الى أبعد الحدود • ومنذ أن أتم محمود دراسته سنة ١٩٦٠ وهو يعيش على الكتابة للصحف العربية التى تصدر فى اسرائيل ، ودخله من هذه الكتابات ضئيل مما يفرض عليه نوعا من الضيق المادى الشديد ، وقد ظل فترة من الوقت يعيش فى حجرة فى بيت أميل توما وهو أحد الشخصيات العربية المعروفة فى الارض المحتلة ، واميل توما أيضا هو أحد كتاب الارض المحتلة وله كتاب بالعربية عن « جمال عبد الناصر » ويوجد هذا البيت فى شارع عباس فى « جبل الكرمل » وهو حى من أحياء حيفا • ولعل محمود ما زال يعيش فى هذا البيت الى الآن •

وقد تعرض محمود للسجن مرارا ، وكانت قرارات الاعتقال عادة مبنية على أسباب شكلية مثل خروجه من منطقة عسكرية الى منطقة أخرى بدون اذن • فاليهود يقسمون المناطق العربية الى مناطق عسكرية ، وعلى العربى الا يخرج من منطقة الى أخرى الا بتصريح خاص ، والعربى غالبا لا يستطيع الحصول على هذا التصريح • وعلى سبيل المثال ـ كما قال لى الشاب الفلسطينى عماد ـ فان محمود درويش قد سجن سنة ١٩٦٥ لمدة ثلاثة أشهر لاشتراكه فى مهرجان شعرى أقيم فى القدس فى تلك السنة • وكان عليه لكى يذهب الى القدس أن يحصل على تصريح أمن خاص ••• ولو طلب هذا التصريح بالطبع

فانه لن يحصل عليه • ولذلك ذهب محمود الى المهرجان وهو يعرف النتيجة الحتمية وهى السجن • والسجن الذى دخله محمود فى تلك السنة هو سجن الرملة فى معسكر يسميه اليهود باسم « معسياهو » • وقد تكرر اعتقال محمود درويش مرارا لهذه الاسباب الشكلية والسبب الحقيقى بالطبع هو ضيق السلطاتالاسرائيلية به كصوت رائع من أصوات المقاومة فى الارض المحتلة • والسلطات الاسرائيلية بعد ذلك تفتعل الاسباب والحجج لتقود محمود درويش وزملاءه الى السجن ••

وقد عمل محمود درويش فى جريدة « الاتحاد » ومجلة « الجديد » وهما من صحف الحزب الشيوعى فى اسرائيل • وهو الحزب الذى يفسح للاقلام العربية فرصة التعبير فى صحفه المختلفة ، وسوف نعود الى موقف الحزب الشيوعى من عرب الارض المحتلة فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب • كذلك اشترك محمود فى تحرير مجلة « الفجر » وهى مجلة أدبية عربية أصدرها حزب « المابام » وكان يرأس تحريرها يهودى مصرى اسمه « يوسف واشط » كما ينطقه العرب أو « فاشد » كما ينطقه اليهود •

ومن الملامح الشخصية لمحمود درويش كما يحدثنى عنه صديقه « عماد » : انه نحيف جدا ، سريع الحركة فى شىء من العصبية ، مرتفع الرأس فى اعتزاز لا يشوبه غرور ، وهو يتميز فى علاقاته الشخصية بالعاطفية والاخلاص الشديد لمن تربطهم به ادنى علاقة انسانية ، وصوت محمود فى الحديث العادى صوت خفيض هادىء ، أما القاؤه للشعر فيبلغ درجة عالية من الجودة والاصالة والقدرة على التأثير الوجدانى • ومحمود درويش على علاقة

صداقة بزميله الشاعر سميح القاسم .. ومن ملامحه النفسية أنه محب للغناء ، وهو يعشق صوت أم كلثوم ، وفيروز وعبد الحليم حافظ ، كما انه يحب النكتة المصرية ويتابع البرامج الفكاهية فى الاذاعات المصرية المختلفة .

ومن الصفات الشخصية لمحمود درويش انه خجول جدا ، ومن عاداته أنه يسهر كثيرا ، ويجد فى الليل متعته ، وفرصته للتفكير والتأمل .

وكل هذه الصفات تثبت ما فى شخصية محمود من بساطة وحب طبيعى عميق للحياة

ويحدثنا عن محمود درويش الكاتب اللبنانى الاستاذ محمد دكروب وذلك بعد لقائه معه فى مهرجان الشباب فى صوفيا سنة ١٩٦٨ فيقول : « شاب نحيل ، وجه أليف جداً ، قريبا الى القلب » ... ويتحدث عنه الشاعر الفلسطينى الكبير أبو سلمى فيقول : « .. لا تسل عن سرورى عندما كنت فى صالة فندق يوهانس هوف فى برلين أصيل ذات يوم من شهر آيار - مايو - ١٩٦٩ واذ بأحد شبابنا اسماعيل عبد الرحمن الذى هجر الشعر وأصبح دكتورا فى الاقتصاد يدخل الى صالة الفندق ومعه شاب فى مقتبل العمر نحيل الجسم يمسك بيده نظاراته ، اقترب منى والابتسامة تملأ وجهه ، ولكن الحزن يترقرق فى عينيه ، صحت.. محمود درويش وعانقته كأننى أعانق بلادى فلسطين كلها ... بلادى القائمة وراء الدموع والاسلاك » ..

وقد تعرض محمود لهجوم بعض زملائه من الشعراء العرب ، فقد هاجمه الشاعر راشد حسين بعد صدور ديوانه الاول « عصافير بلا أجنحة » واعتبره ديوانا يائسا

•• وراشد حسين من الشعراء الممتازين فى الارض المحتلة، ومن الغريب أنه قيل بعد ذلك أن راشد حسين قد هاجـر أخيرا من اسرائيل الى أمريكا يائسا أشد اليأس بعد أن تعرض لاضطهادات عنيفة فى داخل اسرائيل ، وراشد هو صاحب التشبيه المعروف « ان العرب فى اسرائيل أشبه بالزنوج فى أمريكا » • ويبدو أن خروج راشد حسين ، اذا صح أنه فعل ذلك يعود الى مرضه ، وعدم قدرته صحيا على احتمال الاذى المستمر الذى يتعرض له

وشعر محمود درويش يترجم محرفا الى العبرية وهو يتعرض دائما لهجوم النقاد اليهود باعتباره « داعية الى اثارة الجماهير وعاملا على تدمير الدولة الاسرائيلية » • ومن عادات محمود درويش أنه يحضر « الاعراس العربية» باعتبارها مكانا للتجمع الجماهيرى ، وباعتبارها مصـدرا من مصادر الفن الشعبى العربى الذى يحبه ويتـأثر بـه ويتعلم منه • وأخيرا فان محمود درويش يعيش فى الارض المحتلة معدما أو شبه معدم • لان مصدره الوحيد للحياة

هو قلمه •• وكتاباته وفنه هما عصفوران سجينان فى الارض المحتلة •• ومن هنا فهو يعيش على الكفاف فى ظل القيود التى تفرضها السلطة الاسرائيلية التى يقف منهـا محمود درويش مناضلا ضدها وثائرا عليها • ويقـول محمود درويش فى ذلك « أن شـعار السلطة « اكتب ما تشاء وادفع الثمن الذى نشاء » •• والثمن هو : فقـدان العمل •• الاضـطهاد •• الحجز فى البيت •• السجن !

•• وهكذا اصدرت السلطات العسكرية أوامر الاقامـة الاجبارية ضد الشعراء العرب التقدميين بدون استثناء »• ويقول محمود درويش أيضا « لا يستطيع الشـاعر أو صاحب المطبعة ، أن يطبع أى مجموعة شعرية الا بعد أن

تجيزها المراقبة العسكرية » ويقول أيضا « لاحقتنى السلطات من اجل القاء قصيدة وسجنتنى عام ١٩٦١ ثم اعتقلت أيضا خلال حرب حزيران « يونيو ١٩٦٧ » .

وهذه كلها صور من صور الاضطهاد الذى يلقاه محمود درويش ، ويلقاه كل فنان ومناضل في الارض المحتلة .

ملامح فنية

ماذا يقرأ محمود درويش وكيف تكونت ثقافته الفنية ؟

مما لا شك فيه أن الثقافة الادبية الاولى لمحمود درويش مستمدة من « الوسط الادبى » العربى الذى يعيش فيه الشاعر ، ويعيش فيه جميع المثقفين العرب ، والجيل الاول من الادباء العرب المقيمين فى الاراض المحتلة هو جيل ينتسب الى أبناء ثورة ١٩٣٦ فى فلسطين ، وكلهم من ذوى الثقافة العربية القديمة ، ومن ذوى الايمان العميق بالتراث العربى القديم والمتابعين أيضا للثقافة العربية المعاصرة عند روادها من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وغيرهم ، ونستطيع هنا أن نذكر بعض الاسماء من بين هؤلاء الادباء العرب الذين واصلوا حياتهم في الارض المحتلة ، وكانوا على صلة قوية بالثقافة العربية القديمة ، وبالثقافة العربية المعاصرة حتى قيام دولة اسرائيل ، ومن هؤلاء حنا أبو حنا المدرس باحدى المدارس الثانوية العربية بالقدس ، وجبرا نقولا ، وله كتاب عن « أبى العلاء المعرى » وغيرهما من أبناء هذا الجيل الذى ينتسب الى جيل الادباء والمثقفين من أبناء ثورة ١٩٣٦ ، هؤلاء جميعا كانوا على معرفة قوية بالتراث العربى القديم ، وعلى ادراك واضح لقيمته وأهميته ، كما أن هؤلاء كانوا يعرفون جيدا كل ما يتصل بفن شعراء ثورة ١٩٣٦ الكبار من أمثال ابراهيم

طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى • وقد قرأ محمود درويش الشعر العربي القديم ، ودرسه وتعرف عليه بصورة دقيقة واضحة واتصل بهؤلاء الرجال العارفين بالتراث العربي القديم ، وقد قدمه أحدهم وهو حنا أبو حنا في ديوانه الثانى « أوراق الزيتون »

ويتحدث محمود درويش عن بدايته الادبية فى حديثه الذى اشرنا اليه سابقا والذى أدلى به الى مجلة الطريق اللبنانية فيقول :

« لا اذكر متى بدات بالضبط محاولة كتابة الشعر • ولا أذكر الحافز المباشر لكتابة « القصيدة الاولى » وان كنت اذكر انى حاولت فى سن مبكرة ، كتابة « قصيدة طويلة » عن عودتى الى الوطن ، حذوت فيها حذو المعلقات ، فأثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار » ••• اذن فقد كانت بداية محمود درويش هى تقليد الشعر الكلاسيكى فى اقدم نماذجه وهى « المعلقات » • ولكن هذه مرحلة من مراحل الطفولة الفنية ، كان لابد أن يتجاوزها الشاعر بسرعة اذا كانت لديه موهبة حقيقية ، ومحمود درويش صاحب موهبة أصيلة ، وشخصية فنية مستقلة ... ولذلك فقد استطاع بفضل هذه الموهبة أن يتجاوز بسرعة مرحلة التقليد للشعر القديم وهى مرحلة لابد منها ، ولكنه أخذ من معرفته بالشعر القديم ومن معاشرته الفنية العميقة له صفات فنية ظلت مرتبطة بشعره حتى اليوم ، وأهم ما استفاده محمود درويش من قراءته الدقيقة للشعر القديم أنه ــ أولا ــ يملك معرفة واسعة باللغة العربية ، وبمفرداتها اللغوية والشعرية ، فمحمود درويش يمتاز امتيازا واضحا فى شعره بثرائه اللغوى ، فهو لا يتعثر فى البحث عن الفاظه،

ولا يفتعل اشتقاقات لغوية غريبة ، ولا يحس القارىء فى قصائده بما نحسه احيانا فى شعراء آخرين تكون تجاربهم الروحية اكبر من قدرتهم على التعبير.* وينشأ عن ذلك نوع من الاضطراب الفنى لا شك فيه ، ولعل من أبرز مظاهر السلبية والضعف فى الشعر الجديد ، أن عددا غير قليل من شعراء المدرسة الجديدة يعانون من هذا الفقر فى قاموسهم الشعرى ، فيضطربون ويرتبكون ويقصرون تقصيرا واضحا فى تعبيرهم . هذا العيب لا نجده عند محمود درويش ، فلديه قدرة واضحة على أن يجعل من قصيدته عملا فنيا قادرا على استيعاب تجاربه النفسية والروحية ... بلا تعثر فى أذيال العجز التعبيرى الذى يشيع عند الشعراء المتوسطين فى مدرسة الشعر الجديد ، بل وأحيانا عند بعض الشعراء المعروفين فى هذه المدرسة . ومن الملاحظ عموما أن معظم الشعراء الممتازين من شعراء المدرسة الجديدة ، قد بدأوا حياتهم بكتابة الشعر التقليدى « العمودى » بصورة جيدة مثل : السياب ، وصلاح عبد الصبور ، وحجازى ، والبياتى ، ومعين بسيسو والفيتورى وغيرهم . بل أن بعض هؤلاء الشعراء يلجأ أحيانا الى الشكل التقليدى فى بعض تجاربه ، مثل تجربة السياب المشهورة فى قصيدته عن « بور سعيد » ، ففى هذه القصيدة الممتازة يجمع السياب بين الشكلين القديم والجديد معا . حيث كان فى المواقف الغنائية ، التى يعبر فيها عن مشاعره تعبيرا مباشرا صريحا واضحا ، يلجأ الى الشكل القديم للقصيدة العربية ، بينما كان يلجأ فى المواقف الوصفية ، التى يريد أن يجسد فيها موقفا ، أو يرسم صورة انسانية الى الشكل الجديد

والحقيقة أن هذه التجارب كلها تؤكد لنا أن الشاعر الجديد القادر على أن يعبر عن نفسه تعبيرا شعريا أصيلا

من خلال الشكل الجديد للقصيدة ، لابد أن يكون على معرفة عميقة بالشكل القديم ، بل وعلى مقدرة أيضا فى التعبير من خلال هــذا الشكل . لان الشاعر الجــديد لا يستطيع أن يتجــاوز الشكل القــديم الا اذا كان على معرفة غير قليلة به .

وقد توفرت لمحمود درويش هذه المعرفة الدقيقة ، بل اننا نجده حتى فى دواوينه الاخــيرة آلتى تمثــــل أعلى درجات النضج الفنى عنده ، يفاجئنا بقصائد كتبهـــــا بالطريقة الشعرية القديمة ، وان كان هذا اللون من شعر محمود يكثر على وجــه الخصوص فى مرحلتــه الفنية الاولى ، ففى ديوانه الثانى « أوراق الزيتون » نجــد نماذج متعددة من القصائد المكتوبة بالشكل التقليدى ... حيث يقول على سبيل المثال فى قصيدة « حبنا » ... وهى قصيدة قصيرة أنقلها هنا باكملها :

حبنا بلبل ... وشــــوكة وردة
فافرشى لى على الجـــــراح مخده
لا أحب النشيد الا شـــــهيدا
ينزف الروح والحشـــــا بمودة
عندما رف فى الفضاء جنـــاحى
وهبطت البستان .. أعشق وردة
كنت لا اسأل الطـــريق رجوعا
ليس فى الحب أى درب .. لعودة

على أن محمود درويش لم يستفد من معرفته الكبيرة بالشعر القديم ذلك القاموس الشعرى الفنى فقط ، ولا ذلك التدريب الفنى الواسع فى عالم القصيدة القديمة على استخدام اللغة وحسب ، بل لقــد اســـتفاد محمود درويش ميزة أخــرى واضــحة هى تلك « الموســيقى

الشعرية » اللامعة التى نجدها فى شعره •• فعـــالم القصيدة العربية القديمة مليىء بالموسيقى ، وعلى الاخص ما نسميه عادة « بالموسيقى الخارجية » ... الموسيقى المسموعة ، التى تنبع من القافية واختيار الالفـاظ ذات الرنين الخـاص وما الى ذلك ، ولعل هـذه الموسـيقى الخارجية كانت من الاسباب التى تثير اعتراض النقد الحديث على الشعر القديم ... لان الموسيقى الخارجية حالت فى كثير من الاحايين بين الشعر القديم وبين توفير « موسيقى داخلية » تخاطب الوجدان والقلب قبل أن تخاطب الاذن •• على أننا لسنا هنا فى مجال مناقشة هذه القضية الهامة بالنسبة للشعر القديم ، ولكن الذى يعنينا فى هذه الدراسة هو شعر محمود درويش ... لقـــد استفاد محمود درويش من دراسته للشعر القديم قدرته فى المحافظة على الموسيقى الشعرية فى قصائده •• على أنه لم يستسلم للموسيقى الخارجية التى كانت كفيـلة بـأن تربطه نهائيا بالمدرسة الشعرية القديمة . لقد استطاع محمود درويش أن يصل الى توازن دقيـق واضح بين « الموسيقى الخارجية » و « الموسيقى الداخليـــة » ... فصوت قصيدته مسموع ، وهو بذلك يتخلص من ذلك الخفوت الموسيقى والفتور النغمى الذى نلاحظه فى كثير من نماذج الشعر الجديد ، والذى يدفع النقاد الى وصف هذه النماذج بأنها « نثرية » ... أى أنها قريبة الى النثر بقدر بعدها عن الشعر . ولكننا بالنسبة لشعر محمود درويش نحس بموسيقى هذا الشعر احساسا واضحا ، ولكن محمود كشاعر صاحب موهبة أصيلة يستطيع أن يتنبه فى اللحظة الفنية المناسبة الى أن الموسيقى فى القصيدة لا ينبغى أن تعلو الى حد الضجيج والصخب ، بحيث تفقد عذوبة

الهمس وقدرته على النفـــاذ الى القلب والتـــأثير على الوجدان ... ان محمود درويش فى كثير من قصائده يوازن بالفن والاحساس الوجدانى الصادق بين الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية ... ويجعل من قصيدته عملا فنيا مسموعا بالاذن والقلب معا . ونستطيع أن نتبين القدرة الموسيقية العالية عند محمــود درويش دون عناء كبير ...ونستطيع ان نجدها فى أى قصيدة نختارها دون بحث طويل أو تردد ... ولنقرأ على سبيل المثال هذه المقــاطع من قصيدة محمــود درويش عن الشاعر الاسبانى العظيم جارثيا لوركا الذى قتله الفاشست من أنصار فرانكو خلال الثورة الاسبانية سنة ١٩٣٦ :

عازف الجيتار فى الليل يطوف الطرقات
ويغنى فى الخفاء
وباشعارك يالوركا ، يلم الصدقات
من عيون البؤساء !

**

نسى النسيان أن يمشى على ضوء دمك
فاكتست بالدم بسمات القمر
عن أناشيد الغجر

**

اجمل البلدان اسبانيا ، ولوركا ، ياصبايا
أجمل الفتيان فيها
يا مغنى النار ! وزع للملايين شظايا
أننا من عابديها

هذا شعر يتوفر فيه كل ما يحتاجه الشـــعر الجميل من قدرة موسيقية ... فنحن فى هذه المقاطع الشعرية

نحس بصوت الموسيقى احساسا مطربا متصلا غير متقطع ولا متهافت ... فالايقاع هنا مستمر ... كان الشاعر عازف ناى يقدم لحنه فى نفس واحد طويل مديد .. ومن ناحية أخرى فاننا بقدر ما نحس بالطرب الموسيقى فى هذه القصيدة ... فاننا نحس بنوع آخر من النغم ... نغم هامس سهل ، داخلى عميق ، يتسرب الى الوجدان فى نعومة وقوة وقدرة على التاثير ... ان القصيدة تطربنا وتشجينا وتدفعنا الى حالة من الخدر والصوفية .. خدر كالاحلام ... وصوفية مثل صوفية الشهداء التى تختلط امامها كل الحدود .. فلا يكون فرق بين الموت والحياة

هذه بعض الثمار التى خرج بها محمود من احتكاك موهبته الاصيلة بالشعر العربى القديم ... على اننا بعد ذلك اذا أردنا أن نتابع نمو محمود درويش فسوف نجد امامنا ثلاث مراحل متتالية :

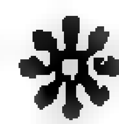
المرحلة الاولى ، هى المرحلة الغنائية ، التى كان يعبر فيها عن نفسه وتجاربه تعبيرا مباشرا ... سواء كان ذلك فى شعره الجديد .. أو فى شعره الذى يلتزم فيه الشكل القديم

وتبرز أمامنا هـذه المرحلة بوضوح فى ديوانه الثانى اوراق الزيتون ، ولعلها تبرز بشكل أوضح فى ديوانه الاول « عصافير بلا أجنحة » الذى يقول عنه محمود درويش « ... انه ديوان لا يستحق الوقوف امامه . كنت فى سنتى الدراسية الاخيرة ،وكان تعبيرا عن محاولات غير متبلورة صدر عام ١٩٦٠ » .. والحقيقة أن هذا الديوان بالذات لم يصل — فيما أعلم — الى ايدى احد من الدارسين للشعر العربى فى الارض المحتلة خارج أسوار

اسرائيل على الاطلاق

ولعل هذا الصوت الغنائي ، الذى يعبر تعبيرا مباشرا بل وخطابيا وصاخبا فى كثير من الاحيان يبدو لنا بوضوح فى هذه القصيدة الاولى من قصائد ديوان محمود الثانى « أوراق الزيتون » ... اسم القصيدة « بطاقة هوية » ويقول فيها :

سجل !
انا عربى
ورقم بطاقتى خمسون الف !
وأطفالى ثمانية
وتاسعهم ... سيأتى بعد صيف !
فهل تغضب ؟



سجل
انا عربى
واعمل مع رفاق الكدح فى محجر
أسل لهم رغيف الخبز
والاثواب والدفتر
من الصخر ...
ولا أتوسل الصدقات من بابك
ولا اصغر
أمام بلاط أعتابك
فهل تغضب
سجل
انا عربى !

وتمضى القصيدة بهذه الصورة المباشرة الخطابية الصارخة التى تذكرنا بالهتاف فى المظاهرات ، وتذكرنا أيضا بالشعر العربى القديم فى صوته المرتفع وخطابيته

العالية ٠٠وكلما قرأت قصيدة «بطاقة هوية» لمحمود درويش تذكرت بالذات قصيدة الشاعر الجاهلى « عمرو بن كلثوم » المشهورة والتى يقول فيها :

الا لا يجهلن أحـــد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أو قوله :

اذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبـــابر ساجدينا

أو قوله :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينـــا

والتشابه هنا بين قصيدة محمود درويش وقصيدة عمرو ابن كلثوم هو طبعا تشابهفىالروح الخطابيةالمباشرةوالصوت المرتفع الصارخ ، أى انه تشابه فى الموقف الفنى والوجدانى وليس فى الموقف الفكرى . فموقف محمود درويش ليس فيه أى نزعة من نزعات التعالى والقبلية المتعصبة التى نجدها عند عمرو بن كلثوم

هذه هى المرحلة الفنية الاولى فى شعر محمود درويش، مرحلة التأثر بالشعر العربى القديم وخصائصه الفنيـــة المختلفة . على ان هذه المرحلة قد تطورت بعد ذلك الى مرحلة ثانية ، هى المرحلة التى خضع فيها محمود درويش لتأثير شعراء المهجر ، وشعراء المدرسة الرومانســية من أمثال على محمود طه وابراهيم ناجى . وشعراء المهجر والشعراء الرومانسيون يمثلون مدرسة واحدة واتجـاها متشابها فى الشعر العربى المعاصر . وقد استفاد محمود درويش من هذه المدرسة الرومانسية ما جعل منه أكثر رقة وأقل مباشرة وأغنى بالعذوبة والاحلام مما كنا نجده فى

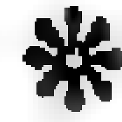
المرحلة السابقة حيث الخطابة والصوت الصاخب المرتفع. ومحمود درويش يسمي هذه المرحلة في حياته الفنيه باسم مرحلة « الثوري الحالم » ... فهو يعبر عن ثورته على الاوضاع التي يعانيها العربي في الارض المحتلة ، سواء كانت هذه الاوضاع معنوية او مادية ، ولكن تعبيره كان عاما ، أشبه بالحلم الغامض المبهم ، وذلك هو شان الشعراء الرومانسيين الذين كان يقرأ لهم ويتأثر بهم في تلك المرحلة من حياته الفنية ، فهو يرفض الواقع الذي يعيش فيه ، ويتحدث عن واقع يحلم به ، ولكنه لايفصح عن عناصر الواقع الذي يرفضه ولا عن عناصر الواقع الجديد الذي يتمناه .. انه يحلم ويعبر عن احلامه في قصائد غنائيـة رقيقة وفيها قدر من التعبير المباشر ايضا . ولعل هـذه الابيات تكشف لنا عن ذلك المنصر الغنائي الثوري الحالم عند محمود درويش في هذه المرحلة حيث يقول في قصيدة له بعنوان « عن انسان » :

يادامي العينين والكفين
أن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل
نيرون مات ، ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف
ستملأ الوادي سنابل

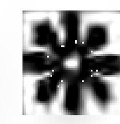
ولعلنا أيضا نجد هذه الروح الرومانسية الغنائية الحالمة في هذه القصيدة التي يسميها « نشيد ما » ، وهي قصيدة وطنية ولكنها تكتسي بغلالة رقيقة من «الغزل» ..فالحبيبة التي يخاطبها الشاعر هنا هي وطنه ، وتلك صورة تمـلأ

شعره فى كل مراحله المختلفة فهو يهوى ذلك التوحيد والمزج بين صورة الحبيبة وصورة الوطن ... يقول محمود درويش فى هذه القصيدة :

عسل شفاهك ، واليدان
كاسا خمور
للاخرين



الدوح مروحة ، وحرش السنديان
مشط صغير
للاخرين
وحرير صدرك ، والندى ، والاقحوان
فرش وثير
للاخرين



وانا على أسوارك السوداء ساهد
عطش الرمال أنا .. وأعصاب المواقد
من يوصد الابواب دونى
أى طاغ ؟ .. أى مارد
ساحب شهدك
رغم أن الشهد يسكب فى كؤوس الاخرين
يا نحلة
ما قبلت الا شفاه الياسمين !

فالصور هنا هى الصور الشعرية التى تملأ خيال الشعراء الرومانسيين الحالمين ... فالصدر الحريرى ، والندى والاقحوان والسهد ، والشهد ... كلها صور تتردد فى أشعار الرومانسيين وتسيطر على وجدانهم ، وقد سيطرت على محمود درويش أيضا فى هذه المرحلة الثانية من حياته الفنية

وينتقل محمود درويش بعد ذلك الى مرحلة ثالثة هي أنضج مراحله الفنية على الاطـلاق وهي تلك التي تتمثل على أفضل صورة في ديوانه الرابع « آخر الليل » ... فمحمود درويش هنا يزداد ثقافة فنية ، ويزداد قدرة على التعبير ويكتشف أفضل مواهبه وأكثرها عمقا واصالة .

انه يصل هنا الى القدرة على « الايحاء » وهذه القدرة الفنية، تحل محل التعبير المباشر الصريح المكشوف ، والايحاء الفني أكثر تأثيرا على القلب من التعبير المكشوف المباشر ، كما أنه أغنى في قيمته الفنية من هذا التعبير المباشر ايضا

وفي هذه المرحلة الثالثة يتاثر محمود درويش تاثرا واضحا بالشعر الجديد وأعلامه من الشعراء العرب ، وهو متاثر في هذه المرحلة على وجه الخصوص بالشاعر العربي العراقي الكبير بدر شاكر السياب ، لقد قرأه محمود درويش قراءة عميقة وتاثر به تاثرا واضحا ، وان كان محمود درويش لم يفقد استقلاله الفني امام تاثره بالسياب ولا بغيره من كبار الشعراء . وفي هذه المرحلة الجديدة من فن محمود درويش نلتقي بعدد من الخصائص الفنية البارزة ...

أولى هذه الخصائص أن محمود لم يعد الا في القليل النادر يعبر عن تجاربه تعبيرا مباشرا ، بل انه هنا يلجأ الى الرمز ، والاساطير ، والقصة الشعرية ، للتعبير عن تجاربه المختلفة . على أن محمود درويش رغم لجوئه الى الرموز والاساطير والقصص الشعرية في بناء قصائده المختلفة لم يفقد وضوحه الفني ، ذلك لانه شاعر مرتبط بالجماهير العربية في الارض المحتلة ، وهو يريد لشعره أن يصل الى هذه الجماهير ويساهم في التعبير عنها . ولايمكن أن يصل الشعر الغامض الى الجماهير ، ولايمكن أن يؤثر عليها ..

ومن هنا حرص محمود درويش على الوضوح فى اطار رموزه المختلفة ، وحرص على أن تكون رموزه بعيدة كل البعد عن التعقيد الفني الذى قد يجعل من القصيدة في النهاية متبعة للدارسين والباحثين وهواة كشف الالغاز وتفسيرها والاختلاف حولها ، أما الجمهور الكبير فلا يجد فى مثل هذا التعقيد أى غذاء فنى • ومحمود درويش واع كل الوعى لهذه القضية ولذلك فهو يقول « الرمز عندي ، كما أراه ، ليس مبهما • انه من الممكن اكتشافه بسرعة ، هو أولا وأخيرا بديل للتعبير المباشر »

على أن هناك سببا آخر يشير اليه محمود درويش ويقف وراء لجوئه الى الرمز فى شعره ، وذلك هو محاولة التعبير عن تجاربه بعيدا عن سطوة الرقابة السياسية الاسرائيلية، ان الرمز كما يقول محمود درويش نفسه يعتبر هنا نوعا من الاحتيال الفني في تصوير الواقع وتخطى الرقابة السياسية الاسرائيلية •

ومحمود درويش لم يهرب أبدا من موضوعه الرئيسى الذى يملأ عليه وجدانه وشعره •• بحيث نستطيع أن نقول دون أن نخشى الخطأ ان كل شعر محمود درويش يعتمد على موضوع أساسى هو وطنه وجرحه الفلسطينى•

والرمز هنا يساعد الفنان الشاب على الوصول بشعره الى اعلى درجات التأثير الوجدانى والفني •• الرمز ليس معتما ولا قاتما ولا بعيدا عن الفهم • ونستطيع أن نقف أمام قصيدة محمود درويش « القتيل رقم ٤٨ » وهى جزء من قصيدته الطويلة ازهار الدم التى كتبها عن مجزرة كفر قاسم ـ والتى أشرنا اليها فى فصل سابق ـ حيث قام الجنود الاسرائيليون بقتل ما يقرب من خمسين عربيا فى ساعات قليلة •• وهذا القتيل رقم ٤٨ هو أحد القتلى

العرب الذين سقطوا فى تلك المجزرة .. يقول محمــود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد .. وقمر
وهو ملقى ميتا ، فوق حجر
وجدوا علبة كبريت ، وتصريح سفر
وعلى ساعده الغض نقوش

***

قبلته أمه .. وبكت عاما عليه
بعد عام ، نبت العوسج فى عينيه
واشتد الظلام
عندما شب أخوه
ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة
حبسوه .. لم يكن يحمل تصريح سفر
انه يحمل فى الشارع صندوق عفونه
وصناديق أخر

***

آه أطفال بلادى
هكذا مات القمر

فالرموز هنا ليست معقدة ولا مغلقة أمام الفهم ... فعندما يصور الشاعر لنا هذا القتيل وفى صدره « قنديل ورد .. وقمر » فهو يقول لنا : انه كان انسانا طيبــا يحمل عطر الحب فى قلبه ويحمل المشاعر النبيلة ولايطوى نفسه على أحقاد سوداء أو أفكار شريرة ... وعنــدما يقول الشاعر فى آخر القصـــيدة « آه أطفال بلادى ، هكذا مات القمر » فهو يقول لنا بصوره الفنية « ... لقد وقعت المأســاة وتمت » فليس موت القمر ، رمز النور والجمال والتفـاؤل والاشراق ، الا رمزا لوقوع

المأساة فى حياة المواطنين العرب الذين تعرضوا لمجزرة كفر قاسم ، وهم أنفسهم رمز لغيرهم من المواطنين العرب فى بقية الارض المحتلة .

على أن هذه الرموز هى فى النهاية أبسط درجات الرمز ، لانها رموز تعتمد على بعض الصور الفنية الجزئية مثل « موت القمر » أو « قنديل الورد فى صدر القتيل » أو ما الى ذلك ، ولكن الرمز الفنى بصورته العميقة حقا هو ذلك الذى يعتمد على الصورة الشاملة التى يقوم عليها بناء هذه القصيدة نفسها ... فتصوير القتيل على أنه انسان طيب بسيط ... عامل مكافح ، يكتمل لدينا من داخل القصيدة فهو « ... ملقى ، ميتا فوق حجر » وقد وجدوا معه « علبة كبريت وتصريح سفر » و « على ساعده الغض نقوش » ... بهذه الصور الجزئية الموجزة يقدم لنا الشاعر لوحة كاملة مؤثرة لذلك الشهيد .. الذى سقط ضحية العدوان . وهو لايملك شيئا ... لايملك ثروة ولا سلاحا وانما « علبة كبريت وتصريح سفر » !

وتلك صورة انسانية رائعة استطاع محمود درويش أن يرسمها لنا بعمق فنى ، واستطاع أن يجعل منها صورة مشحونة بالعاطفة والقدرة على التأثير .

ثم يقدم لنا الشاعر بعد ذلك صورة أخرى .. صورة الاخ .. أخو القتيل « الذى مضى يبحث عن شغل باسواق المدينة » فحبسوه لانه لم يكن معه « تصريح سفر » ! ...

ياللتناقض : كان أخوه الاكبر يحمل تصريح سفر فقتلوه ! أما الذى لا يحمل التصريح فمصيره الحبس ! ... وتلك كلها جزئيات تصل بنا فى نهاية الامر الى الصورة الكلية الشاملة ... صورة الاضطهاد الاسرائيلى الخالى من

أى لمحة انسانية بالنسبة للمواطنين العرب

هذا هو ما نلتقى به فى المرحلة الاخيرة لشعر محمـــود درويش ... الرمز الشـــفاف الخالى من التعقيد ، والتجسيد الانسانى للتجربة ... فبدلا من أن يحدثنا محمود درويش حديثا مباشرا وعاما عن الشهداء فهو يرسم لنا صورة انسانية عميقة « للقتيل رقم ٤٨ »

من ناحية اخرى نجد ان محمود درويش فى مرحلته الفنية الجديدة كثيرا مايعتمد على « الحوار » ، ونحن نجد فى شعره فى أكثر الاحيان « صوتين » يسيطران على القصيدة لا صوتا واحداً . وهذان الصـــوتان يكشفان دائما عن « مقدرة مسرحية » عند محمود درويش فلو أتاحت الظروف له أن يكتب مسرحيات شعرية لقدم شيئا له قيمة ولا شك . ومحمود درويش نفسه يقول « اننى مشبع بالرغبة فى محاولة كتابة مسرحية شعرية » .. والحق أنه يملك كل عناصر الفن المسرحي الجيد .

ومن أبرز القصائد التى تقدم لنا « هذين الصوتين » فى شعر محمود درويش قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب الاحمر » ثم الجزء الثانى من هذه القصـــيدة وعنوانه : « ملاحظة على الاغنية » . ففى هذه القصيدة صوتان : صوت صبى صغير يصور أحواله وأحوال أهله فى غضب بل وفى يأس . وهناك صوت آخر يرد عليه ، ونحن لا نعـــرف بالتحديد من صاحب الصوت الثانى ، هل هو صوت الاب، أو صوت الشاعر ... أو هو صوت مجهول المصدر ولكن هذا الصوت الثانى على أى حال هو صوت الامل ، صوت المستقبل ... وهو رد على الصوت الاول ، صوت اليأس

يقول الصوت الأول ، صوت الصبى اليائس الحزين :

هل لكل الناس فى كل مكان

اذرع تطلع خبزا واماني
ونشيدا وطنيا ؟
فلماذا يا أبي نأكل غصن السنديان
ونغني ، خلسة ، شعرا شجيا ؟
يا أبي ، نحن بخير وأمان
بين أحضان الصليب الاحمر !

وفي هذا الحديث ، نبرة يأس وسخرية واحساس عميق بالمرارة .. ثم يواصل الصبي بعد ذلك حديثه فيقول :

... ...
وانا أحلم بالحلوى وحبات الزبيب
في دكاكين الصليب الاحمر
حرموني من أراجيح النهار
عجنوا بالوحل خبزي ... ورموشي بالغبار
اخذوا مني حصاني الخشبي
جعلوني أحمل الاثقال عن ظهر أبي !

هذا صوت المرارة واليأس ، ولكن القصيدة تحمل الينا صوتا آخر هو صوت الامل الذي يرد على الصوت الاول ويعترض عليه :

أخذوا منك الحصان الخشبي
اخذوا ، لا بأس ، ظل الكوكب
يا صبي !
يازهرة البركان ، يانبض يدي
انني أبصر في عينيك ميلاد الغد
... ...
أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ... ليعطوك صباح

هدموا بيتا لكى تبنى وطن !
حسن هذا ... حسن
نحن أدرى بالشياطين التى تجعل من طفل نبيا
قل مع القائل ... لم أسالك عبئا هينا
يا الهى ! اعطنى ظهرا قويا !

وهذان الصوتان فى شعر محمود درويش نلتقى بهما فى كثير من قصائده الجديدة ... انهما صوتان يتحاوران ... وهما على الاغلب يمثلان ذلك الصراع الذى يدور فى نفس العـربى المقيم فى داخـــل الارض المحتلة ... صوت التساؤل والشك واليأس وصوت الامل واليقين بالنصر . ومحمود درويش يحمل الينا من مواهبه الفنية ووجدانه الخصب مايجعلنا نتعاطف بكل قوة مع الصوت الثانى ... صوت الأمل واليقين بالنصر .

ومن ملامح هذه المرحلة الجديدة فى شـــعر محمود درويش أنه يعتمد أحيانا على الاغانى الشعبية ويستمد منها بعض العناصر الفنية فى بناء قصيدته . فهو يبدأ قصيدته « موال » بمقطع من اغنية شعبية فلسطينية تقول :

يمـا مويل الهوى
يما ... مويليـا
ضرب الخناجر ولا
حكم النـدل فيـا

لم يستمر محمود درويش بعد ذلك فى قصـــيدته مستفيدا من ذلك المقطع من مقاطع الاغنية الشـــعبية استفادة فنية وفكرية معا ، ففى هذا المقطع الشعبى تعبير عن « الكرامة والاحتمال والصبر » والقصيدة كلها تدور حول هذه المعانى ، والشاعر يوحى الينا أنه يستمد

قوته وأمله وتفاؤله من تراث عريق ... هو تراث شعبه فى الكفاح والمقاومة واحتمال المصاعب

على أن محمود درويش لايكثر من الاعتماد على التراث الشعبى والشعر الشعبى عموما ، فقليلا مايستمد من هذا التراث عناصر فنية تساعده فى بناء قصيدته . على عكس مانجد عند زميله الشاعر سميح القاسم الذى يعتمد على التراث الشعبى كثيرا .

ولكن محمود درويش يهتم بشىء آخر هو تسجيل صور الحياة الشعبية اليومية فى شعره والاستفادة من هذه الصور استفادة عميقة فى بناء قصائده وتقريبها من الوجدان الشعبي ... وتأكيد مايؤمن به الشاعر من أنه يخدم بفنه قضية شعبية هى قضية العرب فى الارض المحتلة ... وهم هؤلاء العرب الذين يعيشون حياة صعبة ويكافحون فى ظل ظروفهم القاسية كفاحا مريرا . فهو يقول فى قصيدة « اعتذار » مصورا بعض أحلامه :

حلمت بعرس الطفولة
بعينين واسعتين حلمت
حملت بذات الجديلة
حلمت بزيتونة لا تباع
ببعض قروش قليلة

وفى قصيدة قمر الشتاء يقول :

سالم جثتك الشهيدة
واذيبها بالملح والكبريت
ثم أعبها
كالشاى ... كالخمر الرديئة .. كالقصيدة

ويقول فى قصيدة « مطر » :

الشارع الخلفي يجرفه المطر
من أين تعبر ياعجوز ؟
جمدت يداك على العصا
حتى الحجر
يصطك .. والشفة العجوز
تشتي دعاء أبلها ... ماذا دهاه ؟
مازال يحمد ربه
ويموت من تحت المطر

وفى قصيدة « عنوان جديد » يقول :

تغير عنوان بيتى
وموعد أكلى
ومقدار تبغى تغير
ولون ثيابى ووجهى وشكلى
وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى واكبر
ورائحة الارض : عطر
وطعم الطبيعة سكر !

فكما نرى فى النماذج السابقة ، نجد محمود يستخدم الكثير من الصور الشعبية ... صور الحياة اليومية ... فالزيتونة ، والقروش القليلة ، والشاى ، والكبريت ، والتبغ ، والخمر الرديئة ، وعصا العجوز ودعاؤه ... كل هذه صور من الحياة الشعبية اليومية ، يستخدمها محمود درويش كثيراً فى بناء قصائده المختلفة

أن محمود يكثر من استخدام صور الحياة اليومية فى قصائده ، وقد شاع استخدام هذه الصور فى الشعر الجديد .. ولكن محمود درويش لايستخدم هذه الصور

من باب التقليد لأسلوب فنى رائج ، بل انه يستخدم هذه الصور تعبيرا عن وجدانه الشعبى العميق وحساسيته الفنية للحياة اليومية وقدرته على التقاط الشعر الكامن فى هذه الحياة •

ومن الملامح الفنية لشخصية محمود درويش أنه يلجأ أحيانا الى ما يسمى « بالتداعى الحر » ••• فهو ينطلق من صورة معينة ثم يستسلم لهذه الصورة فتقوده الى صور أخرى تنبع منها وتتصل بها فهو عندما يقول فى أحدى قصائده :

وكنت حديقتى ، وأنا غريب الدار
أدق الباب يا قلبى
على قلبى
يقوم الباب والشباك والاسمنت والاحجار !

فصورة الدار تستدعى وراءها صورة الباب ، ثم تستدعى صور الشباك والاسمنت والاحجار • ولعل هذا « التداعى » يبدو أكثر وضوحا فى قصيدته عاشق من فلسطين ، فالصور تستدعى بعضها البعض ، ويسجلها الشاعر كما تتوارد على خاطره ، وكما « تتوالد » : صورة بعد صورة • يقول محمود فى قصيدته :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الاحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت
حملتك فى دفاترى القديمة
نار أشعارى

فالصور المتلاحقة في هذا المقطع من القصـــيدة تعتمد اعتمادا واضحا على التداعى ، « فالميلاد » يستدعي «الموت» و « الكلمات » تستدعي الصمت ••• ثم تتوالى الصور : العينان والوشم ، الاحلام والهم ••• المنديل والقـــدمان والجسم ••• انها كلها صور متلاحقة تدل على ميل نفسي وفنى الى الاعتماد على هذا « التداعي الحر » في بنـــــاء القصيدة ، حيث تولد الصور الفنية وراء بعضها من خلال تيار وجدانى متدفق وعنيف ••• والتيار الوجـدانى فى المقطع السابق من قصيدة عاشق من فلسطين هو ولا شك ذلك اليقين العميق بأن كل ما حاوله الاحتلال الاسرائيلي من ضغط وارهاب قد فشل تماما فى الغاء صفة «الفلسطينية» عن حبيبته التى هى فى نفس الوقت أرضه ووطنه •

ومن ملامح محمود درويش الفنية والفكرية أيضا تعبيره المتكرر عن حاجته وحاجتنا جميعا الى شعر جديد ، يتخلص من كل الاخطاء والعيوب القديمة التى كنا ننكرها على شعرائنا ولرفضها منهم ••• فهو يريد شعرا مرتبطا كل الارتباط بالانسان وتجربة الانسان وهموم الانسان وأحلام الانسان لا شـــعراً تكون وظيفته هي الامتاع والترف والجمـــال الخارجي المجرد من أى وظيفة انسانية ، ففي قصيدة لــه عنوانها عن « الشعر » يؤكد هـــذا المعنى الذى يرفض أى وظيفة مترفة للشعر ، ويرفض أى وظيفة له تبحث عن الجمال الخارجى ••• جمال الالفاظ والصور الفنية ، لا جمـــال الوجدان وجمال الانسان ، يقول محمود فى هذه القصيدة :

أمس غنينا لنجم فوق غيمة
وليدر قرب نجمة
وانغمسنا فى البكاء
أمس عاتبنا الدوالى والقمر
والليالى ••• والقدر

وتوددنا النساء
دقت الساعة والخيام يسكر
وعلى وقع أغانيه المخدر
قد ظللنا بؤساء
يا رفاقى الشعراء
نحن فى دنيا جديدة
مات ما فات ، فمن يكتب قصيدة
فى زمان الريح والذرة ،
يخلق أنبياء !

ثم يقول فى نفس القصيدة :

قصائدنا بلا لون
بلا طعم ٠٠ بلا صوت
اذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت
وان لم يفهم البسطا معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن ٠٠٠ للصمت !!

فهو يدعو بوضوح الى وظيفة انسانية للشعر ٠٠٠ تجعل جماله الفني في خدمة الانسان وقضاياه الكبيرة وتجاربه الحساسة ٠٠٠ ولا تقف عند الوصول الى الجمال والترف والرفاهية الوجدانية

وهو يحدد رسالته كشاعر في مجتمعه المكافح تحديدا بديعا وعميقا ومثيرا فى قصيدة له بعنوان « امرؤ القيس » ٠٠ يقارن فيها بين امرىء القيس كشاعر قديم له رسالته الخاصة وبين الشاعر الجديد الذى يمثله محمود درويش ويؤمن به وبرسالته ٠٠ يقول محمود في هذه القصيدة :

ليس لى قصر ، وما عرش أبى
غير فأس خشبية
لا أغنى مثلما غنيت تحت الكوكب
للخيول العربية
وتناديني : تعال
ليس لى حسان ، ولا عشر حسان
قدحي خال كجيبى والنساء
فى زمانى لا تحب الشعراء
اننى أدفع عن رأسى بطش الصولجان
وتناديني : تعال

ان العصر اختلف بين امرىء القيس ومحمود درويش ... والرسالة اختلفت ووظيفة الفن مختلفة أيضا ...
ولقد كان امرؤ القيس يقف على الاطلال القديمة وقفة العاشق ... ولكن محمود درويش يقف على الاطلال وقفة المناضل الوطني الذى تهدمت دياره بيد الطغيان وتحولت الى ذكريات وبقايا .. أن الشاعر المناضل يشم فى هذه الاطلال على أرض فلسطين أشياء كثيرة رائعة ... يشم فيها رائحة أرضه وحقوله وأهله ... وهو لذلك يقول لامرىء القيس :

وقفة الاطلال يا شاعرها
رمدتنى ، فتلفت اليك
وتحسست يديك :
أعطنى من زادك الباقى ، لعلى
أقطع الليل على أطلال دارى
ورماد النار فى موقد أهلى
والخوابى ... والجرار !
لأناديك : تعال

لا تسلني :
كيف يضحي الكوخ قصرا
ونعيما ، حين يهدم ؟
لا تسلني ! ••• أنت أدرى !
كل ما عندي إله •• حين أحرم !

هذه هي رسالة الشاعر الجديد كما يؤمن بها محمود درويش ••• أنها رسالة الدفاع عن الديار التي حولها الطغيان الى أطلال ••• وهي رسالة الفنان الذي يؤمن بالانسان ويؤمن بأن كل شيء هو من أجل الانسان ••• وأن الجمال والفن هما أيضا من أجل الانسان

هذه بعض الملامح الفنية الرئيسية في شعر محمود درويش ... على أن محمود درويش هو في النهاية شاعر حساس يعيش في « حلم كبير » هو حلم « انتصار قضيته » المظلومة ، وهذا الحلم يفرض نفسه على صوره الفنية وعلى طريقته في التعبير ، فبالرغم من أنه شاعر يعبر عن قضية واقعية هي قضية العرب في الارض المحتلة ، ويعبر عن هذه القضية على أساس عقيدته الاشتراكية التي تدافع عن العاملين المنتجين في المجتمع والتي تطلب العدل لهؤلاء أولا وأخيرا ••• رغم هذا كله فان محمود درويش كثيرا ما يترك الواقع ويرتفع فوقه بجناحيه ، ذلك لان الواقع الذي يعيش فيه هو واقع مرير ، ولو استسلم الشاعر للتفكير الواقعي العادي لما وجد أملا ولا طريقا للخلاص ••• ولكن محمود درويش يدرك بقلبه ، وبطريقة شبه صوفية أن قضية شعبه هي قضية عادلة ، وأن هذه القضية سوف تنتصر ••• حتى لو لم تكن هناك الآن علامات قريبة أو ميسورة تدل على هذا النصر المنتظر ••

إنسانيون
لا متعصبون

يمثل محمود درويش مع شعراء المقاومة فى الارض المحتلة موقفا انســـانيا فريدا ... لقد تعرض هؤلاء الشعراء لاضطهاد مادى ومعنوى بالغ العنفوالقسوة ، وتعرض شعبهم العربى الفلســـطينى لهذا النوع من الاضطهاد نفســه ، وسالت دماء هذا الشعب فى مجازر لم تنته منذ سنة ١٩٤٨ الى اليوم ، ولقد كان هذا كله كفيلا بأن يخلق فى نفوسهم نوعا من الحقـــد المرير ضد اليهود ، كشعب وكعنصر انسانى معا . ولو حدث ذلك لنفسية الشعراء والمواطنين العرب لكان ذلك شيئا طبيعيا، فهو رد فعل منتظر لما يتعرض له العرب من قسوةواضطهاد يصورهما لنا الشاعر العربى فى الارض المحتلة تصويرا عميقا مؤثرا الى ابعد حد ، ولو قرأنا اى نموذج من نماذج شعر المقاومة فى الارض المحتلة فسوف نجد هذه الصور المثيرة للاضطهاد الاسرائيلى الموجه الى العرب . ويكفى أن نتذكر أحداث كفر قاسم التى تعرضنا لها فى فصل سابق والتى قتل فيها مايقرب من خمسين عربيا من تلك القـــرية فى ســـاعات قليلة .. ليلة العـــدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ . وقد انتهت هـــذه المجزرة ـ كما أشرنا فى الفصل الثانى ـ بمحـــاكمة مدبرها وهو ضابط اسرائيلى كبير اسمه « شدومى » ... وتقـــرر فى

آخر الامر تغريمه قرشا واحدا ... عقابا له على اغتياله لخمسين انسانا عربيا فى ليلة واحدة !

هذا هو بعض العذاب الذى يتعرض له العربى فى الارض المحتلة كما تصوره مذبحة كفر قاسم . ومع ذلك لم يحدث فى جميع النصوص التى وصلت الينا لشعراء المقاومة ان وجدنا نصا يوحى بالحقد العنصرى ضد اليهود .

ان نظرة محمود درويش وزملاءه من شعراء المقاومة هى نظرة انسانية نبيلة وشاملة . نظرة تدعو الى العدل ولا تدعو الي الانتقام والثار والحقد . نظرة تدعو الى اعادة الحقوق الضائعة دون أن تنزلق الى مهاوى العنصرية التى اندفعت اليها النازية ذات يوم ، عندما وجد هتلر ، مفكر النازية وزعيمها ، أناليهود يسيطرون على الاقتصاد الالمانى وعلى غيره من مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية فى المانيا ، ولم يكن الحل من وجهة النظر النازية هو تحقيق العدل والمساواة بين الجميع ، بل كان الحل هو استئصال العنصر اليهودى والقضاء عليه أينما كان وكيفما كان ... وقد كتب هتلر فى كتابه « كفاحى » يقول عن اليهود :

« ان قذارتهم المادية ليست شيئا مذكورا بالنسبة الى قذارة نفوسهم ، فقد اكتشفت مع الايام أنه ما من فعل مغاير للاخلاق وما من جريمة فى حق المجتمع الا ولليهود يد فيها . واستطعت أن أقيس مدى تأثير « الشعب المختار » فى تسميم أفكار الشعب الالمانى وتخديره وشل حيويته ، بتتبعى نشاطه فى الصحف وفى ميادين الفنون والاداب والتمثيل ، فقد امتد الاخطبوط اليهودى الى هذه الميادين جميعا وفرض سيطرته عليها ورسمها

بطابعه . فمعظم المؤلفين يهود ومثلهم الناشرون والفنانون الخ ... وهذا التغلغل في كل ميدان من ميادين النشاط التوجيهي يشكل طاعونا خلقيا أدهى من الطاعون الاسود وأشد فتكا ، ذلك أن تسعة أعشـــار المؤلفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التى تروج للاباحية المطلقة هى من صنع اليهود » ...

هذا نموذج من أفكار هتلر الذى يمثل الموقف النازى فى مواجهته لليهود تمثيلا واضحا ودقيقا . ويتضـمن هذا الموقف ضد النازية نوعا من الادانة المطلقة الشاملة لكل يهودى على ظهر الارض بلا استثناء ، فاليهودى ، لمجرد انه يهودى يجب التخلص منه وابادته والقضـــاء عليه من وجهة النظر النازية .

والغريب أن يكون الوجه الاخر للنازية هو الصهيونية ، كل ذلك بعد ان ذاق اليهود الوانا عنيفة من الاضـــطهاد على يد النازيين ...

ان الصهيونية تكرر المأســــاة النازية نفسها ضــد العرب ، فالصهيونية تفرض حركة أبادة واضطهاد واسع على العرب فى الارض المحتلة ، والصـــهيونية تحاول أن تتوسع فى الارض العربية وعلى حساب الشعب العربى بكل الاساليب الملتوية .

والنازية كانت تقــوم على اعلاء العنصر الالمانى فوق جميع العناصر البشرية ، والصهيونية تقوم على نفس الفكرة ولكن بالنسبة لليهود ، انها تعتمد على فكرة التفوق بالنسبة للعنصر اليهودى على غيره من العناصر البشرية ، ويكفى أن نشير الى عبارة قالها بن جوريون بعد عدوان ١٩٥٦ على مصر ... ان بن جوريون يرى أن هذا العدوان على العـــرب هو نصر عالمى من طراز لم يحققه شعب آخر ، فهو يقول :

« لم يكن انتصارنا فى سيناء هو النصر الاكبر فى تاريخ اسرائيل فقط ، بل انه النصر الاكبر فى تاريخ العالم قاطبة » ... ففي هذه العبارة تجسيد واضح للاحساس بالتفوق الكامل على العرب وعلى غيرهم من الشعوب ، وهو نفسه الشعور بالتفوق عند النازيين ، ويصاحب هذا الشعور بالتفوق استعلاء واضح على العرب يلخصه قول كاتب يهودى فى تصريح رسمي له « اننا ننظر الى العرب باستعلاء ، ولا نأخذ أمورهم مأخذا جديا ... ونحن نشعر بالتفوق عليهم ومن الصعب التصور بأن هذا الشعور سيختفى ذات يوم ... »

ويرسم لنا شاعر من زملاء محمود درويش صورة مباشرة قاسية لموقف اليهود من العرب فى قصيدة له بعنوان « انسان مشنوق » ... هذه القصيدة هي احدى قصائد سالم جبران الذى يعيش فى الارض المحتلة ... يقول الشاعر فى المقدمة النثرية لقصيدته « عرضت فى أسواق اسرائيل لعبة للاطفال تصور عربيا مشنوقا » ... ثم يقول الشاعر فى قصيدته ، وهى قصيدة بسيطة مباشرة تضع أصبعها على الجرح بلا مواربة أو مداراة :

انسان مشنوق
أحلى لعبة
أحلى ملهاة للأولاد
تعرض فى السوق
كلا ... ليست فى السوق
فلقد بيعت ... نفدت من أيام
لاتبحث عنها ، وليفهم طفلك
نفدت من أيام
يا أرواح الموتى

فى معتقلات النازيين
الانسان المشنوق
ليس يهوديا فى برلين
الانسان المشنوق
عربى مثلى من شعبى
يشنقه اخوتكم
عفوا ... يشنقه أشباه النازيين
فى صهيون
يا أرواح الموتى
فى معتقلات النازيين
لو تدرون ! ... لو تدرون !

هذه صورة يقدمها لنا شاعر المقاومة ، سالم جبران ، رفيق محمود درويش وزميله فى الفن والمأساة ... ويحس الشاعر احساسا واضحا بتلك العلاقة الوثيقة بين النازية والصهيونية ... ويعبر عن رؤيته للصلة المشتركة بين المذهبين المتعصبين الخاليين من اى نزعة انسانية سليمة .

ومع ذلك كله فان شاعر المقاومة فى الارض المحتلة على كثرة ماراه وقاساه يعبر عن نزعة انسانية حقيقية ، انه يعادي الصهيونية ، يعادى الظلم الذى تمثله الفكرة الصهيونية وتمثله الدولة الاسرائيلية ، ولكنه لايحمل حقدا على اليهودي كيهودى ، ولا يحمل عداء للديانة اليهودية ولا للانسان اليهودى ، ولم اعثر فى اى نص قراته من أدب المقاومة على حديث يكشف أو حتى يشير من بعيد الى نزعة عنصرية متعصبة عند شعراء المقاومة ، فهم يكرهون الظلم ويحاربونه سواء كان هذا الظلم من امريكا او من اسرائيل . ان الدعوة للعداء الشامل لليهودية

ليست موجودة عند شاعر المقاومة ، فالعدو عند شاعر المقاومة محدد ومعروف بمنتهى الوضـــوح ... انه الاستغلال والاحتلال والصهيونية

يقول محمود درويش فى قصيدة له :

ســــجل
أنا عربى
سلبت كروم أجدادى
وأرضا كنت أفلحها
أنا وجميع أولادى
ولم تترك لنا ... ولكل أحفادى
سوى هذى الصخور
فهل ستأخذها
حكومتكم ... كما قيلا
اذن !
سجل .. براس الصفحة الاولى
أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكنى اذا ماجعت
آكل لحم مغتصبى
حذار .. حذار .. من جوعى
ومن غضبى !

فهذا المنطق الذى يسود قصيدة محمود درويش هو منطق انسانى سليم ، ليس هو منطق هتلر الذى يكره اليهود ورائحة اليهود واسم اليهود وعنصر اليهود فى أى مكان أو زمان ... ولكن محمود درويش فى قصـــيدته يكره الاستغلال ، ويرفض موقف اسرائيل من العرب ومن أرضهم وحقوقهم المغتصبة . انه يكره الاستغلال مهما

كان مصدره . ثم يعلن انه كعربى لايكره الناس ، وانما يكره المغتصبين ... لأنهم مغتصبون لا لانهم يهود .

لم تخرج اذن عواطف شـــاعر المقاومة عن الحدود الانسانية على الاطلاق ... لم تخرج الى الحقد والثار والكراهية الشاملة للعنصر اليهودى مثلما نجد فى موقف هتلر ... انها روح انسانية تقف عند حدود المقاومة والتصدى للعدو .

بل اننا نجد فى قصيدة رائعة أخرى لمحمود درويش عنوانها « جندى يحـلم بالزنابق البيضاء » حديثا نبيـلا ومثيرا عن جندى يهودى . فالشاعر يصور هذا الجندى اليهودى انسانا له أحلام عادية كأى انسان طبيعى ولكنه ضحية من ضحايا العنصرية الصـــهيونية التى جرته وجرت الكثيرين غيره من اليهود العاديين الى موقف سىء وخاطىء أدى به الى أن يتحول الى جزار للعرب كمـا كان النازيون جزارين لليهود ... لقد تمزقت نفسية هذا الجندى وتلوثت بسموم الروح العسكرية الاسرائيلية ففقد انســـانيته الكامنة فى أعماقه ... يقول محمود درويش على لسان هذا الجندى اليهودى :

انني أحلم بالزنابق البيضاء
بشارع مغرد ومنزل مضاء
أريد قلبا طيبا ، لا حشو بندقية
أريد يوما مشمسا ، لا لحظة انتصار
مجنونة ... فاشية
أريد طفلا باسما يضحك للنهار
لا قطعة فى الآلة الحربية
جئت لأحيا مطلع الشمس
لا مغربها

واننى أرفض أن أموت
أن أحارب النساء والصغار
كي احرس الكروم والابار
لاثرياء النفط والمصانع الحربية

وهكذا يستبعد محمود درويش الشاعر العربى الانسان كل عداء بينه وبين هـذا المواطن اليهودى العادى ، ليصل الى مشاعره الانسانية العميقة ، ويكشف محمود درويش فى قصيدته عن الجانب الانسانى في هـذا الجنـدى اليهودى الذى شوهته العجلة الحربية وحولته الى سفاح بينما هو في الحقيقة يحمل قلبا انسانيا وأحلاما انسانية، ويود لو لم يكن حارسا « للكروم والابار من اجل أثرياء النفط والمصانع الحربية » .. ويشير محمود درويش الى أن اسرائيل تخدم بوضوح الاثرياء والرأسماليين الغربيين الذين يتاجرون بالمصير الانسـانى ولا يهمهم سوى أن تزيد ثروتهم وتزدهر ولو كان ذلك على حساب اشعال الحروب واسالة دماء الملايين

ويكشف محمود درويش فى هذه القصيدة الرائعة نفسها عن التشويه الذى أصاب نفسية هذا الجنـدى اليهودى ، حيث يصوره لنا الشاعر وقد جلس معه جلسة مصارحة ومكاشفة وجدانية صادقة

يصور لنا محمود درويش فى مقطع من قصيدته كيف استطاعت الروح العدوانية أن تسيطر على نفسية هذا الجندى ... فعندما وجه اليه الشاعر سؤالا عن عـدد قتلاه قال هذا الجندى :

ـ يصعب أن أعدهم
لكنني نلت وساما واحدا
سألته ، معذبا نفسى ، اذن

صف لى قتيلا واحدا ...
أصلح من جلسته ، وداعب الجريدة المطوية
وقال لى كأنه يسمعنى أغنية :
كخيمة هوى على الحصى
وعانق الكواكب المحطمة
كان على جبينه الواسع تاج دم
وصدره بدون أوسمة
لأنه لم يحسن القتال
يبدو أنه مزارع أو عامل أو بائع جوال
كخيمة هوى على الحصى ... ومات
كانت ذراعاه
ممدودتين مثل جدولين يابسين
وعندما فتشت فى جيوبه
عن اسمه ، وجدت صورتين
واحدة ... لزوجته
واحدة ... لطفلته
سألته : حزنت ؟
أجابنى مقاطعا : ياصاحبى محمود
الحزن طير أبيض
لايقرب الميدان . والجنود
يرتكبون الاثم حين يحزنون
كنت هناك آلة تنفث نارا وردى
وتجعل الفضاء طيرا أسودا !

لقد أصاب التشويه المسموم نفسية هذا الجندى اليهودى ... فلم يعد يعرف الحزن ... ولم يعد يتأثر بمنظر الدم .. ولكن هذا كله يخفى تحته استعدادا انسانيا آخر ، فمن الممكن ولا شك يتحول هذا الجندى الى

انسان عادى ، يحلم أحلاما عادية .. بعيدة عن القتـل والدماء ، وطريق اعادة هـذا الجنـدى الى انسانيته هو انتزاع السموم الصهيونية من نفسه ، وابعاده عن التعصب وذلك بالطبع لن يتم الا بتقويض جميع المبادىء الصهيونية العنصرية التى تقوم عليها دولة اسرائيل . فهذا الجندى اليهودى لا تربطه بفلسطين روابط عميقة ... فلا هو من هذه البلاد ، ولا هى أرض أهله واجداده ... وكمـا يقول محمود درويش فى نفس هذه القصيدة على لسان الجندى اليهودى فى حديثه عن علاقته بفلسطين :

وكل مايربطنى بالارض من أواصر
مقالة نارية ... أو محاضرة
قد علمونى أن أحب حبها ،
ولم احس ان قلبها قلبى
ولم اشم العشب والجذور والغصون ...

وقد أثارت هذه القصيدة من قصائد محمود درويش اعتراض بعض النقاد ، فهاجمها الاستاذ يوسف الخطيب واعتبرها نوعا من التصوير الزائف للنفسية اليهودية ، وذلك فى مقدمته « لديوان الارض المحتلـة » الذى جمع مجموعة ضخمة من قصائد شعراء المقـاومة ... يعلق يوسف الخطيب على هذه القصيدة فيقول :

« اى نمط انسانى ، عجيب حقا ، ذلك الذى جلو من بولندة ، أو رومانيا ، أو اتحاد جنوب افريقيا ، من أجل أن يبحث عن زنابق بيضاء فى الجولان ، أو فى الغور الاردنى أو فى سيناء ... ان هذا الانسان ، سواء كان فى هيئة عامل أو فى هيئة مزارع ، أو فى هيئة جنـدى يحلم بالزنابق البيضاء ، لايكاد يختلف شيئا عن ايما ضـابط

هتلرى قام بواجبه العسكرى على أكمل وجه فى ساحة القتال ، أو فى أحد أفران الغاز ثم عاد الى نفسه ليسكر ويبكى ، ويتأمل صورة زوجه وطفله الرضيع اللذين تركهما فى برلين »

وزغم قيمة اعتراض يوسف الخطيب وذكائه ، فانني لا أوافق عليه ، فالنزعة الانسانية التى يعبر عنها محمود درويش فى شعره تبرر مثل هذه القصيدة وتجعل منها عملا فنيا وفكريا ممتازا ... وموقف محمود درويش هنا يناقض تماما الموقف النازى والموقف الصهيونى ... انه موقف عربى انسانى يريد القضاء على الظلم والعدوان ولا يريد أن يخوض فى دماء اليهود ، كبشر ، أو كأصحاب ديانة ... فليس بينه وبين اليهود مشكلة ، ولكن المشكلة كل المشكلة بينه وبين الصهيونية التى اغتالت مصالح العرب وضللت نسبة كبيرة من اليهود العاديين أنفسهم

وفى قصيدة محمود درويش الى جانب ماتكشفه من عناصر انسانية فى شخصية الجندى اليهودى كشف للتشويه الذى أصاب هذه العناصر الانسانية وأخفاها ، وحول هذا الانسان اليهودى البسيط الى سفاح ... فليس فى قصيدة محمود درويش اذن سذاجة فنية أو فكرية تدفعه الى أن يثير فى نفوسنا تعاطفا مع الجندى اليهودى ... كلا ... ان الشاعر هنا يكشف لنا ذلك الجندى اليهودى بجانبيه : الانسانى وغير الانسانى معا ... ليقول لنا فى النهاية بايحــاء فنى عميق ... ان الجانب الانسانى ضاع تحت ضغط الجانب الاخر ، غير الانسانى ... وان هذا الجندى كان من الممكن ان يكون

زوجا وابا طيبـــا وعاملا من العمـــال المنتجين ولكن الصـــهيونية حولته الى مجرم وقاتل وعدو من أعداء الانسـان والحياة .

ومن الضرورى أن نلتفت الى أن محمود درويش قد استفاد من ثقافته الاشتراكية فى تدعيم نظرته الانسانية هذه ، وهي النظرة البعيدة عن أى عنصرية ترفع الجنس العربى فوق بقية الاجناس والشعوب ، وبعيدة عن أى تعصب ضد اليهود كجنس أو كديانة ... والاشتراكية ترفض كل مظاهر العنصرية والتعصب ، انها نظرية تدعو الى الانسانية والعدالة والاخوة البشرية بكل ما فى هـــذه القيم من معان رحبة واسعة .

ولا شك أن الثقافة الاشتراكية عند محمود درويش قد قادته الى هذه النظرة الانسانية الشاملة وساعدته على التزام هذا الموقف البعيد عن أى تعصب أو حقد عنصرى .

وموقف محمود درويش هو موقف كل شعراء المقاومة فى الارض المحتلة ... انهم انسانيون لا متعصبون ... دعوتهم هى الحرية والعـدل وليست هى الانتقـام أو العدوان على الاخرين .

مع الطبيعة

منحت الطبيعة فلسطين جمالا لا شك فيه ، وهناك بيت مشهور للشاعر علي محمود طه لعله لا ينطبق على بيئة طبيعية كما ينطبق على البيئة الفلسطينيـة ، وفي هذا البيت يقول الشاعر :

لا تقل أخصب الثرى

فهنا أورق الحجر ...

فالحجر في فلسطين ليس حجرا عقيما لا ينبت ولا ينجب بل هو حجر أخضر مثمر ، تنبت فيه أشجار الزيتون ، وتورق على قمم جباله أشجار أخرى تملأه باللون الاخضر الساحر ، أما الاراضي الرمليـة في فلسطين ، ففيها تنبت أشجار البرتقـال والليمون ، حيث يمتليء الهواء الفلسطيني بعطر رائع يملأ القرى ويتسلل الى المدن ... وهكذا ... فقد أعطت الطبيعة هذه البلاد كثيرا من لمساتها المليئـة بالجمال والسحر والاشراق

وفي ظل الطبيعة الفلسطينية ينطلق خيـال الانسان الى عالم من الشعر النقي الصافي ، ولذلك لم يكن من الغريب أن تكون هذه الارض بالذات مهدا لكثير من الشعراء والحكماء والأنبياء ، فالطبيعة الجميلة المتنوعة تملأ القلب بالعواطف الكبيرة وتدفع العقل الى تاملات

غنية خصبة ... ومن بين أحضان الطبيعة الفلسطينية خرجت مزامير داود ، وهي نوع من الشعر الذى تمتزج فيه العاطفة الحارة بالحكمة العاقلة ، وعلى أرض فلسطين أيضا ولدت تأملات سليمان الحكيم فى الكون والانسان ، وعلى نفس الارض ظهر نشيد الانشاد الذى سجلته التوراة، ونشيد الانشاد هو أروع قصيدة غزل عرفتها الآداب الانسانية القديمة ، ويرى كثير من الباحثين ان هـذه القصيدة الفريدة هى فى ظاهرها غزل بينما هى فى باطنها تصوف وشعر دينى . وعلى الارض الفلسطينية أيضا ولد المسيح وولدت كلماته المليئة بالعذوبة والصفاء والروح الانسانية العميقة الشفافة ... فكأن الله قـد جعل فلسطين بيئة طبيعية تنبت الليمون والبرتقال والزيتون كما تنبت الشعر والحكمة والجراح والاحزان الكبيرة .

واى شاعر حساس يولد فى الارض الفلسطينية لابد أن يتنبه بقلبه وعقله معا للطبيعة ، ولا يمكن لمثل هذا الشاعر أن يتجاهل البحر والرمل والصخور الخضراء والليالى القمرية الساحرة وحفيف الاوراق وعطـر البرتقال والليمون ... لا يمكن للشاعر الموهوب الا أن يصغى الى هذه السيمفونية ويتأثر بها وألا كان هنـاك نقص واضح وفادح فى ذوقه واحساسه بالحياة .

وشاعرنا محمود درويش، ابن قرية البروة الفلسطينية هو شاعر حساس متفتح القلب والعقل ، وهو الى جانب ذلك شاعر محب لوطنه حبا صوفيا عميقا ، والمحب العاشق هو أول القادرين على الاحساس بجمال حبيبه ، واكتشاف هذا الجمال . ولذلك فنحن نجد عند محمود درويش احساسا عميقا بالطبيعة الفلسطينية التي تنعكس على شعره بقوة ووضوح .

ولا شــك ان نشــأة محمود درويش قد عمقت احساسه بالطبيعة ، وعلاقته الوجدانيــة معها ، ذلك لأنه ولد فى قرية فلسطينيــة ، وعاش فترة طويلة من صباه فى هذه القرية ، والذين يعيشون فى القرية يحسون بالطبيعة أكثر من أهل المدينــة ، حيث تلعب الطبيعة فى المدينة دورا ثانويا فى حياة الانسان ، وخاصــة مع انتشار وسائل الحياة الحديثة التى تجعل من المدينة العصرية كيانا صناعيا لا طبيعيا ، فحيث يجد انســان القرية متعته تحت ظلال الاشجار وفى النســمات التى تهب منطلقة لا تعوقها عمارات شاهقة ولا زحام معقد ، نجد أن أهل المدينة يبحثون عن الاماكن المكيفة الهــواء بأساليب صناعية ، ويتوارى القمر فى ســماء المدينة أمام الانوار والاضواء الصناعية ، ولــكن القمــر فى القرية يلعب دور البطولة ، ولذلك فاغلب الشــعراء الذين يعبرون عن الطبيعة ويصورونها فى أشــعارهم هم من أبناء الريف ، الذين عاشوا طويلا مع الطبيعة فتسربت الى نفوسهم واستطاعت ان تتمكن منهم كل التمكن .

على ان محمود درويش لم يقدم الينا فى شعره وصفا مجردا للطبيعة ، فهو من هذه الناحية بعيد تمام البعد عن « شعر الطبيعة » بهــذا المعنى . فهناك شــعراء كثيرون جعلوا الطبيعة موضوعا لهم ، يصــورونها ، ويكتشفون أسرارها ، ويعبرون عن جمالها . ان الطبيعة فى شعر هؤلاء هى غاية فى ذاتها. ولــكن محمود درويش لم يتخذ من الطبيعة فى شعره موضوعا مستقلا ، ولم يجعل منها غاية جمالية يستغلها فى فنه الشــعرى : مصورا لها مفتونا بجمالها معبرا عما فيهــا من عناصر متناسقة أو غير متناسقة فالموضوع الاول والاكبر عنــد

محمود درويش ، هو تجربته الانسانية الوطنية ، ومن خلال هذه التجربة تتحدد نظرته الى سائر الموضوعات الاخرى . وعلى راس هذه الموضـوعات التى يستغلها محمود درويش استغلالا فنيا كبيرا للتعبير عن تجربته تقف الطبيعة فى المقدمة . ان كل شعر محمود درويش تقريبا ينبع اولا واخيرا من تجربته كفلسطينى عربى عاشق لوطنه متاثر الى حد بالغ العمق والحرارة والحدة بمأساة هذا الوطن . لقد نطق محمود درويش بالشعر عندما احس بالمأساة الفلسطينية ولمسها بوجدانه وعقله معا . هزته المأساة هزا عنيفا وملأت عليه يقظته ورؤى نومه ، وهاله ما فيها من عنف وقسوة ، فأصبحت مشاعره تغلى برفض ما جرى من ناحية وبالاصرار على تحقيق العدل الكامل بالنسبة لهذه القضية المظلومة فى نفس الوقت .

هذه هى نفسية محمود درويش التى يصدر عنها كل انتاجه الفنى الغزير الخصب .

فالرؤية الوجدانية الاساسية عند محمود درويش هى رؤيته لمأساة وطنه وهى الرؤية التى تسيطر عليه سيطرة كاملة ، والتى يرى من خلالها كل الموضوعات الاخرى وعلى راسها « الطبيعة » . فهو يستخدم الطبيعة فى شعره ليعبر من خلالها عن شيء أبعد منها هو رؤيته الخاصة لمأساة الوطن والانسان ، وهى الرؤية التى تسيطر عليه تمام السيطرة .

ومن النشأة الاولى لمحمود درويش فى احدى القرى الفلسطينية ، ومن الرؤية التى تسيطر على وجدانه جاءت أول ظاهرة نلتقى بها فى كل ما يكتبه عن الطبيعة . فالطبيعة فى شعر محمود درويش ليست هى الجمال

المجرد ، فهناك ارتباط دائم بين جمال الطبيعة وبين حاجة الانسان ومطالبه . فالفلاحون لا يفضلون « الورد » على « القمح » . ولا شك ان الباحثين عن الجمال المجرد سوف يفضلون الوردة الواحدة بعطرها وجمالها على آلاف السنابل . ولكن القروى الذى يعيش فى قلب الطبيعة ، ويدرك احتياجات الانسان فى قريته ، انما يبحث عن معنى آخر للجمال ... هناك تكون السنبلة أجمل من الوردة . لأن السنبلة تمده بحبة القمح التى يعيش منها ويواصل بفضلها حياته . ويبدو صوت الساقية أعذب من خرير اى مياه أخرى ، لأن صوت الساقية يرتبط بعملية كبيرة هى نمو الزرع وازدهار الثمار . يقول محمود درويش فى قصيدة له عنوانها « عن الصمود » :

انا نحب الورد
لكنا نحب القمح أكثر
ونحب عطر الورد
لكن السنابل منه أطهر

ان الشاعر يعبر فى هذه الابيات تعبيرا صريحا عن معنى الطبيعة فى نظره ، فمعناها الاساسى يرتبط بعلاقتها مع الانسان ، أى ان الجانب الانسانى هو الذى يعنيه أولا وقبل كل شيء . ففى عالمه ــ كفلسطينى ــ حيث الانسان العربى جائع ومهدد بالا يجد لقمة خبز لأولاده ، تكون السنابل أكثر جمالا وسحرا وطهرا من أجمل ورود الارض . ان سنبلة القمح هى التى تملك أن تمنح الاطفال والرجال والنساء قدرة على الاستمرار فى الحياة والتغلب على أحزانهم وفجائعهم الكثيرة ، انها تملك القدرة على أن تمسح الدموع والاحزان

وتحمل الفرح والابتســـــام الى القلوب . ان المعنى الانساني لسنبلة القمح فى مثل هــذه الظروف القاهرة العصيبة التى يعيش فيها العربى فى فلسطين المحتلة هو الذى يعطيها قيمتها وجمالها وروعتها فى نظر الشاعر .

ولنتصور قلب أم أو قلب اب وامامهما طفــل يتضور جوعا ... اى ســعادة فى الدنيا أعلى وأعمق من تلك السعادة التى تحملها الى قلبيهما سنبلة القمح ؟.. ان هذه السنبلة بالنســبة اليهما هى كل الجمـــال وكل السعادة . انها أروع ما فى الحياة .

وهناك شيء آخر يرتبط بسنـــبلة القمح ويزيد فى معناها الانسانى ، فهذه السنــبلة قد نمت ونضجت بعد أن وقف الانسان وراءها يكدح ويكافح ويمنحها من جهده وعرقه . فالسنبلة الواحدة تحمل معها قصــة كفاح انسانى حقيقى . ومن هنا يرى محمود درويش صورة الانسان وكفاحه فى هــذه السنبلة البسيطة .

ذلك لأن الذى يعنى هذا الشاعر هو انسان بلاده ، وما أصابه من محنة كبيرة وأسى جارف مرير . فالشاعر يحمل مأساة هذا الانسان فى قلبه ، ولا تهزه ظاهرة من ظواهر الطبيعة الا اذا كان لها علاقة بهذا الانسان ، سواء كانت هذه العلاقة هى احتياج الانسان الى هــذه الظاهرة الطبيعية ، أو كانت تشير الى جهــد الانسان الكامن وراء هذه الظاهرة الطبيعية . ومن هنـــا كان تفضيل الشاعر لسنبلة القمح على الورد وعطر الورد.

وليست المسألة هى أن الشـــــاعر هنا يحمل نظرة « نفعية » ينظر بها الى الطبيعة ، بمعنى انه لا يحب من ظواهر الطبيعة الا ما هو مفيد ونافع ... كلا... ليست القضية هى تفضيل « المنفعة » على «الجمال» ،

فالقضية على حقيقتها هى تفضيل النظرة لانسانية على النظرة المجردة . ومحمود درويش لا يقبل النظرة المجردة ، ولا يحتملها ... لأنه انساني تهمه التجارب الانسانية فى نظرته الى كل ظواهر الحياة . أهم ما يعنيه ويستولى على عواطفه واهتمامه هو الانسان ، وانسان بلاده المجروح الكادح المحزون على وجه الخصوص .

يقول محمود درويش فى نفس القصيدة التى تحدث فيها عن الورد والقمح وهى قصيدة « عن الصمود » ، وفى هذه الفقرة بالذات يخاطب الناس فى بلاده :

فاحموا سنابلكم من الاعصار
بالقدم المسمر !
هاتوا السياج من الصدور
من الصدور فكيف يكسر ؟ !
النار تلتهم الحقول الضارعات
وأنت تسهر !
اقبض على عنق السنابل
مثلما عانقت خنجر
الارض والفلاح والاصرار
قل لى : كيف تقهر
هذى الاقانيم الثلاثة
كيف تقهر ؟

وهكذا يرى الشاعر أن مصير وطنه ، ومصير الانسان فى هذا الوطن مرتبط أشد الارتباط بالدفاع عن السنابل ، وفى معانقتها كأنها خنجر يحمى به الانسان نفسه من التحديات التى يوجهها اليه عدو شديد القسوة والوحشية

ويؤكد محمود درويش على ايمانه أولا وقبل كل شيء

« بالعنصر الانسانى » فى الطبيعة وذلك فى قصيدة اخرى بعنوان « الورد والقاموس » وهى احدى قصائد ديوانه الرابع « آخر الليل » ، وقد كتب هذه القصيدة بعد هزيمة ٥ يونيو التى لم تدفع به الى اليأس كما حدث لكثير من المثقفين العرب ، بل دفعته الى مزيد من الايمان بقضيته :

وليكن ...
لا بد لى أن أرفض الورد الذى
يأتى من القاموس
أو ديوان شعر
ينبت الورد على ساعد فلاح
وفى قبضة عامل
ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر ...

وفى هذه الابيات يؤكد محمود درويش انه يرفض ذلك الشعر المزيف الذى يهتم بجمال الطبيعة اهتماما شكليا دون أن يعرف حقيقة ما يعانيه الانسان .

فالشاعر الذى يزرع الورد على ساعد فلاح وفى قبضة عامل وعلى جرح مقاتل ... هذا الشاعر انما يهتم بالجمال الخارجى الزائف ، دون أن يهتم بالحقيقة الانسانية الاصيلة ، فالفلاح والعامل والمقاتل لا تنبت الورود على أكفهم وانما تولد العواصف والرياح والزوابع ويتدفق من بين أصابعهم جهد وعرق . الشاعر هنا

يهاجم الذين يحاولون خلق صور مزركشة مزخرفة للحياة الحقيقية المليئة بالمعاناة ، فيرسمون صورة للفلاح السعيد ، أو لعامل قلبه عامر بالطرب ، أو للمقاتل الذى يذهب الى الحرب كأنه يذهب الى حفلة ساهرة ...

كل هذه الصور تزوير فى تزوير ، والورد الذى تقدمه الينا هذه الصور لا يعطينا عطرا وانما يعطينا سما زعافا لا جمال فيه ولا صدق ولا حياة .

وعندما يقول الشاعر « انه يرفض الورد الذى يأتى من القاموس » ، فانما يقصد بذلك انه يرفض الاعتماد على البلاغة القائمة على الخيال والمستمدة من الكتب ، لأنه يؤمن بالفن الذى ينبع من الحياة ومن الواقع ومن تجربة الانسان .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « موال » من ديوانه « آخر الليل » يؤكد محمود درويش على العنصر الانسانى فى الطبيعة حيث يقول :

اذا خسرت الصديقة
فقدت طعم السنابل
وان فقدت الحديقة
ضيعت عطر الجدائل
وضاع حلم الحقيقة !

فوجود الانسان هو الذى يعطى للطبيعة قيمتها ومعناها وطعمها ، واذا اختفى الانسان اختفى معنى الطبيعة عند الشاعر ، وربما كان العكس صحيحا أيضا ، فلقاء الطبيعة والانسان هو الذى يخلق الحركة والحياة والتوهج . ولا بد ان نلاحظ فى هذه الابيات الاخيرة ذلك التعبير الجديد الذى يقدمه الشاعر وهو تعبير « حلم الحقيقة » ، وليس هذا التعبير تصغيرا للحقيقة أو تقليلا من شأنها ، ولكن الشاعر يرى فى الحقيقة قوة مسيطرة عليه ... وكثيرا ما يعبر محمود درويش فى شعره ـ كما أشرنا من قبل ـ عن سيطرة حلم كبير على حياته النفسية ، وهو حلم غير عابر ، انه حلم لا يفارقه

أبدا ، وهو يعيش فى هذا الحلم دائما ولا ينفصل عنه ، والحلم هو حلم الحرية والخلاص من أزمة شعبه وأرضه والقضاء على التمزق الذى يعانيه الوطن ويعانيه الاهل فى نفس الوقت • وهكذا ••• عندما تتحول الحقيقة الى حلم ثابت قوى فانها تكبر بذلك وتسيطر على روح الشاعر ونفسيته سيطرة كاملة •

ولعلنا نزداد احساسا بالمعنى الانسانى الذى يراه محمود درويش فى الطبيعة عندما نقرأ هذا البيت فى قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب الاحمر » :

عندما تفرغ اكياس الطحين
يصبح البدر رغيفا فى عيونى

ثم يقول الشاعر فى نفس القصيدة :

يا أبى ! هل غابة الزيتون
تحمينا اذا جاء المطر ؟
وهل الاشجار تفنينا عن النار ؟
وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج ، أو يحرق أشباح الليالى ؟

فى هذه الابيات كلها تأكيد لاحساس الشاعر بضرورة الربط بين الطبيعة والانسان . فالقمر يتحول الى رغيف خبز عندما يكون الانسان جائعا . ولا جدوى من غابة الزيتون اذا لم تحم الانسان من المطر ، ولا جدوى من الاشجار اذا لم توفر للانسان نارا فى برد الشتاء . ولا جدوى من ضوء القمر ، اذا كان الانسان يعيش حياة تعيسة لا يجد فيها احتياجاته ولا يتخلص فيها من مصاعب حياته المادية والمعنوية .

وهكذا فالشاعر يربط ربطا قويا واساسيا بين الطبيعة والانسان ، ويرى ان الانسان هو الاصل ، وان

العنصر الانسانى فى الطبيعة هو الذى يعطيها قيمتهـا ومعناها ... ولا قيمة للطبيعة عنـد محمود درويش بعيدا عن الانسان . فهو ليس من عشـــاق الطبيعة المجردة ، ولا من عشـاق الجمال المجرد ... انه من عشاق الانسان والجمال الانسانى

هذا هو المعنى الاساسى الاول الذى يملأ شعر محمود درويش فى نظرته الى الطبيعة

ولـكننا نجد للطبيعة معانى أخرى متعددة فى قصائد هذا الشاعر ، وكلها ولا شك مرتبطة بتجربته الانسانية والوطنية التى تتمثل فى مأساة فلسطين

فنحن نجد عنـــد الشـــاعر الى جانب اهتمامه بانعكاسات المـأساة الانسانية فى الطبيعة شعورا عميقا بأن الطبيعة ثابتة لا تتغير أو تزول ، وهذا الثبات فى الطبيعة هو الحقيقة الاساسية رغم كل مظاهر التغير فى التفاصيل الصغيرة . فالبحار تتعرض للمد والجزر ، ولـكنها لا تزول من الوجود ، والربيـع يتلوه الصيف والخريف والشـتاء ، ولـكن الربيع لا بد أن يعود ، والاشجار والازهار والسنابل يمكن اقتلاعها ، ولـكنها تتجدد عن طريق بذور قليلة بسيطة . وهذا الثبات فى الطبيعة وراء التغيرات الجزئية والشـكلية يخلق علاقة وثيقة بينها وبين الشاعر . فالشـعب فى نظر محمود درويش ، مهما تعرض للأزمات والمصاعب فانه لا يمكن أن يتلاشى أو يزول ، وقد يتعرض الشعب لمذابح كثيرة ولكن هذه المذابح لا يمكن أن تقضى عليه ، فالبذرة الصغيرة تملك فى أعماقها قوة كبيرة ، وكذلك فان الشعب يمكن له أن يسترد حيويته وقوته حتى ولو لم يبق منه الا عـدد قليل ومحدود من أبنائه .

ان الطبيعة تعطى مثلا كبيرا للقدرة على التجدد والاستمرار مهما كانت العواصف ... يقول محمود درويش فى قصيدة بعنوان « عن انسان » وهى القصيدة التى أشرنا اليها فى فصل سابق :

يا دامي العينين ، والكفن !
أن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل !
نيرون مات ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف
ستملأ الوادى سنابل !

والبيت الاخير بالذات هو الذى يجسد معنى الثبات عن طريق التجدد فى الطبيعة ، وهو المعنى الذى يلتفت اليه محمود درويش ، ويحس ان له مقابلا فى الحياة البشرية ، فالانسان أيضا ثابت فى اطار من التجدد مثل الطبيعة تماما . والسنبلة التى تجف ، يمكن لحبوبها أن تملأ الوادى سنابل ، وكذلك الشعب الذى يصيبه ما أصاب شعب فلسطين من متاعب ومصاعب ومآس كثيرة ... هذا الشعب يستطيع أن يتجدد ويملأ الوادى ، ولو لم يبق منه الا عشرات الافراد الذين أصابهم التعب كما تصاب حبات القمح الصغيرة ... التى تعود فتملأ الوادى سنابل .

ويرتبط بمعنى الثبات فى الطبيعة عن طريق التجدد والتغييرات الجزئية التى لا تقضى على ظواهر الطبيعة الرئيسية معنى آخر هو أن الطبيعة لا تعرف الموت . فالحبة عندما ندفنها فى الارض لا تموت وانما تثمر .

والشجرة التى تتعرى أغصانها من الاوراق فى الخريف تعود بعد ذلك الى الاخضرار فى الربيع ، والماء يتحول الى بخار ثم ينزل مطرا من جديد • فالطبيعة ـ اذن ـ لا تعرف الموت أبدا • وكل محاولة لقتل الطبيعة تنتهي الى الفشل • والشاعر ـ كعادته ـ يربط بين هذا المعنى الذى يستمده من الطبيعة وبين شعبه ووطنه ، ففيهما قوة الطبيعة ، انهما لا يموتان أبدا ، ومهما تعرضا لمظاهر الموت الخارجية فانهما لابد عائدان الى الحياة من جديد . هكذا يؤمن الشاعر ايمانا لا يتردد . وهو يجد فى الطبيعة ما يؤكد له هذا المعنى دائما حيث يقول :

الموت والميلاد فى وطني المؤله توأمان

ذلك لأن الموت تتبعه الحياة على الفور . فهناك بعث دائم متجدد للشعب مهما كانت المصاعب والظروف القاهرة ... يقول محمود درويش فى قصيدته « رد الفعل » :

سدوا على النور فى زنزانة
فتوهجت فى القلب شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتى
فنما على الجدران مرج سنابل

وهكذا فكلما ضاق الخناق عليه تجدد وازداد اشتعالا وتوهجا ، فالضغط لا يقتله وانما يحييه ، والمصاعب لا تسد عليه الطريق ، وانما تفتح أمامه سبلا واسعة عريضة . ونجد هذا المعنى الكبير الذى يستمده محمود درويش من ظواهر الطبيعة يتكرر فى كثير من قصائده . ففى قصيدته « الاغنية والسلطان » يقول :

أخبروا السلطان

ان البرق لا يحبس في عود ذرة
للاغاني منطق الشمس
وتاريخ الجداول
ولها طبع الزلازل
والاغاني ، كجذور الشجرة
فاذا ماتت بأرض
أزهرت في كل أرض
كانت الاغنية الزرقاء فكرة
حاول السلطان أن يطمسها
فغدت ميلاد جمرة !
كانت الاغنية الحمراء جمرة
حاول السلطان أن يحبسها
فاذا بالنار ... ثورة !

وهكذا فان الضغوط والعقبات لا توقف حركة الحياة بل تفجرها وتزيدها اشتعالا وقوة . وهذا هو القانون الذى يسيطر على الطبيعة ، وهو بالتالى القانون الذى يسيطر على حياة الشعب كما يتصورها الشاعر وكما يؤمن بها ... وهو قانون لا يعرف الموت ولا يعترف به ، بل هو قانون يقول بأن الحياة أقوى من جميع العقبات التى تتعرض لها ... ولنقرأ أيضا هذا النموذج من قصيدة للشاعر بعنوان « ولادة » :

يا أمى
جاوزت العشرين
فدعى الهم ونامى
ان قصفت عاصفة
فى تشرين
ثالثهم

فجذور التين
راسخة فى الصخر ... وفى الطين
تعطيك غصونا أخرى
وغصون !

انه فى هذه الابيات يقول لأمه : لقد بلغت العشرين فلا تخافى على ... وحتى لو أصابنى مكروه قضى على حياتى فأنت قادرة على العطاء ، مثلك مثل الطبيعة ، والجذور الراسخة تعطى على الدوام غصونا جديدة ... ولعل أمه هنا هى وطنه ، فهو كثيرا ما يمزج بين صورة الأم وصورة الوطن . وبهذا المعنى فنحن أمام رؤية لا تعترف بالموت ولا تخشاه ، وتحس أن حياة الوطن مثل حياة الطبيعة : باقية ودائمة ، ولا يمكن للموت أن يقضى على الوطن القادر على التجدد ، كما لا يمكن للموت ان يقضى على مظاهر الطبيعة القادرة على التجدد .

ومحمود درويش الى جانب ذلك كله يصور لنا الطبيعة وهى تعكس الحالات النفسية التى يمر بها ، فالطبيعة تأخذ منه كما تعطيه ... لقد أعطته ايمانا بالتجدد والقدرة على مغالبة الموت ، وهو يعطيها هنا ما فى نفسه ، ففى حالة حزنه نرى الطبيعة حزينة ، وهذه صورة لحزن الطبيعة مع حزن الشاعر يقدمها لنا فى قصيدته « ثلاث صور » :

كان القمر
كعهده ـ منذ ولدنا ـ جامدا
الحزن فى جبينه مرقرق
روافدا ... روافدا
قرب سياج قرية

خر حزينا ... باردا

ففي هذه الصورة « يسقط » الشاعر حزنه على صورة القمر وهذا النوع من « الاسقاط » شائع فى الشعر ، بل وفى كل الوان الفن ، فما دامت الطبيعة عنصرا يستخدمه الفنان فى بناء عمله الفنى ، فهو يعطيه لون نفسه ، فاذا كان حزينا فهو يعطيها لونا قاتما . واذا كان مليئا بالسعادة والفرح فهو يعطيها لونا مشرقا زاهيا . وكما رأينا الشاعر فى القصيدة السابقة يعكس الوان نفسه الحزينة على الطبيعة ، فهو يعطينا فى قصيدة أخرى الوانا زاهية متفائلة مشرقة ، وذلك عند ما يحس بالفرح والسعادة ، فهو يقول فى قصيدته « عنوان جديد » :

وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى وأكبر
ورائحة الارض عطر
وطعم الطبيعة سكر
كأنى على سطح بيتى القديم
ونجم جديد
بعينى تسمر

فاللحظة الاولى التى كان فيها القمر جامدا حزينا ، تنساب منه روافد قاتمة تعيسة ، كانت لحظة أسى ويأس ، بينما نجد القمر يكبر ويزداد حلاوة وجمالا ، وتبدو الارض والطبيعة مثل نفسية الشاعر فى هذه اللحظة المبتهجة المشرقة . فالطبيعة اذن تحمل احاسيس الشاعر وتجسدها لنا ، وتشاركه فى حالاته النفسية المختلفة فان كان حزينا شاركته الحزن ، وان

كان سعيدا شاركته السعادة .

وهـــذا الاستخدام للطبيعة هو استخدام عادى ، يتكرر كثيرا فى نماذج الشعر الانسانى ، وليس لمحمود درويش فيه تميز خاص على غيره من الفنـانين ، وان كان محمود يحتفظ لنفسه باستقلاله الفنى فى اختيـار صوره وتحديد هذه الصور ... حيث يبدو تصويره للقمر فى حالة الحزن وحالة الفرح تصويرا جميلا مليئا بالحيوية الفنية الواضحة ... ففى الصــورة الاولى يبدو القمر « جامدا » و « باردا » و « الحزن فى جبينه مرقرق ... روافدا ... روافدا » وهى كلها صــور حساسة تستمد عناصرها من عاطفة الحزن وما توحى به هذه العاطفة من ايحاءات مختلفة ، بينما نجد القمر فى الصورة الثانية « صار أحلى وأكبر»... وهى صورة مستمدة من عاطفة الفرح ، التى تكبر معهـا الاشياء وتزدهر وتصبح أكثر جمالا وروعة . وفى هذه الصـورة الاخيرة بالذات لمسة من « الطفولة» المشرقة واحساسها بالاشياء فى حالة الفرح والسعادة ، فالقمـر « صــار أحلى وأكبر » و «... طعم الطبيعة سكر » و « رائحة الارض عطر » ... هذا نوع جميل أصيل من الفرح ، انه فرحة الاطفال والشعراء ، فرحة النفس البســيطة التى لا تخفى مشاعرها ولا تضفى عليهـا اى لون من التعقيد ... بل تصرخ بالبهجة ، كما تصرخ بالاسى فى لحظات الحزن والضيق ، وهى هنا شأنها شأن الاحساس الطفولى بالحياة تقيس جمال الاشياء بحجمها المادى الكبير ... فالاطفال كثيرا ما يقولون عن الشىء الجميــل فى نظرهم : انه كبير .

والعودة الى الطفولة واحاسيسها البســيطة المشرقة

الصريحة هى نبع من أصفى ينابيع الشعر ، وهو نبع يعرفه محمود درويش جيدا ، ويشرب منه دائما ويسقى منه أشعاره ... وهو عندما يعود الى أحاسيس الطفولة ورؤاها ودنياها البسيطة انما يعود بانسانيته الى البراءة والصدق والطهر الكامل والانطلاق والحماس للطبيعة والانسان والحياة . وكبار الشعراء هم الذين يعرفون كيف يشربون من نبع الطفولة الصافى البرىء المليء بالطهر والنقاء .

واذا تركنا هذا « الاستخدام الذاتى » للطبيعة فى شعر محمود درويش ، فاننا نجد أمامنا صورة أخرى للطبيعة ، فعندما يريد الشاعر أن يصور لنا «الحرية» كما يفهمها ويحس بها ، فانه لا يجد خيرا من صورة الطبيعة وازدهارها كمعادل فنى للحرية ، ففى قصيدة له عن جبال « الاوراس » فى الجزائر يقول :

يا كبرياء الجرح! لو متنا
لحاربت المقابر
فملاحم الدم فى ترابك
ما لها فينا أواخر
حتى يعود القمح للفلاح
يرقص فى البيادر
ويغرد العصفور حين يشاء
فى عرس الازاهر
والشمس تشرق كل يوم
فى المواعيد البواكر

ان الشاعر يؤكد هنا ان « الحرية » معناها ازدهار الطبيعة ، فالحرية هى عرس الطبيعة ، وانتصار الجزائر انما يتجسد فى رقص القمح ، وتغريد العصافير

واشراق الشمس ، على ان الشاعر لا ينسى وهو يصور لنا هذه الصورة أن « عرس الطبيعة » مرتبط أشد الارتباط بالانسان ، ففي قلب هذا العرس الذى يرسمه الشاعر للطبيعة يقف « الفلاح » ، ذلك الكائن الذى تستمد الطبيعة منه معناها وتكتسى بأثواب الفرح والحزن حسب ما يحس به هذا الانسان حبيب الطبيعة وخادمها وعاشقها من مشاعر مختلفة .

وهكذا نجد أن « عرس الطبيعة » يرتبط أشد الارتباط بالمعانى الانسانية العامة ، وأهمها معنى الحرية التى يسعى اليها كل شعب مقيد مأسور ، والتى كافح من أجلها ثوار الجزائر ، ويكافح من أجلها اليوم ثوار فلسطين .

وفى شعر محمود درويش تتكرر كثيرا صورة «الريح» و « العاصفة » ، وهاتان الصورتان هما ولا شك تعبير عن نفسية الشاعر ، وهى ليست نفسية هادئة مستريحة ، بل هى نفسية ثائرة ، تحس بالالم العميق للمصير الذى تعرض له شعب فلسطين وتعرضت له ارض فلسطين ، والرؤى التى يراها مثل هذا الشاعر الممتلىء بالعواطف الحارة العنيفة لا يمكن أن تكون نسيما هادئا ، ولا أزهارا باسمة ، وانما لا بد لهذه الرؤى أن تكون من لون مشاعره . ولذلك فهو كثيرا ما يرى

الطبيعة رياحا وعواصف . كالرياح والعواصف التى هبت على شعبه وأرضه ، وكالرياح والعواصف التى ما زالت تهب ، والتى يجب أن تهب فى المستقبل لتعيد الحقوق العادلة الى أصحابها . ولن يتم ذلك بدون ريح وعاصفة . ان رؤية الشاعر للرياح والعواصف ، وتكراره لهاتين الصورتين فى شعره انما يدل دلالة قوية على ما

فى نفسه من لهيب ، وما فى وجدانه من حدة واندفاع. ولا يكاد يوجد شاعر عربى معـــاصر وقف عند الرياح والعواصف واستخدمها فى شـــعره مثلما فعل محمود درويش . بل من المؤكد انه الشـــاعر الوحيـــد الذى استخدم هاتين الصورتين بكثرة لا تتكرر عند شـــاعر عربى آخر . انه يتحدث عن الطبيعة فى ثورتها وعنفها وغضبها أكثر مما يتحدث عنها فى هدوئها ووداعتها .

لأن ثورة الطبيعة هى صورة من ثورة نفسه وغضبها على ما يراه من ظلم وتعســـف لا حـــدود لهما فى الواقع الانسانى الذى يعيشه شعب فلسطين · ولا يكاد محمود درويش يسمح لنفسه أن تهدأ وتســـتقر ، فهو يدعو حبيبتـــه فى قصيدة له بعنوان « لا تتركينى » الى أن تساهم فى استمرار انفعاله العنيف الحار :

لا تتركينى
حرا بحزنى
واحبسينى
بيد تصب الشمس
فوق كوى سجونى
وتعودى أن تحرقينى
ان كنت لى
شغفا بأحجارى بزيتونى
بشباكى ··· بطينى

انه يطلب من حبيـــبته أن تشـــعل فيه على الدوام عواطفه وأن تدفعه الى أقصى درجات الانفعال ، فالقضية التى يؤمن بها تحتاج الى كل هذه الحرارة ، وكل هذا الانفعال الـكبير . ومثل هذه النفسية اذا تعلقت ببعض ظواهر الطبيعة فانها تتعلق بالظواهر العنيفة على وجه

الخصوص ... تتعلق بالرياح والعواصف ، لانها نفس مليئة بما يشبه الرياح والعواصف .

على ان الرياح والعواصف لهما مغزى غير ما بينهما وبين نفس الشاعر من تشابه ، فالرياح والعواصف يقتلعان ما أمامهما من الاغصان الضعيفة والاوراق الهشة ، والشاعر يريد أيضا أن يقتلع كل ما يوحي اليه بالضعف ، فالقضية التي يدافع عنها تحتاج الى القوة والعنف ، بعد أن عانت طويلا من الضعف والتخاذل .

ان الرياح والعواصف لا تبقى أمامها الا كل ما هو أصيل وراسخ ، وهذا ما يؤمن به الشاعر وما يحرص عليه كل الحرص ، ففي قصيدته « وعود من العاصفة » يقول :

وليكن ...
لابد لى أن أرفض الموت
وأن أحرق دمع الاغنيات الراعفة
وأعرى شجر الزيتون
من كل الغصون الزائفة
فاذا كنت أغنى للفرح
خلف أجفان العيون الخائفة
فلان العاصفة
وعدتنى بنبيذ
وبأنخاب جديدة
وبأقواس قزح
ولان العاصفة
كنست صوت العصافير البليدة
والغصون المستعارة
عن جذوع الشجرات الواقفة

وهكذا ، فالشاعر يريد شيئا من الرياح والعواصف ، التى عقد بينه وبينها أواصر علاقة وطيدة ، بحيث استطاع أن يأخذ منها وعودا كثيرة ... انه ينتظر من هذه الرياح والعواصف أن تقضى على أى كائن زائف ، أو بليد ، أو مستعار، أو ضعيف ، فالرياح والعواصف لن تبقي أمامها الا على ما هو قوى وصلب وقادر على الوقوف والصمود . وعندما يتعرض الشاعر مع بنى وطنه لمحنة كبيرة ، فهو يحس بصورة الرياح والعواصف وهي تولد أمامه وتتفجر بقوة فى نفسه وشعره ... يقول فى قصيدة « رد الفعل » :

ما كنت أعرف أن تحت جلودنا
ميلاد عاصفة
وعرس جداول

وهو يخاطب وطنه الذى تجسد أمامه فى « ذات العيون السود » فيقول فى قصيدته « خارج من الاسطورة » :

اننى أقرأ فى عينيك ميلاد النهار
اننى أقرأ أسرار العواصف

وهو يقول فى قصيدة أخرى مخاطبا طفلا من بلاده :

أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ... ليعطوك صباح ...

وفى قصيدته عن قرية « كفر قاسم » يقول :

افتحي الابواب يا قريتنا
افتحيها للرياح الاربع
ودعى خمسين جرحا يتوهج

وفى قصيدة « السجين والقمر » يقول :

الريح منزلنا
وصوت حبيبتى قبل

وفى قصيدة « الاغنية والسلطان » :

كان صوت الدم
مغموسا بلون العاصفة
وحصى الميدان أفواه جروح راعفه
وأنا أضحك مفتونا بميلاد الرياح
عندما قاومني السلطان
أمسكت بمفتاح الصباح
وتلمست طريقى بقناديل الجراح
آه كم كنت مصيبا
عندما كرست قلبى
لنداء العاصفة

وهكذا تملأ الرياح والعواصف شعر محمود درويش . انهما اكثر ظواهر الطبيعة اثارة لوجدانه ، وفيهما تتجسد مشاعره الحقيقية فى رؤيته لواقع بلاده ومستقبلها ، فلن تتحرك قضيته خطوة الى الامام بدون أن تعقد علاقات أصيلة مع العواصف والرياح ، وبدون أن تأخذ عهدا على هذه العواصف والرياح ، وبدون أن تهب فى كل مجالات حياتها العملية والنفسية بنفس القوة التى تهب بها الرياح والعواصف ، لتقتلع الاعشاب السامة التى زرعها العدو الاسرائيلى فى الارض الفلسطينية ، ولتقتلع ما يملأ النفس العربية من تردد أو ارتباك ... ان الشاعر يتحالف مع قوة الطبيعة ، ولا يتحالف مع ضعفها ، انه يريد أن يركب اقوى سفن الطبيعة ليصل الى غايته البعيدة ... وليس هناك أقوى من الريح والعاصفة . وقد يكون فى كلمة العاصفة هنا بالذات « عندما كرست قلبى لنداء العاصفة » اشارة بعيدة خفيفة الى الفدائيين الذين يرتبطون بتنظيم «العاصفة» العسكرى الذى يقف فى طليعة الفدائيين الفلسطينيين فى

هذه المرحلة ، خاصة ، وأن قصيدة « الاغنية والسلطان » قد كتبت بعد يونيو ١٩٦٧ ، وبعد أن اشتدت حركة المقاومة ٠٠٠ على أن المعنى العام الاساسى للعاصفة فى شعر محمود درويش هو المعنى المستمد من الطبيعة ٠

بقيت ملاحظة أخيرة على موقف محمود درويش من الطبيعة تلك هى أنه كثيرا ما يتحدث عن « الزيتون » فى شعره وقليلا ما يتحدث عن « البرتقال » . وهناك فكرة شائعة عن فلسطين هى انها أرض « البرتقال » . وكثيرا ما تتكرر هذه الفكرة فى الادب العربى الذى يتناول مأساة فلسطين ويتحدث عنها ، سواء كان هذا الادب مكتوبا بأقلام فلسطينية أو صادرا عن أدباء من مختلف البيئات العربية الاخرى ٠

ولكن محمود درويش فى شعره لا يلتزم بهذه الفكرة الشائعة عن أرض البرتقال ، ولا يكاد البرتقال يتردد فى قصائده الا فى حالات قليلة نادرة ، ولا شك ان الشاعر أو الفنان الاصيل وحده هو الذى يعبر دائما عن رؤية خاصة غير تقليدية ولا متكررة ، وهذا هو ما نجده عند محمود درويش ، فهو لايكرر غيره ، لا عن تعمد وافتعال ولكن عن صدق واصالة ، انه يستوحى تجربته الخاصة التى قد تختلف مع غيره كل الاختلاف ، ولذلك فان الارض عنده تبدو وكأنها أرض الزيتون ، واذا بحثنا عن تفسير آخر غير استقلال الشاعر واستقلال شخصيته الفنية ، فاننا سنجد عدة أسباب حددت رؤية الشاعر بهذه الصورة ٠ فمحمود درويش من قرية « البروة » وهذه القرية بالذات توجد فى منطقة تنتشر فيها أشجار الزيتون بكثرة ، بل تكاد أشجار الزيتون أن تكون هى الزراعة الرئيسية فى تلك المنطقة ، ولذلك امتلأ وجدان الشاعر بشجرة الزيتون ،

فأحبها وصادقها بعد أن عاشرها طويلا وأحس بها احساسا وجدانيا عميقا . ومنطقة « البروة » بالذات هي أغنى مناطق فلسطين بأشجار الزيتون ، كما أن الزيتون الذى ينبت فى هذه المنطقة هو أفضل وأنقى وأقدم أنواع الزيتون فى فلسطين كلها . اذن فالزيتون له شخصية قوية تفرض نفسها ولها وجود حى ملموس ...

عاشره الشاعر منذ طفولته وارتبطت حياته وحياة أهل قريته بهذا الزيتون منذ البداية . ومن هنا كان من الصدق والواقعية والتعبير الوجدانى السليم أن يحتل الزيتون مكانة أساسية فى شعر محمود درويش قبل غيره من مظاهر الطبيعة فى فلسطين .

وهناك معنى آخر يساند اختيار محمود درويش للزيتون ومحبته له والاهتمام به فى شعره ، فالزيتون من الاشجار القليلة التى تحمل بالنسبة للوجدان الانسانى بعض المعانى الرمزية الكبيرة ، فالزيتون شجرة ترمز للسلام بالنسبة لكل انسان على هذه الارض ، وهى لا ترمز للسلام المناقض للحرب فقط وانما ترمز للسلام المرتبط بالحياة المعادى للخراب ، المتصل بالازدهار والاخضرار فى الطبيعة والانسان . ان شجرة الزيتون هى رمز للحياة الخضراء المتألقة المنتجة فى كل ميدان . وما دام الزيتون يحمل كل هذه الرموز والمعانى العميقة فهو أقرب الى روح الفن ووجدان الفنان من أشجار البرتقال التى لا تحمل أى معنى من هذه المعانى على الاطلاق .

ومن ناحية أخرى فان أشجار الزيتون هى « أشجار الفقراء » يزرعها هؤلاء ويملكونها فى كثير من الاحيان ، وليس معنى هذا ان الاغنياء لا يملكون شيئا من الزيتون ، فالغنى عادة يستطيع أن يشارك الفقراء فيما

يملكون ، بينما لا يستطيع الفقراء مشاركة الاغنياء فى كل شىء . ولكن علاقة الفقراء بالزيتون تعود الى أمكان امتلاك رقعة صغيرة من الارض مزروعة بالزيتون ، فشجره وافر الثمار ، صغير الحجم ، يعتمد على المطر ، ولكن البرتقال يحتاج الى مناطق واسعة هى تلك التى تسمى باسم « البيارات » ولا بد لمن يملكها أن يكون على شىء من الثراء . أما الزيتون فمن الممكن لأى مواطن عادى فقير أن يملك بضع شجيرات يعيش عليها ومن أجلها دون حاجة الى « البيارات » .

ومحمود درويش هو واحد من هؤلاء المواطنين الفقراء أنفسهم ، عاش تجاربهم وأحلامهم وأحزانهم ، وهو فى شعره انما يعبر عنهم تعبيرا فنيا وانسانيا عميقا . ولذلك فلقد كان من الطبيعى أن تكون الصورة الواضحة فى شعره ووجدانه هى صورة شجرة « الزيتون » ، شجرة الفقراء ، شجرة السلام ، شجرة الخضرة والازدهار فى الارض وفى حياة الانسان شجرة الرسوخ والثبات والعمر الطويل . أما البرتقال فلم يلتفت اليه الشاعر كثيرا لخلوه من معظم المعانى التى ترتبط بأشجار الزيتون .

ولقد كان الديوان الثانى لمحمود درويش هو « أوراق الزيتون » . أما الزيتون فما أكثر ما نلقاه فى قصائده ودواوينه .

ولست بحاجة الى تقديم نماذج شعرية تثبت أهتمام محمود درويش بشجرة الزيتون فلا تكاد تخلو قصيدة له من صورة الزيتون هذه ، فهى صورة تقابلنا باستمرار فى شعره .

الحب والمرأة

محمود درويش شـاعر عاطفى بالمعنى العميق لهـذه الكلمة ، وهو شاعر تنبع موهبته من محبة الحياة وعشق الجمال فى الطبيعة والانسان ، وليس شاعرا تنبع موهبته من « الكراهية » أو « النقمة » أو « اليأس » ... ان شعر محمود درويش شعر غنى بالعاطفة الانسانية فى كثير من قصائده ، بل فى كثير من أبياته ، والحقيقة ان محمود درويش من أغنى شعراء العاطفة فى تاريخ الشعر العربى كله .. وهو يعبر عن العاطفة .. عاطفة الحب ، تعبيرا جديدا ومتنوعا ومبتكرا فى صوره وخيالاته المختلفة ... انه عاشق من الدرجة الاولى اذا صح التعبير ... يملأ العشق قلبه بالعواطف الخصبة الحارة ، وهى عواطف تفيض من هذا القلب على كل قضية أخرى تتصل بحياة الشاعر أو بفكره

على أن العاطفة فى شعر محمود درويش ليست عاطفة مجردة ، لانها ترتبط كل الارتباط بالقضية التى يعيش معها فى كل لحظة من حياته وهى قضية وطنه ، كما أن هذه العاطفة تتأثر كل التأثير بالجو الخانق التعيس الذى تعيش فيه الاقلية العربية داخل الارض المحتلة ، فالحب فى شعر محمود درويش هو زهرة حولها الكثير من الاشواك

يقول محمـود درويش لحبيبته فى قصـيدة عنوانهـا

« قصائد عن حب قديم » :

تشهيت الطفولة فيك
مذ طارت عصافير الربيع
تجرد الشجر
وصوتك كان ، يا ما كان ،
يأتيني من الآبار أحيانا
وأحيانا ينقطه لى المطر
نقيا هكذا كالنار
كالاشجار .. كالاشعار ينهمر

ويقول فى نفس القصيدة :

ونعبر الطريق مكبلين ... كأننا اسرى
يدى ، لم أدر ، أم يدك احتست وجعا
من الاخرى

هذه بعض الصور الفنية التى يعبر بها محمود درويش عن عاطفته .. انها صور جديدة وغنية بدفئها وصدقها ... فعندما يريد أن يصور لنا أن صوت حبيبته يسيطر على كيانه كله فهو يقول :

وصوتك كان يا ماكان
يأتينى من الآبار أحيانا
وأحيانا ينقطه المطر

فصوتها يأتيه من كل مكان وهو صوت يمتزج بكل مظاهر الطبيعة فكأنه جزء من هذه الطبيعة وعنصر من عناصرها

وعندما يريد الشاعر أن يصور لحظة من لحظات حبه ، لا ينسى أنه هو وحبيبته يعيشان فى ظروف قاسية ولذلك فهو يمشى مع حبيبته « فى الطريق مكبلين » .. « كأننا أسرى » ... « يدى لم أدر ، أم يدك احتست

وجها ... من الاخرى » ... انها صورة جديدة وغريبة وصادقة حقا لعاشقين يعيشان فى ظروف من القهر .. مثل تلك الظروف التى يعيش فيها العرب فى الارض المحتلة

اننا سرعان ما نجد فى الشعر العاطفى لمحمود درويش صورة عميقة لمأساته وقضيته ، فهو لا يجرد العاطفة أبدا أو ينعزل بها عن قضيته ... انه شاعر قضية ، شاعر مأساة ، شاعر « جرح لا يساوم » ، ولذلك فالحب عنده مرتبط كل الارتباط بوطنه وقضيته ، وهذا الارتباط لا يقلل من الحب ، بل يجعله عميقا ومؤثرا الى أبعد حد ، فهو فى النهاية حب محروم ، وهو حب محرم أيضا ، فليس فى حياة الارض المحتلة فرصة طبيعية لحب طبيعى ناجح ، فكل انسان عربى فى هذه الارض معرض للاضطهاد والموت فى أى لحظة ... فالحب هنا عصفور مطارد بألف بندقية ، فهو ينتقل مضطربا من غصن الى غصن يبحث عن مأمن قد لا يجده على الاطلاق

ولعل اكثر القلوب احتياجا الى الحب ، ومعرفة لقيمته ودوره فى حياة الانسان هى قلوب هؤلاء المحرومين المعرضين للاضطهاد . الحب بالنسبة لهذه الحياة الصعبة القاسية هو مصدر الامل الوحيد ، ونافذة الهواء الوحيدة ، وشعاع الشمس الذى يملأ الحياة بالحرارة والدفء

فى حوار بين الشاعر وبين حبيبته يقول لنا محمود درويش :

عندما كنت صغيرا وجميلا
كانت الوردة دارى
والينابيع بحارى

(صارت الوردة جرحا
والينابيع دماء)
ـ هل تغيرت كثيرا ؟
ـ ما تغيرت كثيرا
عندما نرجع ، كالريح ، الى منزلنا
حدقى فى جبهتى
تجدى الورد نخيلا
والينابيع عرق
تجدينى مثلما كنت
صغيرا وجميلا

فاذا كانت حبيبته تبحث عن صورة مشرقة جميلة له ... فلن تجدها الا بعد أن يعود الى منزله ، رمزا لعودة كل فلسطيني عربى الى ارضه المغتصبة ... فالحب الناجح المطمئن مرتبط بعودة الارض وانتصار الانسان العربى

وهو يرى أن نجاحه فى حبه مرتبط كل الارتباط بنجاحه في نضاله واستمراره فى هذا النضال من أجل قضيته ، فلو انحنى وسلم لأعدائه فان حبه سوف يموت وينتهى ولا يعود جديرا بأى شيء من عطايا الحب وهداياه ، لأن هذا الحب مرتبط بموقفه من أرضه وشعبه واهله :

يداك فوق جبينى
تاجان من كبرياء
اذا انحنيت انحنى
تل وضاعت سماء
ولا أعود جديرا
بقبلة أو دعاء

والباب يوصد دوني

ومحمود درويش كثيرا ما يمزج بين « الحبيبة » و « الوطن » ويجعل منهما شيئا واحدا .. كثيرا مايتحدث عن الحبيبة ثم يقوده الحديث الى فلسطين وجرحها واحلامها أيضا . لقد وصل محمود درويش فى تعبيره الفنى عن تجربته العاطفية الى درجة عالية من الاحساس العميق بأن كل لحظة حب يحس بها نحو فتاته هى فى نفس الوقت لحظة عاطفة من أجل الارض المحتلة المجروحة . لان الحبيبة دائما تذكره بالوطن ... بل أن الحبيبة هى الوطن فى نفس الوقت :

.. ما الذى يجعل الوطن
بين عينيك اجملا
والاساطير والزمن
تتمناك منزلا ؟
... ...
انت عندى ام الوطن
أم انا الرمز فيكما ؟

فهو هنا يمزج مزجا فنيا جميلا بينه وبين الحبيبة وبين الوطن ... الكل فى واحد لا ينقسم ولا يتجزأ

وفى قصيدته المشهورة « عاشق من فلسطين » والتى اشرنا اليها من قبل يقول محمود درويش عن حبيبته :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الاحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد والموت

فالشاعر هنا يؤكد على كلمة « فلسطينية » لانه يجد فيها أجمل معانى الحب والعاطفة الانسانية . ذلك لأن حبه لفتاته امتزج امتزاجا كاملا بحبه لوطنه وايمانه به ، واصبح كل ما يحس به من جمال متركزا فى انها « فلسطينية » ... ففى هذه الصفة يجتمع كل السحر الحقيقى الاصيل .

وفى نفس هذه القصيدة ، قصيدة عاشق من فلسطين يرسم لنا صورة لحبيبته ، تخرج تماما عن نطاق التصوير الفنى للحبيبة العادية لتصبح صورة للوطن كله :

رايتك عند باب الكهف ... عند الغار
معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامك
رايتك فى المواقد ... فى الشوارع
فى الزرائب فى دم الشمس ...
رايتك فى اغانى اليتم والبؤس
رايتك ملء ملح البحر والرمل
وكنت جميلة كالارض ... كالاطفال .. كالفل
واقسم :
من رموش العين سوف اخيط منديلا
وانقش فوقه شعرا لعينيك
واسما حين اسقيه فؤادا ذاب ترتيلا
يمد عرائش الايك
ساكتب جملة احلى من الشهداء والقبل :
« فلسطينية كانت ولم تزل »

فالحبيبة هنا هى الوطن ، والوطن هو الحبيبة .. والصور الفنية الجديدة التى يرسمها الشاعر فى هذه القصيدة صور رائعة ومثيرة .. فهو يرى الحبيبة وهى

تعلق على حبـل الغسيل ثياب أيتامهـا ... ويراها فى الشوارع والزرائب وفى دم الشمس .. ويراها فى أغانى اليتم والبؤس وفى ملح البحر ... وتلك كلها صور توحى الينا بمدى ما يحسه الشاعر من امتزاج الحبيبة والوطن بكل مظاهر الحياة وخاصة تلك الحياة القاسية المكافحة التى يتكون اطارها من « البؤس واليتم والزرائب وثياب الايتام »

ومع ذلك فهو يغنى للحبيبة أو الوطن أجمل أغنية ... لانها :

فلسطينية كانت ولم تزل !

فمـا دام الاسرائيليون يريدون القضـاء على الصفة « الفلسطينية » للارض وللحبيبة فلتكن هذه الصفة هى أحلى أغنية وأجمل نشيد

على أن الارتباط العميق بين الوطن والحبيبة فى شعر محمود درويش ، وهو ارتباط يشمل شعر محمود العاطفى كله .. هذا الارتباط يقودنا الى موقف آخر فى شعره العاطفى . فالحب عند محمـود درويش هو اشتراك فى الحياة الصعبة القاسية التى يعيشها العربى فى الارض المحتلة . ان حب محمـود درويش هو حب الفقـراء المكافحين ، وليس حب المترفين الذين يجعلون من الحب وردة تسعدهم فى وقت الاسترخاء والراحة والرفاهية ، ولذلك فهو يصور لنا حب الفقـراء هؤلاء فى كثـير من قصائده ... فاذا به حب عميق أصيل له شخصيته النبيلة المؤثرة .. وهى فى نفس الوقت صـورة جديدة لذلك الحب الكبـير الاصـيل الذى يعبر عنه محمـود درويش :

واذا جعنا تقاسمنا الرغيف

ويقول فى قصيدة اخرى :

احبك حب القوافل واحة عشب وماء
وحب الفقير الرغيف
كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة
وجدنا غريبين يوما
ونبقى رفيقين دوما !

وهو يحس بالحنين العميق الى الحب ، بل يرى ان الحب هو خلاصه من مأساته ، وهو أمله الكبير فى الخلاص :

من بئر مأساتى ... انادى مقلتيك
كى تحملا خمر الضياء الى عروقى
ماذا يثير الناس ! لو القيت راسى فى يديك
وطويت خصرك فى الطريق

ويعبر محمود درويش نفسه عن هذا الربط الذى يقصد اليه بين الحب وقضيته الوطنية والانسانية فيقول فى حديثه الى الاستاذ محمد دكروب فى مجلة الطريق اللبنانية :

« اننى اكتب فى هذه الفترة عن الحب الذى يولد وسط قضية ، فيحملّ ملامحها وهمومها ويصبح جزءا لا يتجزأ منها . أريد أن أكسر الحائط الذى يفصل بين العاشقين وبين الشارع فالعاشقان ليسا عاشقين فقط ، ولكنهما ضحية واحدة وأمل واحد وكفاح واحد . لقد تحدثنا كثيرا عن التحام الخاص بالعام ، ولكن هذه الظاهرة اصبحت تأخذ شكلا تلقائيا عندى خاصة فى الاغانى التى أكتبها الان . ان طعم العلاقات بين العاشقين يحمل مذاق الواقع الخشن »

على أن محمود درويش يصور لنا أحيانا وطنه فى صورة « امرأة » مسئولة عن مصيرها ... أساءت التصرف

وسمحت للآخرين ... لغير أهلها الحقيقيين بأن يمتصوها ويسيئوا اليها :

اتحبها ؟
أحببت قبلك
وارتجفت على جدائلها الظليلة
كانت جميلة
لكنها رقصت على قبرى ، وأيامى الطليلة
وتخاصرت والآخرين ... بحلبة الرقص الطويلة
وأنا وانت نعاتب التاريخ
والعلم الذى فقد الرجولة
من نحن ؟
دع نزق الشوارع
يرتوى من ذل رايتنا القتيلة
فعلام لا تغضب ؟
وشفاهها للراقصين الآخرين
ونهدها يحلب
انا حملنا الحزن اعواما وما طلع الصباح
والحزن نار تخمد الايام شهوتها
وتوقظها الرياح
والريح عندك ، كيف تلجمها
ومالك من سلاح ...
الا لقاء الريح والنيران
فى وطن مباح ؟!

هذه صورة نادرة ، وقليلا ما تتكرر في شعر محمود درويش ... صورة المراة اللاهية المسئولة عن مصيرها ، والتى استسلمت لاغتصاب الآخرين ، والمراة هنا رمز للوطن ... ومحمود درويش فى معظم شعره لا يرمز للوطن

الا بصورة غالية كريمة عزيزة .. باستثناء ما نراه فى هذه القصيدة ، حيث تبدو المرأة ـ رمز الوطن ـ خاطئة مقصرة متساهلة فى أمر مصيرها وحياتها

هناك صورة اخرى للمرأة فى شعر محمود درويش ترمز لاسرائيل :

كفاك يا صديقتى ... ذئبان جائعان
مصى بقايا دمنا ، وبعدنا الطوفان
وان سغبت مرة ... لا تتركى الجثمان
وان سئمت بعدها ، فعندك الديدان

انا خلقنا غلطة ... فى غفلة من الزمان
وانت يا صديقتى العجوز ... يا صديقتى المراهقة

كونى على أشلائنا كالزنبقات العابقة

ثم يقول فى نهاية هذه القصيدة ـ وهى قصيدة ضعيفة على أى حال فى تركيبها وصياغتها الفنية وليست فى مستوى شعر محمود درويش الجيد :

يا ويل من تنفست رئاته الهواء
من رئة مسروقة !
ياويل من شرابه دماء
ومن بنى حديقة ... ترابها أشلاء
ياويله من وردها المسموم

ومعظم النماذج الشعرية السابقة مستمدة من ديوان « أوراق الزيتون » وديوان « عاشق من فلسطين » لمحمود درويش . ولكن اجمل وابقى ما غناه محمود درويش للحب انما نجده فى ديوانه الاخير « آخر الليل » . لسوف نجد محمود درويش فى هذا الديوان الذى يرتقى فيه الى اعلى قدراته الفنية ، يربط أيضا بين الحب والوطن ،

ولكن بصورة اجمل واعمق ... فهو يقول مثلا :

الارض ، أم انت عندي
أم أنتما توأمان
من مد للشمس زندي ؟
الارض ، أم مقلتان ؟
سيان ، سيان ... عندي

او يقول :

وطنى جبينك فاسمعينى
لا تتركينى
خلف السياج
كعشبة برية
كيمامة مهجورة
لا تتركينى
... ...
وتعودى أن تحرقينى ،
ان كنت لى ،
شغفا بأحجارى بزيتونى
بشباكى ... بطينى
وطنى جبينك ، فاسمعينى
لا تتركينى !

وفى قصيدته عن مذبحة كفر قاسم ، يصور لنا محمود درويش ، عاشقا يعود الى حبيبته بعد أن قتله اليهـــود فى المذبحة ... انه يعود من الموت ليتحدث الى فتاته ، ويصور لنا الشاعر هنا كيف يموت الحب وتموت الحياة على يد الاسرائيليين عندما يقول بلسان العاشق المقتول :

لك منى كلّ شىء

لك ظلّ لك ضوء
خاتم العرس ، وما شئت

وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما فى كل ليلة
أدخل الشباك فى الحلم ، وأرمى لك فلة

لا تلمنى ان تأخرت قليلا

انهم قد أوقفونى
غابة الزيتون كانت دائما خضراء

كانت يا حبيبى
ان خمسين ضحية
جعلتها فى الغروب

بركة حمراء ... خمسين ضحية
يا حبيبى ... لا تلمنى

قتلونى ... قتلونى
قتلونى

انها صورة رائعة للحب المقتول ... والحب هنا رمز للحياة المقتولة والوطن المقتول .. ولكن الحبيب يعود رغم الموت الى حبيبته ، وكذلك تعود الحياة ، ويعود الوطن

وفى قصيدة عنوانها « الموعد » يصور لنا محمود درويش « الحب فى بلاده » تصويرا انسانيا فى غاية العمق والروعة والقدرة على التاثير .. فماذ يكون الحب فى وطن مجروح معرض لالوان العذاب والالم ، وكيف يمكن أن تكون صورة الحب فى قلب مواطن عربى يعيش فى هذه الارض المحتلة : فلسطين ، وهو مهدد بأن يفقد

حياته فى كل لحظة ، مهدد بأن يفقد حبيبته ، مهدد بأن يفقد خبزه وخبز أسرته .. انه حب حزين وهوى ملىء بالعذاب .. يقول محمود فى تصويره الرائع للحب فى الوطن الجريح :

وطنى حبنا هلاكك والأغانى مجرحه
كلما جاءنى نداك هجر القلب مطرحه
وتلاقى على ربابك بالجروح المفتحة
لا تلمنى ففى ثراك أصبح الحب .. مذبحة

وفى احدى قصائد ديوان « آخر الليل » يثير محمود درويش قضية هامة ، فهو لا يجد ما يمنعه ، كفنان صاحب نزعة انسانية عميقة ، من التعبير عن الحب كعلاقة انسانية تربط بين شاب عربى وفتاة يهودية ... ان هذا الحب من الناحية الانسانية ممكن ولا شك ، لان العربى الانسان يفرق تفرقة كاملة بين « اليهودية » و « الصهيونية » ... بين العلاقة الانسانية العامة والعلاقة المريرة التى فرضتها الصهيونية على العرب .

وفى هذه القصيدة الرائعة لمحمود درويش وهى قصيدة « ريتا والبندقية » ، يتحدث الشاعر عن حب بين شاب عربى وفتاة يهودية ... ثم يحدثنا أن هذا الحب يمكن أن ينجح ويتحول الى علاقة انسانية أصيلة . ولكن الذى يعوق هذه العلاقة ويعطلها ليس قلب العاشق العربى ولا قلب العاشقة اليهودية .. ان العائق هو الصهيونية .. هو المدفع الصهيونى .. هو البندقية الصهيونية ، لان الصهيونية ضد الحب ... ضد التقاء القلب بالقلب ، وهى بسبب ذلك ضد الحياة ، وضد الجمال ، وضد كل مظهر من مظاهر الانسانية ... ان القوة

المعادية للحب هى قوة معادية لكل شيء مثمر بالنسبة للحياة والانسان ، وهــذه القــوة المعــادية للحب هى الصهيونية

الفتاة اليهودية فى هذه القصيدة اسمها ريتا ... أما العاشق العربى فيتكلم فى قصيدة محمود درويش بلسان الشاعر :

بين ريتا وعيونى بندقية
والذى يعرف ريتا ، ينحنى
ويصلى
لاله فى العيون العسلية
.. وانا قبلت ريتا
عندما كانت صغيرة
وانا اذكر كيف التصقت
بى ، وغطت ساعدى أحلى ضفيرة
وانا اذكر ريتا
مثلما يذكر عصفور غديره
آه .. ريتا
بيننا مليون عصفور وصورة
ومواعيد كثيرة
اطلقت نارا عليها بندقية

. . . .
آه ... ريتا
اى شيء رد عن عينيك عينى
سوى اغفاءتين
وغيوم عسلية
قبل هذى البندقية !

وهكذا يسقط الحب تحت سطوة العدوان الصهيوني الذى ترمز اليه « البندقية » فى هـذه القصـيدة ... وليست قصـة الحب بين عاشـق وعاشـقة هى التى افسدتها هذه البندقية فقط .. ولكن هذا الحب هـو أيضا رمز للحيـاة والسلام الذى يمكن أن يمـلأ أرض فلسطين ويجمع بين المسلمين والمسيحيين واليهود ... بين العاشق العربى .. وريتا العاشقة اليهودية .. لولا العنصرية والنازية الجديدة .. لولا الصهيونية التى تقوم على العدوان والتوسع والكراهية العميقة للعرب .

المسيح يصلب
في القرن العشرين

فى شعر محمود درويش نلتقى برمز يتردد كثيرا فى قصائده هو رمز « الصليب » ... ذلك لان الشاعر العربى الذى يعيش فى الارض المحتلة يحس أنه مصلوب هو وشعبه وأرضه . والصليب رمز يرتبط بفلسطين القديمة ارتباطا كاملا ، فلقد امد اليهود على هذه الارض منذ الفين من السنين تقريبا صليبا ليقتلوا فوقه المسيح ، وكان المسيح يمثل الدعوة الى العدل وتجديد المجتمع اليهودى على أساس من المبادىء الانسانية الرفيعة ، ولكن اليهود حاربوه وقرروا قتله ، وبقيت قصة الصليب منذ ذلك الحين رمزا للفداء والتضحية من أجل خلاص الانسان ... وما حدث لفلسطين فى العصر الحديث يشبه الى حد كبير قصة « الصليب » ، فلقد تمزقت فلسطين على يد الصهيونية ، صلبها اليهود وأسالوا الدماء من جسدها ... وأصبحت مأساتها نموذجا غير عادى لافظع قصة تعرض لها شعب من الشعوب خلال التاريخ الانسانى المعاصر . ولو جاء المسيح ليعيش فوق فلسطين فى القرن العشرين ، ودعا دعوته الى الانسانية والمثل العليا الكريمة التى كان يدعو اليها ، لكان من الضرورى ان يعمل اليهود الصهيونيون على قتله وصلبه لانهم اقاموا دولتهم على أساس معاد تماما لكل القيم الانسانية التى

دعا اليها المسيح ... لقد ذبحوا البشر وأشعلوا العداء بين الناس واقاموا دولتهم على أساس من الظلم والتعسف والاغتصاب ... وكل هذه المبادىء التي أقيمت فوقها دولة اسرائيل تناقض تمام المناقضة تلك المبادىء التي عاش المسيح من اجلها وعانى الالام والمصاعب في سبيل انتشارها

ومن هنا شاع رمز الصليب فى شعر محمود درويش ، خاصه وأنه كمـــــــا يكشف شعره كثير القراءة للكتب الدينية .. ففي شعره كثير من الاشارات التي تدل على اهتمامه بالثقافة الدينية اهتماما واعيا وذكيا . ورمز الصليب فى شعر محمود درويش يشير الى الجو النفسى الذى يعيش فيه الشاعر ، ويشير ايضا وبقوة الى المأساة الفلسطينية ... فالشاعر يحس انه يعيش فى جو من الاضطهاد والمطـاردة من العـدو الاسرائيلى ، وفلسطين نفسها ممزقة ومصلوبة على يد هذا العدو نفسه . ومن هنا امتلأ شعر محمـود درويش بصورة الصليب ورمز الصليب ، ويكثر هذا الرمز على وجه الخصوص فى ديوانه الثانى « عاشق من فلسطين » ... فلقد ترددت صورة الصليب فى هذا الديوان بكثرة ملحوظة .

وفى قصيدة من قصائد هذا الديوان عنوانها « صدى من الغابة » يقول محمود :

من غابة الزيتون جاء الصدى
وكنت مصلوبا على النار
أقول للغربان : لا تنهشى
فربما أرجع للدار

وربما تشتى السما ... ربما
تطفىء هذا الخشب الضارى
انزل يوما عن صليبى ... ترى

كيف أعود حافيا عاري

فالشاعر هنا مصلوب مثل وطنه فلسطين ، ومثل جميع القيم التي يمثلها المسيح وغيره من الانبياء والثوار والمصلحين ، ولكن الامل لا يفارق الشاعر فى النصر وفى الخلاص من هذا الصليب ... فى الخلاص من هذه المحنة « ... فربما تشتى السما ... وربما تطفىء هذا الخشب الضارى » ... ولنلاحظ أن الصليب هنا صليب من النار ، وهى صورة تضاعف معنى العذاب وتؤكده

وفى قصيدة أخرى بعنوان « قال المغنى » يقول محمود درويش مستخدما صورة الصليب أيضا :

المغني على صليب الالم
جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء ... سوى الندم :
هكذا مت واقفا
واقفا مت كالشجر
هكذا يصبح الصليب
منبرا ... اوعصا نغم
ومساميره ... وتر
هكذا ينزل المطر
هكذا يكبر الشجر

وفي هذه القصيدة يتحول الصليب الى منبر لاعلان القضية العادلة والتعبير عنها ، وتتحول مساميره الى أوتار يغنى من خلالها لقضيته ويعبر عن سعادته بالاستشهاد فى سبيل هذه القضية النبيلة .. ومن خلال هذا الاحتمال للعذاب ينتصر العدل « وينزل المطر ويكبر

الشجر »

وفى قصيدة أخرى بعنوان « شهيد الاغنية » يقول محمود درويش :

ماكنت أول حامل اكليل شوك
لأقول : ابكى !
فعسى صليبى صهوة ،
والشوك فوق جبينى المنقوش
بالدم والندى ... اكليل غار
وعساى آخر من يقول :
أنا تشهيت الردى !

فصورة الصليب تتكرر كثيرا فى شعر محمود درويش ... ولا شك أن محمود هو واحد من أصدق الذين استخدموا هذه الصورة فى شعرنا المعاصر ، فهى صورة تتكرر كثيرا عند الشعراء المعاصرين ، ولكننا نحس أحيانا انها نقل وتقليد لبعض الشعراء الغربيين مثل « اليوت » ، وليست صورة نابعة من احساس حقيقى وتجربة حقيقية . أما محمود فيستخدم هذه الصورة فى موضعها .. لانه يعبر عن تجربة كبيرة ومأساة حقيقية ... وأى درجة من الآلام تلوح أمام هذه المأساة آلاما سهلة وبسيطة لان العذاب الذى تحمله المواطن العربى الفلسطينى هو نوع من عذاب الصليب الذى أعده اليهود يوما لقتل المسيح وتعذيبه . وارتباط الصليب بفلسطين ارتباطا تاريخيا ووجدانيا يبرر من ناحية أخرى استخدام الصليب عند محمود درويش ويبرر اختياره للصليب فى قصائده كرمز لآلامه كعربى ورمز لآلام شعبه فى فلسطين . وهذا ما نلتقى به على صورة شديدة التركيز ، شديدة التأثير فى قصيدة

لمحمود درويش بعنوان رباعيات •• حيث يقول فى الرباعية الاولى :

وطنى ! لم يعطنى حبى لك
غير اخشاب صليبى
وطنى ، يا وطني ، ما أجملك !
خذ عيونى ، خذ فؤادى ، خذ .. حبيبى !

فالصليب هو تلك المنحة التى نالها الشاعر والانسان العربى محمود درويش هو ورفاقه من أبناء فلسطين ... انه منحة الحب الصوفى العميق والتى تمنحهـــا الارض المغصوبة بالظلم والدم لكل عاشق من عشاق ترابهـــا وجراحها وما فيهـــا من عذاب وقهر وأمل عريض فى نفس الوقت •

الدين والثورة

صورة الصليب التى تنتشر فى قصائد محمود درويش رمزا للعذاب الذى يعانيه الانسان فى الارض المحتلة ... هذه الصورة تتصل بفكرة الدين عند محمود درويش ورفاقه . وقد ظهرت الفكرة الدينية فى البداية عند شعراء المقاومة على شكل ثورة من ثورات الشك والتمرد، وبلغت ثورة الشك هذه حدا يكاد يعتبره المؤمنون الحادا وكفرا كاملين ، ولعل ثورة الشك هذه قد تأثرت بما يمكن أن نسميه باسم « طفولة الافكار اليسارية » التى شاعت فى بعض الفترات بين شعراء الارض المحتلة ، صحيح أن الفكر اليسارى الاشتراكى العالمى قد وصل بعد ذلك الى مرحلة عالية من النضج والاكتمال والتفتح والفهم الصحيح للحضارة والثقافة الدينية ، ولكن مرحلة الطفولة اليسارية كانت تبرر لبعض هؤلاء الشعراء « الثورة على الدين » ... على أن هؤلاء الشعراء أنفسهم قد استطاعوا بعد ذلك أن يصلوا الى فكرة أنضج وأعمق ، وتجاوزوا ثورة الشك ، وربطوا بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الحياة ، بين الدين والكفاح من أجل المستقبل الانسانى

ولا نكاد نعثر على أثر واضح لثورةالشك هذه عند محمود درويش اللهم الا فى بعض قصائده الاولى ، مثل قوله فى قصيدة له بعنوان « الموت فى الغابة » :

نامى !
فعين الله نائمة
عنا .. واسراب الشحارير

والحقيقة عند كل مؤمن – هى أن عين العـــدل الالهى لا تنام ، ولكن صوت محمود درويش هنا هو تعبير عن لحظة عابرة من لحظات اليأس والشك .. وهي ليست لحظة أصيلة فى شعره ولا متكررة !

ونجد ملامح « ثورة الشك » هذه بوضوح أكثر عند زميل محمود درويش الشاعر اللامع الموهوب ســـــميح القاسم .. ولنقف لحظة مع ثورة الشك لنلتقى بعد ذلك بصورة أخرى للربط العميق بين الدين والثورة من أجـل الحرية والعدل

يعبر سميح القاسم فى قصيدة عنوانها « رسالة الى الله » عن ثورته على الدين وشكه فى أن الدين له جدوى ، وذلك لانه يرى « المتدينين » أبناء الله ضائعين معذبين فى هذه الحياة

يقول سميح فى قصيدته :
سيد الكون أبانا
ألف آمنا ، وبعد
من حقول البؤس هذى الكلمات
من سفوح جوعت ، من قمم
نسرها أهوى على الشمروخ فى يأس .. ومات
من بحار لم تعد فيها جزيره
لم يعد فيها سوى أشرعة الذكرى المريرة
من جنين كبلت فيه الحياة
كل ما تحمل هذى الكلمات
يا أبانا ، يا أبا أيتامه ملوا الصلاة
يا أبانا نحن ما زلنا نصلى من سنين

يا أبانا نحن ما زلنا بقايا لاجئين
أرضنا
من عسل ـ يحكى ـ بها الأنهار
ـ يحكى ـ من حليب
الجبت ـ يحكى ـ كبار الانبياء
وعشقناها
ولكنا انتهينا فى هوانا أشقياء
وحملنا كل آلام الصليب
يا أبانا ، كيف ترضى لبنيك البسطاء
دون ذنب ـ كل آلام الصليب
يا أبانا نحن بعد اليوم لسنا بسطاء
لن نصلى لك كى تمطر قمحا
لن نداوى بالحجابات وبالرقية جرحا
نحن أنجبنا على الحزن كبار الانبياء
وخلقنا من أمانينا التى تكبر ... ربا
شق من مأساتنا للفجر دربا

ولكن سميح القاسم ينتهى من ثورة الشك فى نفس القصيدة الى طلب الغفران فى النهاية ، باعتباره خاطئا فى شكه ، ومدفوعا بسبب عذابه الى هذا الشك :

عفوك اللهم ، ان كانت حروفى مستفزه
انا انسان من الطين
انا الخاطىء مذ كنت
ومولاى المنزه

هذه الثورة .. ثورة الشك فى الدين، يخلقها الاحساس العاطفى الحاد لدى الشاعر بانه ضائع ... وانه محروم من رعاية الله .. ولكن ثورة الشك هذه سرعان ما تزول وتتحول الى ايمان عميق وربط كامل بين « الدين والثورة »

... فسميح القاسم نفسه يقول فى قصيدة أخرى مستفيدا من قراءاته فى الكتب الدينية المختلفة :

أنا قبل قرون
لم أتعود أن أكره
لكني مكره
أن أشرع رمحا لايحيا
فى وجه التنين
أن أشهر سيفا من نار
أشهره فى وجه البغل المأفون
أن أصبح « أيليا » فى القرن العشرين

رايليا هو « نبى يهودى حارب عبادة الاوثان ، وينسب اليه أنه قتل كهنة بعل » فالشاعر هنا يوحد بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الواقع وتحرير الانسان

على أن المعنى الذى يرتبط فيه الدين والايمان بالثورة نجده على أوضح ما يكون عند شاعرنا محمود درويش ، واذا كنا لا نجد فى شعر محمود درويش الا مظاهر قليلة لنزعة الشك الدينى ، فاننا نجد عنده نماذج واضحة عميقة فى نزعته الى ربط الدين بالثورة ، وبالتغيير ، وبالكفاح من أجل المستقبل الانسانى

ويكشف لنا شعر محمود درويش عن ثقافة واضحة في ميدان الكتب الدينية فلقد قرأ الشاعر هذه الكتب واستخرج منها تفسيرات خاصة ومواقف محددة تخدم تلك الفكرة التى يعبر عنها .. وهى أن الدين ليس مجرد طقوس وعبادات فقط ، بل هو فى جوهره ثورة من أجل الانسان ... ثورة من أجل العدل والحرية والكرامة .. ويهتم محمود درويش على وجه

الخصـــوص بالكتب الدينية اليهـــودية ، ولعل دافعه الى ذلك أن يستخرج من هذه الكتب ما يدين الاسرائيليين ... بلغتهم ومن كتبهم المقدسة نفسها ... ولقد توقف محمود درويش أمام نبى من أنبياء اليهود بالذات هو « حبقوق » ـ بتشديد الباء ـ وهو أحد أنبياء اليهود الذين جاء ذكرهم فى العهد القديم كثائر على اليهود وعلى خطاياهم الكثيرة ، و« حبقوق » هو القـائل عن بنى اسرائيل : « الى متى يارب أستغيث ولا تستجيب أصرخ اليك من الظلم ولا تخلص ، لماذا ترينى الاثم وتشهدنى الاضر ويجرى قدامى الاغتصاب والظلم ويحدث الخصـام ويقوم النزاع »

ثم يقول حبقوق أيضا :

« ويل لمن يبنى مدينـة بالدماء ويؤسس قـرية بالاثم »

وماذا تكون اسرائيل .. اذا لم تكن مدينة مبنية بالدماء وقرية مؤسسة بالاثم ؟!.. ان محمود درويش يستعيد صورة هذا النبى اليهودى دائما ، فهو نبى ثائر على قومه، ثائر على سلوك بنى اسرائيل ... ولو كان هذا النبى حيا اليوم بأفكاره التى جاء بها العهد القديم لكان من أعتى أعداء بنى اسرائيل

يقول محمود درويش فى قصيدة له بعنوان رباعيات :

حبقوق ! عد الينا .. عد وبشر من جديد
وارو مأساة مدينة
فوق تاج الدم قامت والعبيد
ووراء الدم نار ، وضغينة !

وفى هذا المقطع يشير محمود درويش الى كلمـات « حبقوق » السابقة :

« ... ويل لمن يبنى مدينة بالدماء ، ويؤسس قـرية بالإثم » .

ونلتقى بصورة « حبقوق » مرة أخـرى عنـد محمود درويش فى قصيدة له عنوانها « نشيد الرجال » .. ففى هذه القصيدة يدير محمود درويش حوارا بينه وبين هذا النبى الثائر على آثام اليهود .. يقول محمود درويش فى هذا الحوار :

ـ آلو ... هالو !
أموجود هنا حبقوق ؟
ـ نعم من انت ؟
ـ انا ياسيدى عربى
وكانت لى يد تزرع
ترابا سمدته يدا وعين أبى
وكانت لى خطى وعباءة
وعمامة ودفوف
وكانت لى ...
ـ كفى ياابنى
على قلبى حكايتكم
على قلبى سكاكين ..

هذا هو الموقف الجديد الذى يستخرجه محمود درويش من قلب ثقافته الدينية .. انه يكشف عن الصـفحات الثائرة فى التاريخ الدينى للانسان .. ولقد كان حبقوق بالذات ثائرا على اليهود ومحتجا عليهم معتقدا أنهم يخونون مبادئهم الدينية .. ويبنون حياتهم بالدماء والآثام !

ونجد محمود درويش أيضا وفى نفس قصيدته «نشيد للرجال » يقدم الينا صورة للمسيحية كما يفهمها .. انها المسيحية المناضلة من أجل مستقبل البشر .. ففى حوار

يتخيله الشاعر مع المسيح يقول :

ـ الو .. اريد يسوع ؟
ـ نعم ... من انت
ـ انا احكى من اسرائيل
وفى قدمي مسامير ... واكليل
من الاشواك احمله
فاي سبيل
اختار يابن الله ... اى سبيل ؟
الكفر بالخلاص الحلو ، ام امشى ؟
ولو امشي واحتضر ؟
ـ اقول لكم ... اماما أيها البشر

فالمسيح كما يتصوره محمود درويش .. وكما يفسره، هو داعية للنضال من اجل المستقبل الانسانى .. انه داعية الى شعار « ... اقول لكم ... اماما أيها البشر » .. فليس هناك دعوة للاستسلام والتراجع أمام الظلم

ونفس التصور يقدمه لنا محمود درويش للاسلام .. وهو يقدمه لنا فى حوار يتخيله بينه وبين محمد ، النبى العربى الكريم :

ـ الو .. اريد محمد العرب
ـ نعم ! من أنت ؟
ـ سجين فى بلادى
بلا أرض ... بلا علم .. بلا بيت
رموا أهلى الى المنفى
وجاءوا يشترون النار من صوتى
لاخرج من ظلام السجن ... ما أفعل ؟

وبعد أن يطرح الشاعر هذا السؤال ... ما العمل ؟ يتخيل اجابة النبى العربى الكريم .. ماذا تكون :

تحد السجن والسجان
فان حلاوة الايمان
تذيب مرارة الحنظل !

وهكذا فان روح الأديان واحدة .. انها روح الثورة والتمرد على الظلم وعلى كل أعداء الانسان .. وبهذه الصورة النبيلة الثائرة المتمردة يفهم محمود درويش الدين ... ويربط بينه وبين الثورة برباط نهائي وثيق ... فالدين ثورة ، ورفض للظلم ، ودعوة للبطولة والنضال ضد أعداء الانسان ... ان الدين قوة تشعل الثورة والمقاومة !

اتهامات ظالمة

فى صيف عام ١٩٦٨ وجهت بعض الصحف العربيـــة اتهامات عنيفة الى محمود درويش وزميله الشاعر ســـميح القاسم • وخلاصة هذه الاتهامات أن الشاعرين العربيين قد اشتركا في الوفد الاسرائيلى فى مهرجان الشـــباب فى صوفيا عاصمة بلغاريا ، وهو المهرجان الذى عقد فى صيف عام ١٩٦٨ ، وقالت الاتهـــامات التى انصبت على رأس الشاعرين انهما كانا يحملان « الباسبور » الاسرائيـــلى ويسيران وراء العلم الاسرائيلى وانهما فى أحاديثهمـــــا المختلفة قد هاجما العـــدوان الاسرائيلى الاخـــير على الاراضى العربية ولكنهمــــا لم يطالبـــا بازالة الكيـــان الاسرائيلى كله •

هذه هى التهم الموجهـــة الى محمـــود درويش وزميله سميح القـــــاسم ، واذا كان محمود درويش وزميله يحتلان الآن مكانا بارزا فى الحركة الادبية العربية المعاصرة عموما ، ويحتلان مكانا بارزا فى أدب المقاومة العربى على وجه الخصوص ، كل ذلك لانهما شاعران موهوبان يكتبان بحرارة واصالة عن قضية فلسطين ، وهما يكتبان من موقع خاص يتيح لهما أن يعيشا هذه القضـــية بصـــورة عنيفة قاسية فهما من بين المواطنـــــين العرب الذين

يقيمون داخل اسرائيل ... اذا كان محمود درويش وزميله يمثلان هذا كله فان هذه التهم الموجهة الى الشاعرين تمثل نوعا من الصدمة العنيفة للمواطنين العرب الذى قرأوا محمود درويش وسميح ووضعوهما موضع التقدير والاحترام واعتبروهما مثالا للفنانين المناضلين المؤمنين بقضية العرب ايمانا عميقا .

والواقع اننا اذا نظرنا نظرة دقيقة وامينة الى التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله فاننا سنجدها صادرة من مصدرين لا ثالث لهما :

المصدر الاول ، هو الرغبة الشائعة عند بعض الصحفيين والكتاب فى تحطيم النفسية العربية ، وذلك بتلطيخ كل الصور الجميلة المشرقة التي برزت فى حياتنا بعد نكسة ٥ يونيو ، وهذه النفسية ... نفسية التدمير والتحطيم والتشويه هى نفسية يغذيها أعداؤنا ويستسلم لها هؤلاء الذين فقدوا الثقة فى كل شىء وفقدوا الايمان باى شىء ، واعتبروا ان كل شىء بعد النكسة « باطل الاباطيل » وأصبحوا خاضعين لشعور أشبه «بالرغبة فى الانتحار» .. كما يستسلم لهذا النوع من التفكير والشعور بعض العناصر المغرضة صاحبة الهوى والمصلحة والتى لا تحب أن ترى الامة العربية وقد افاقت من صدمتها ووقفت على قدميها بعد أن سقطت فى احدى معاركها القاسية .

أما المصدر الثانى ، الذى تصدر عنه هذه التهم الموجهة الى محمود دريش وزميله سميح القاسم فهو ولا شك مصدر كامن فى العقلية العربية نفسها . فكثيرا ما يستسلم العقل العربى للعاطفة الهوجاء والانفعال الجامح ، وذلك بدلا من التزام التفكير

الموضوعى الدقيق وقياس الامور بحساب وشمول واحاطة بمختلف الظروف

وقضية محمود درويش وزميله هى خير مثال على حاجتنا الكاملة الى رفض أصحاب النفسيات المشوهة الذين يريدون أن يحرموا أمتنا من أى بطولة ويستكثروا عليها أن يوجد بينها نموذج انسانى نقى ، أو زهرة ناضرة تنبت فى أى أرض عربية ، فهم ينزعجون من هذا كله ويسارعون الى تشويه كل شىء اذا أتيحت الفرصة لذلك التشويه ، كما أن قضية محمود درويش وزميله سميح القاسم هى فرصة أيضا لمواجهة طريقة التفكير العربى الذى يعتمد على الانفعال السريع لا على المنطق والفهم والاحاطة والشمول .

ونعود بعد ذلك الى أصل القضية التى خلقت هذه العاصفة من الاتهام ضد محمود درويش وزميله .

وتبدأ القضية فى صوفيا ، فى مهرجان الشباب الذى عقد فى صيف ١٩٦٨ ، لقد رفضت ادارة المهرجان اشتراك أى وفد رسمى من اسرائيل فى هذا المهرجان بناء على طلب الوفود العربية المختلفة ، ولأن بلغاريا من ناحية أخرى قد قطعت علاقاتها السياسية باسرائيل بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ . ولكن ادارة المهرجان قبلت أن تشترك اسرائيل بوفد شعبى لا علاقة له بالسلطات الاسرائيلية . وجاء هذا الوفد بالفعل ، وكان مكونا من الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، كما كان معظم أعضاء هذا الوفد من الشباب العربى الذى يكون جناحا خاصا فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، هو « الجناح العربى » .

ونقف هنا لحظة لنتعرف على نوع العلاقة بين العرب

فى الارض المحتلة وبين الحزب الشيوعى الاسرائيلى . فهذا الحزب هو اكثر الاحزاب السياسية اتصالا بالعرب المقيمين فى داخل اسرائيل ، وقد حدث بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ أن انشــق العرب او معظمهم عن الحزب الشيوعى ليكونوا جناحا خاصــا بهم فى هــذا الحزب .

والحقيقة ان العرب لم يرتبطـوا بالحزب الشيوعى الا بعد أن ضاقت بهم الحياة الســياسية فى اسرائيل ، حيث لم يستطيعوا تكوين تنظيم سياسى مستقل خاص بهم فقد رفضت الســلطات الاسرائيلية ـ كما أشرنا فى الفصــل الاول ـ أن تســمح بمثل هــذا التنــظيم السياسى العربى المستقل ، وعندما أقيم تنظيم « الارض » وهو التنظيم الوحيد الذى أنشأه العــرب والتفوا حوله ، قامت السلطات الاسرائيلية بحل هذا التنظيم وتحريمــه تحريما كاملا مما اضطر معظم العرب المشتركين فى هــذا التنظيم الى أن ينضموا للحزب الشيوعى الاسرائيلى ما دام هو الحزب الوحيد الذى يمكن أن يسمح للعرب بالانضمام اليه وبذلك وجد العرب « غطاء شرعيا » لنشاطهم السياسى وتنظيمهم السياسى الممنوع . ومن المعروف أن الجناح العربى فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى يتكون فى معظمه من منظمة « الارض » العربية ، وتحت لواء هذا الجنــاح العربى فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى يعيش الشاعران محمود درويش وسميح القاسم حياتهما السياسية مع عدد كبير غيرهما من الشــعراء العـــرب فى اسرائيل ، ومن خلال ارتبـــاط الشــاعرين بالجناح العربى للحـــزب الشيوعى الاسرائيلى ، خرج الشاعران فى الوفد الشعبى الاسرائيلى الى مهرجان صوفيا . وهذا الجناح العـــربى للحزب الشيوعى فى الارض المحتلة يقوده شـــخصيتان

عربيتان هما « اميل حبيبي » و « توفيق طوبي » كما يشترك بعض اليهود بنسبة ضئيلة في هذا الحزب ، وعلى رأس هؤلاء اليهود المنضمين الى الجناح العربي للحزب الشيوعي في اسرائيل « فيلنر » الذي أدلى في ٩ يوليو سنة ١٩٦٩ بتصريح مشهور قال فيه :

« ان رجال المقاومة الفلسطينية يشنون كفاحا عادلا في جهودهم لتحرير الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل ، ومن الطبيعي أن تعمد أمة تقع أجزاء منها تحت يد الاحتلال الى مقاومة الاحتلال ، واذا كانت منظمة فتح تكافح لتحرير الاراضي المحتلة فان كفاحها يكون كفاحا عادلا »

ولا يمكن لاى تفكير سليم أن يرفض ارتباط محمود درويش وزملاءه بالحزب الشيوعي الاسرائيلي ، ما دام هذا الحزب ـ كما أشرنا ـ هو الحزب الوحيد الذي يفسح للعرب فرصة الانضمام اليه بسهولة ، ومادام تنظيم « الارض » العربي ممنوعا من السلطات الاسرائيلية ، ومادام العرب بانضمامهم الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي يستطيعون أن يجدوا فرصة للحركة السياسية بالنسبة لقضيتهم مهما كانت هذه الفرصة ضيقة ومحدودة .. مادام هذا كله صحيحا فلا معنى للاعتراض على انضمام محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء والكتاب العرب الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي . ومن الواضح تماما أن انضمام هذا العدد من المثقفين والفنانين العرب الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي لم يطمس أبدا وعيهم بقضيتهم العربية القومية الخاصة ، وهاهم أخيرا ينشقون عن الحزب ويكونون جناحا خاصا بهم مع نسبة قليلة من اليهود ، ويكفي أن نقرأ هنا ما كتبه أحد المثقفين والثوريين العرب في داخل الارض المحتلة ، وهو صبري جريس المحامي ،

وذلك فى كتابه المعروف عن « العرب فى اسرائيل » ... حيث يقول عن الحزب الشيوعي الاسرائيلى : « لقد لعب الحزب الشيوعي الاسرائيلى دورا فريدا فى نوعه فى التاريخ السياسى لعرب اسرائيل ... فباتخاذ هذا الحزب جانب المعارضة بعد وقت قصير من قيام الدولة ، أصبح المدافع الرئيسى عن حقوق العرب فى البلاد ، فلقد استولى الحزب على زمام المبادرة فيما يتعلق بكل النشاطات السياسية والاجتماعية التى ابدتها المعارضة العربية تجاه سياسة الاضطهاد التى اتبعتها حكومات اسرائيل المختلفة تجاه العرب خاصة فى فترة سنوات الفوضى الثلاث او الاربع بعد قيام اسرائيل . ولقد استعان الحزب ايضا بأوساط عربية مختلفة اضطرت لعدم وجود سبيل آخر وبقصد مجابهة مؤامرات السلطات للتعاون مع هذا الحزب غير ان نصيب الاسد من هذا النشاط نظمته ونفذته مؤسسات هذا الحزب الخاصة كما ان صحف الحزب الشيوعى ، خاصة الناطقة بالعربية تعبر بصدق عن مشاكل عرب اسرائيل »

ويواصل صبرى جريس حديثه عن الحزب الشيوعى الاسرائيلى فيقول : « ومما لا شك فيه ان الحزب الشيوعى وصل الى أعلى مراتب تأثيره بين العرب فى اسرائيل عام ١٩٥٨ ذلك انه فى تلك الفترة أيدت الشيوعية الدولية تأييدا كاملا الحركة القومية العربية التى انتصبت فى ذلك الوقت لتكافح الاستعمار الغربى وعملاءه فى الشرق الاوسط وخاصة بعد اقامة الجمهورية العربية المتحدة « وحدة سوريا ومصر » ففى تلك الفترة رفع الحزب الشيوعي الاسرائيلى أغلب شعارات الحركة القومية العربية بما فى ذلك حق تقرير المصير

لعرب اسرائيل حتى الانفصال » ويواصل صبرى جريس حديثه فيقول : « ان هناك أسبابا خارجية أدت الى تغيير الصورة تغييرا جذريا والى قلب الامور رأسا على عقب ... ففى تلك الفترة غيرت الاحزاب الشيوعية فى البلاد العربية موقفها من الحركة القومية العربية وخاصة الشيوعيين السوريين ، برئاسة خالد بكداش الذين بدأوا نشاطهم ضد الجمهورية العربية المتحدة مما أدى الى شقاق بين الطرفين ... هذا الوضع الجديد أدى فى الحال الى تغيير فى موقف عرب اسرائيل ، وهكذا بدأ أكثر القادة العرب والجماهير العربية يتركون الحزب والتعاون السياسى معه » من هذا الموقف الذى يشرحه صبرى جريس يتضح لنا ان العرب فى داخل اسرائيل يضعون قضيتهم العربية القومية فوق كل اعتبار ، وهم اذا انضموا الى الحزب الشيوعي الاسرائيلى فانما يفعلون ذلك من أجل خدمة هذه القضية والدفاع عنها ، واذا اختلفوا مع الشيوعيين حول هذه القضية فانهم ينسحبون من الحزب كما حدث عام ١٩٥٩ أو يكونون جناحا مستقلا لهم كما حدث عام ١٩٦٧ عندما وجدوا أن نضالهم يجب أن يكون أشمل وأوسع مدى وأقل قيودا فى المرحلة التى تلت عدوان يونيو عام ١٩٦٧

هذه الحقائق كلها تكشف لنا عن طبيعة الظروف السياسية التى تحيط بالعرب والتى تفرض عليهم التعاون مع الحزب الشيوعى فى سبيل خدمة قضيتهم القومية ، وهذا هو الوضع السياسى الذى يعيش فى ظله محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء العرب الشبان فى الارض المحتلة . فهم لا يستطيعون الحركة الا فى اطار « شرعية سياسية » لا تتوفر لهم

الا تحت حماية الحزب الشيوعى الاسرائيلى بصورة أو بأخرى ..

وفى ظل هــذا الارتبــاط بالجناح العربى للحزب الشيوعى الاسرائيلى خرج الشــاعران الى صــوفيا للاشتراك فى مهرجان الشباب ، وكان هدفهما كما قالا لعدد من الشبان العرب الذين اتصلوا بهما هو ان يتعرفا على غيرهما من الشباب العربى ، وأن يتصلا بشباب العالم ، ليشرحا قضية العرب ويلفتا النظر اليها وليس من المعقول أن يطلب من الشاعرين أن يظلا داخل أسوار اسرائيل اذا ما أتيحت لهما مثل هذه الفرصة ليخرجا الى العالم ، ففى هذا الخروج مزيد من التجربة بالنسبة لمحمود درويش وزملائه ، كما انه فرصة واضحة لخدمة القضية العــربية الفلسطينية من خلال هذا المهرجان العالمى .

وتتركز التهم بعد ذلك فى ان محمود درويش وزميله كانا يسيران وراء العلم الاسرائيلى ويحملان « باسبورا » اسرائيلياً أو تذكرة مرور آسرائيلية « ليسيه باسيه » وفى مجال الرد على هذا الاتهام ينبغى أن نسأل : ماذا يحدث لو رفض الشاعران أن يسيرا وراء العلم الاسرائيلى؟

.. آلاجابة ببساطة هى أن الشاعرين سوف يمنعان من دخول اسرائيل بعد ذلك ، وكان عليهما فى هذه الحالة أن يلجآ الى احدى العواصم العربية ، ولا شــك ان أى عاصمة عربية سترحب بمحمود درويش وزميله ، لأنهـا تعرف قيمتهما ، وتعرف نضالهما وتعرف ان كل حرف يكتبانه هو من اجل فلسطين وحريتها ومن أجل شعبها العربى ، وتعرف أيضا ان الشاعرين قد « تخرجا » فى سجون اسرائيل ، وانهما تعرضا بكثرة للاضــــطهاد

السياسى والادبى والجسدى من السلطات الاسرائيلية .

كان من الممكن أن يجىء محمود درويش وسميح القاسم الى القاهرة أو يذهبا الى بيروت أو دمشق أو الى أى عاصمة عربية أخرى وسوف يلقيان بلا شك كل ترحيب وتقدير .

ولكن ماذا تكون قيمة هذا التصرف من جانب الشاعرين ؟.. هل خروجهما من اسرائيل فى مصلحة القضية العربية أو انه فى مصلحة اسرائيل ؟.. ان هذين الشاعرين هما فى طليعة العناصر القيادية لثلاثمائة الف عربى ما زالوا يقيمون حتى اليوم داخل أسوار اسرائيل . فماذا تكون النتيجة لو تخلى هذان الشاعران عن أرض المعركة الاصلية ؟ .. هل يكون خروجهما من إسرائيل ، حيث يقيمان الان ، نوعا من الكفاح والنضال أو أنه فى حقيقته نوع من الهروب ؟ .. ان أى تفكير سليم يقول ان خروج الشاعرين من اسرائيل هو خسارة كبيرة للقضية العربية ، وأضعاف العرب الذين يقيمون فى قلب المأساة الحقيقية ويدافعون عن البقية الباقية من الارض العربية فى داخل اسرائيل ، وخروج الشاعرين من اسرائيل فيه راحة شخصية لهما وسلام وطمانينة ، ولكن بقاءهما هناك حيث يتعرضان بين يوم وآخر للاضطهاد المستمر ، ويقاومان ويكتبان أشعارهما من واقع المأساة نفسها .. هذا البقاء وسط النيران الملتهبة هو النضال الحقيقى الذى من اجله احتل محمود درويش وزملاؤه مكانتهم فى قلوبنا وفى تاريخنا السياسى والادبى .

وخروج محمود درويش وزميله من اسرائيل ، هو من ناحية أخرى ، هدف تسعى اليه اسرائيل نفسها ، انها

تغرى العرب هناك بالخروج والهجرة ، وترهبهم اذا فقد الاغراء جدواه فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، وخاصة اذا كان هؤلاء العرب من العناصر القيادية مثل محمود درويش • ان اسرائيل تبذل كل جهـــدها للتخلص من الثلاثمائة ألف عربى الباقين فى أسرائيل ، وللقضــــاء على وجــــودهم بصورة نهــــائية ، فهذا الوجــــود العربى داخل أسرائيل هو نقطة الانطــلاق بالنســـبة للمستقبل العربى ، انه البذرة الخصبة التى ســوف تثمر فى المستقبل حرية لـكل الارض العربية الفلسطينية

ولـكل الشعب العربى الفلســـطينى . والســـلطات الاسرائيلية تسعى بكل جهدها لـكى تقضى على هــذه البذرة العربية ، حتى لا تثمر فى المستقبل أى نوع من الثمار . وحتى ينتهى الخطر الذى يهدد المســـتقبل الاسرائيلى ، وفى هذا المجال يكفى أن نتذكر ذلك التصريح الذى أدلى به أحد كبار الموظفين الاسرائيليين والذى أشرنا اليه فى الفصل الاول ، حيث يقول هذا الموظف الاسرائيلى عن العرب فى اسرائيل :

« يجب تضييق خطواتهم ، وأخـذ الاراضى منهم ، واذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعة يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس ســنوات ، وأن يقع فريسة اليأس ويدرك الا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر » . هذه هى السياسة الاسرائيلية ازاء العرب كما يعبر عنها موظف أسرائيلى مسئول .

فهل يخرج محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من اسرائيل ؟.. أليس خروجهما مســاعدة للســلطات الاسرائيلية على تحقيق اهدافها وتطبيق سياستها نحــو العرب ؟ •• ان اسرائيل مستعدة أن تقــــدم جميع

التسهيلات والمساعدات حتى يخرج منها شاعران لامعان مثل محمود درويش وسميح القاسم ، يرفعان صوت العرب فى الارض المحتلة عاليا ويعبران عن مشاكل هؤلاء العرب تعبيرا أمينا وصادقا وثوريا ، ويجسدان لاول مرة وبصورة رائعة امام العالم وجود العرب فى الارض الفلسطينية المحتلة ، بعد أن كان هذا الوجود معنى غامضا لا تجسيد له .

وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة معروفة فى التاريخ الادبى العالمى وهى قصة غزو نابليون لألمانيا فى القرن الماضى ، لقد دخل نابليون « ويمار » احدى الامارات الالمانية ، حيث كان يقيم الاديب الالمانى الكبير «جيته».

وكان باستطاعة « جيته » أن يهرب من « ويمار » ومن وجه نابليون الذى احتل بلاده وغزاها ، وكان باستطاعة « جيته » أن يجد حياة مناسبة واستقبالا رائعا لو أنه هرب الى انجلترا مثلا وهى عدوة نابليون الاولى ، ولكنه رفض ذلك رفضا كاملا وفضل البقاء فى بلده المهزوم ، بل لقد التقى بنابليون الغازى والمحتل لبلاده . ومع ذلك لم يقل أحد عن « جيته » انه خان بلاده بلقائه مع نابليون ، وانه عاون الاحتلال الفرنسى لانه رضى أن يبقى فى وطنه فى ظل هذا الاحتلال . ولا شك ان « جيته » قد شاهد العلم الفرنسى يرفرف فوق كل مكان فى بلاده ، ولا شك أنه التقى بنابليون فى مكان ارتفعت فوقه الراية الفرنسية لا الالمانية .. ومع ذلك لم يكتب عنه احد انه خائن لالمانيا وعميل للفرنسيين ، وذلك لان موقف « جيته » اتيح له أن يجد الذين ينظرون اليه بالعقل والتفكير المنطقى السليم لا من ينظرون اليه بالانفعال السريع المتشنج . القضية كلها واضحة تمام الوضوح امام

الشاعر محمود درويش وزملائه • فيكفى أن نقرأ شعر محمود وشعر زملائه بشيء من الفهم والوعي حتى نجد ان موضوع « التمسك بالارض الفلسطينية » والبقاء فوق التراب الفلسطيني هو موضوع أساسي وعزيز عنــــد هؤلاء الشعراء الى ابعد الحدود • انهم يتمسكون ببقائهم فوق هـــــذه الارض ، حتى ولو فرضت عليهم الظروف القاسية آن يحملوا « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية وان يمشوا وراء العلم الاسرائيلي • فهذا كله أهون عليهم من أن يتركوا الارض العربية للاسرائيليين ويرحلوا عنها •

فمحمود درويش عندما يتحدث عن حبيبته يقول :

فلسطينية كانت ولم تزل •

فهو يعتز بحبيبته لأنها متمسكة بأرضها متمســـــكة بصفتها الفلسطينية ، ولم تتخل عنها لترحل الى أرض أخرى ، وحتى لو كانت أرضا عربية قريبـــة وشقيقة لأرض فلسطين . ومحمود درويش عندما يحدثنا عن شخصية الأب فى شعره فهو يؤكد لنا ان شخصية الأب تجد رسالتها فى منع أولاده من الهجرة ، وفى دعوتهم للبقاء ... ففى قصيدته «أبى» يقول محمود درويش :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحضن التراب
وصلى • • •
لسماء بلا مطر
ونهانى عن السفر
• • • • • • •
وأبى قال مرة
حين صلى على حجر !

فغض طرفا عن القمر
واحذر البحر . . . والسفر

. . . . . .
. . . . . .

وابى قال مرة
الذى ما له وطن
ما له فى الثرى ضريح

. . . . . .

ونهانى عن السفر

والتمسك بالارض والحرص عليها نغمة أساسية فى شعر محمود درويش ، فهو يقول عن وطنه وأرضه :

وطنى ليس قصة أو نشيدا
ليس ضوءا على سوالف فله
هذه الارض جلد عظمى ٠٠ وقلبى
فوق اعشابها يعيش كنحلة ٠٠

وهو يقول أيضا فى قصيدة أخرى :

يا صخرة صلى عليها والدى ، لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلىء ٠٠٠ لن أسافر
لن أسافر ٠٠٠ لن أسافر

فمحمود درويش هو « شاعر الارض المحتلة » ، شاعر التمسك بالارض ، شاعر العشق لكل أعشابها وصخورها ، شاعر الاظافر المغروسة فى التراب حرصا عليه وايمانا به وتمسكا بكل ذرة فيه ٠٠٠ انه ابن هذه الارض ، وقصائده تنبت فوقها كما ينبت الزيتون ، ومشاعره كلها ، وعقائده كلها مرتبطة كل الارتباط بهذه الارض ٠٠ فكيف يتركها للعدو ، وكيف يرحل عنها وهو يغنى لها بكل هذا الحب والعمق ، والولع والعشق الصوفى الاصيل ٠٠ اننا لا نكاد

نجد شاعرا غنى للارض الفلسطينية مثلما غنى لها محمود درويش .. انه شاعر هذه الارض المحتلة التى تريد أن تتحرر .. والتى ينبض كل حرف من قصـــائده بدعوة التمسك بها وتحريرها فى آن واحد .

على أننا نجد عند سميح القاسم زميل محمود درويش وصديقه صدى لتلك النغمة .. نغمة التمســك بالارض الفلسطينية والبقاء والاستمرار فوقها ، وان كان الاهتمام بالارض قد بلغ ذروته الفنية والفكرية عند محمود درويش بالذات ، حيث يهتم سميح بقضايا أخرى مختلفة وحيث تتفجر موهبته اللامعة مع قضايا أخرى أرجو أن أشير اليها فى دراسة مستقلة . ومع ذلك كله ففى شـــعر سميح القاسم تعبير واضح عن التمسك بالارض ، ففى الهجرة من هذه الارض تبدأ الكارثة العامة ، ولقد كان خــروج العرب عام ١٩٤٨ أمام الارهاب الاسرائيلى عنصرا من أكبر العناصر التى خلقت المأساة الفلسطينية فى البداية

واحب قبــل أن نقف مع شعر سميح القاسم وهو يعبر عن تمسكه بالارض مهما كانت العواصف والزوابع، أن نقرأ هـــذه الكلمة التى كتبهـــا سميح عام ١٩٦٥ ونشرتها احدى الصحف الاسرائيلية ، وكانت هـــذه الرسالة تعليقا على ديوان ســـميح الثـــانى « أغانى الدروب » .. يقول سميح فى كلمته :

« أصدرت فى الآونة الاخيرة مجموعة شـــعرية عن حياة العرب فى اسرائيل وعن النضال فى سبيل الحرية عامة . وكنت أتوقع ان قصائدى هذه ستحدث رد فعل منعكسا لدى فريق من القراء : تقدميين ورجعيين وقد صدق ظنى . اذ راحت بعض الصحف اليومية تحذر القارىء اليهودى من تلاوة قصـــائدى التى تدعو الى

الكراهية والثورة . وكان من جراء ذلك أن سرحت من عملي في التعليم ... ولكنني لا أرهب أحدا » . هذه هي نفسية الشاعر سميح القاسم ، وهذه مواقفه ، ومع ذلك تتهمه بعض الصحف العربية في كرامته الوطنية لأنه خرج الى مهرجان عالمي وهو يحمل « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية ويمشي وراء العلم الاسرائيلي .

أما شعر سميح القاسم ، ودعوته الصريحة القوية الى التمسك بالبقاء في أرض فلسطين فتبدو لنا بوضوح في قصيدته التي جعل عنوانها « اليك هناك حيث تموت » وهي رد على رسالة كتبها اليه صديق فلسطيني من أصدقاء طفولته يعيش في بيروت ، وفي هذه الرسالة يدعو الصديق سميح الى أن يترك ما يعانيه من هم وشقاء ويسافر ليعيش معه في بيروت حيث الراحة والطمأنينة والبعد عن مشاكل الاحتلال الاسرائيلي . ويرد سميح القاسم على هذه الرسالة في قصيدته الممتازة ، وهو يقول أولا على لسان صاحب الرسالة :

أخي الغالي !
لماذا أنت لا تأتي الى بيروت ؟
وتترك جرحك الممقوت !
وتهجر وجهك المغموس في الوحل
وتنسى عيشة الذل
فحقلك لم يكن أرحب من حقلي
وبيتك لم يكن أجمل من بيتي
لماذا انت لا تأتي ؟

وفي فقرة سابقة على هذه الفقرة في نفس القصيدة يصور له هذا الصديق مغريات الحياة بعيدا عن الشقاء

فى ظل الاحتلال الاسرائيلى ، فيقول :

أنا أصبحت انسانا جديدا ..
غير ما تعهد
ختمت دراستى العليا ... ونلت
شهادة المعهد ...
واصبح مكتبى اكبر
وصار اسمى هنا أشهر
ولى صاحبة شقراء ... جدتها ...
فرنسية
واخرى جدها قاد الفتوحات
الصليبية
ومثل بقية الاسياد
تربض فى فناء الدار .. فارهة
خصوصية !

ولكن سميح القاسم رغم كل هذه الاغراءات يرد على صديقه فيقول فى نفس القصيدة :

اليك هناك فى بيروت
اليك هناك حيث تموت
كزنبقة بلا جذر
كنهر ضيع المنبع
كأغنية بلا مطلع
كعاصفة بلا عمر
اليك هناك حيث تموت كالشمس
الخريفية
بأكفان حريرية
اليك هناك .. يا جرحى ويا عارى
ويا ساكب ماء الوجه فى نارى

اليك اليك من قلبى المقاوم جائعا
عارى ..
تحياتى وأشواقى
ولعنة بيتك الباقى !

وهكذا يرفض سميح القاسم ، ويرفض محمود درويش أن يتركا أرضهما مهما كانت الاغراءات ، فالكفاح الحقيقى هو البقاء فوق الارض الفلسطينية ... ومن أجل هذا الهدف العزيز ، ومن أجل مستقبل جديد ، يحتمل سميح ومحمود وزملاؤهما بعض القيود وكل القيود ... ومن بينها أن يحملا « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية ويسيرا وراء العلم الاسرائيلى .. فهم أصحاب الارض ، وأصحاب القضية العادلة رغم راية الاحتلال . ان جوهر النضال هو الباقى وليس الشكليات . وما أغلى نضال محمود درويش وزملائه من أجل البقاء فوق أرض تهددهم فيها مسدسات وسجون ومحاربة قاسية فى الرزق واغتيالات . ولكنهم مع ذلك باقون بعد ان عرفوا ان مسألة المسائل بالنسبة للعربى الفلسطينى هى البقاء فى أحضان أرضه وزيتونه وأشواكه ، وليس الهروب الى الراحة والطمأنينة والتماس البعد عن الخطر ارضاء لاصحاب المظاهر والشكليات والنضال بالصخب الاجوف والشعارات .

ماذا نتعلم منه
ومن رفاقه ؟

كانت طلقات الرصاص وانفجارات القنابل والالغام فى داخل فلسطين المحتلة هى البـــداية الصحيحة التى ايقظت الامل فى نفوس المواطنـــين العرب بعــد الهزيمة المادية والمعنوية التى حلت بالوطن العربى فى ٥ يونيــو عام ١٩٦٧ . ان ظهور شخصيـــة الفدائى العربى على سطح الاحداث هو الذى اشعل الشموع التى انطفـأت فى نفوسنا بعد ٥ يونيو فامتلأت أرواحنا بالظلام · ولا شك ان ظهور شخصـــية الفـــدائى العربى بهذه القوة يعتبر نقطة تحول واضحة ودقيقة فى النفسية العربية ، وخلاصة هذا التحول هو الانتقال من اليأس الى الامل ، وعودة ذكريات النضـــال العربى المنتصر الى ضمـــائر العرب ، فقد بدأنا نحس ان نفس الشرارة التىاشتعلت فى جبال الاوراس بالجزائر وانتهت بالنصر قـــد عادت لتشتعل فى فلسطين وتبدأ رحلة صعبة وطويلة ولكنها مليئة بالامل .

هذا الذى حدث للنفسية العربية بعد ظهورالفدائى، حدث ايضا فى الشـــعر العربى المعاصر ، بعـــد ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة فى فلسطين. وقد ظهر محمود درويش وزملاؤه بوضوح فى الحيـــاة الادبية بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . كانت هناك قبل ذلك

معلومات محدودة عنهم ، وكانت هنـاك نصوص قليلة مبعثرة تظهر بين الحين والحين لهؤلاء الشعراء . كانوا قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ أشبه بحركة الفدائيين نفسها. فالحركة الفدائية كانت حركة محدودة متقطعة ، نسمع صوتها خافتا غير متصـل بين فترة وأخرى ، ولـكن حركة الفدائيين ازدادت قوة وتنظيما بعـد ٥ يونيو .

وكذلك محمود درويش وزملاؤه : لقد ظهروا أمامنا بعد الهزيمة بوضوح أكثر ، وتجمعت أشـعارهم الـكثيرة وأصبحت مثل شلال هادر يتدفق داخل الارض المحتلة وخارجها . وأول ما نلاحظه ، وما سبق تسجيله في الفصول السابقة من هذا الكتاب هو أن محمود درويش وزملاءه لم يفقدوا الامل ولم يفقدوا احساسهم بأن النصر سوف يتحقق • ولقد كان من المنتظر والطبيعى أن يكونوا هم أول اليائسين .. لانهم يعيشون داخل أسوار اسرائيل، وتسلط عليهم السلطات الاسرائيليـة ارهابها المـادى والمعنوى كل يوم ، وهم يعيشون ضمن أقليـة عربية يعاملها الاسرائيليون أسوأ معاملة •

ولكن الذى حدث هو العكس كما أشرنا في فصل سابق : انهم لم يفقدوا الامل ، ولم تتحطم معنوياتهم ، ولم تمتلىء نفوسهم بأى لون من الوان اليأس أو المرارة أو الاحساس بالتشاؤم • آن ما حدث لهؤلاء الشعراء هو نفسه ما حدث للفدائى الفلسطينى ، فلقد كان من المنتظر أيضـا ومن الطبيعى أن يحس الفلسطينى بعد الهزيمة أن كل شيء قد ضاع ، وانه لم يعد أمامه أى أمل على الاقل خـلال عشر سنوات قادمة أو أكثر من ذلك بكثير • ولكن الهزيمة على العكس أعطت الفدائى قوة ومنحته حرارة وحيـوية وحماسا قريبا من الحماس الدينى ، وأصبح الفدائى بعد

الهزيمة يحس أن عليه أن يلعب دور البطولة دفاعا عن اطفاله وأرضه وبيته .

ان الشاعر محمود درويش وهو يقف فى طليعة شعراء المقاومة فى الارض المحتلة يتفجر بالشعر بعد هزيمة ٥ يونيو . وعندما نقرأ هذا الشعر نحس أن الشاعر المناضل لم يفقد ايمانه العميق بأن المعركة مستمرة ، وبأن النصر لابد أن يتحقق فى النهاية لأن القضية العربية قضية عادلة . ان كل بيت من الشعر كتبه محمود درويش بعد ٥ يونيو يثبت أن أكثر الناس تعاسة هم اكثرهم قوة ونضالا ، وان المواطن العربى الذى يتعرض داخل اسوار اسرائيل لاقسى أنواع الاضطهاد هو فى نفس الوقت أكثر المواطنين صلابة واصرارا على النضال .

اننا نتذكر ونحن نقرأ أشعار محمود درويش تلك العبارة الشهيرة التى تقول : « انكم لن تخسروا سوى قيودكم » فهذه العبارة تنطبق بصدق ودقة على المواطن العربى داخل اسرائيل ... فماذا يخسر هذا المواطن من النضال والثورة والتمرد ؟ .. انه يعيش فى ظل ظروف قاسية مريرة حيث نهب الاسرائيليون أرضه وسدوا فى وجهه أبواب العمل والامل .. فما الذى يخشاه هذا المواطن بعد ذلك كله . ان النضال هو الحل الوحيد أمامه ، والمقاومة هى الرؤية الصحيحة الوحيدة لهذا المواطن العربى فى مثل ظروفه القاسية .

ان محمود درويش لا يبكى بعد ٥ يونيو ولا يقول ان كل شىء قد انتهى ولم يبق أمامنا سوى الدموع . انه على العكس يشعر بمزيد من القوة ، ويشعر بأن الهزيمة قد فجرت عاصفة كبيرة سوف تقتلع ما أمامها من

الصعاب والعقبات :

أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ليعطوك صباح
هدموا بيتا لكى نبنى وطن

ويقول محمود درويش أيضا :

علمتنى ضربة الجلاد
ان أمشى على جرحى
وامشى ثم أمشى ... واقاوم

ويقول أيضا :
الموت والميلاد فى وطنى المؤله توأمان

ويقول :
أغمدت فى لحم الظلام هزيمتى
وغرزت فى شعر الضياء أناملى
فاذا احترقت على صليب عبادتى
أصبحت قديسا بزى مقاتل

هذه الابيات التى كتبها محمود درويش بعد هزيمة ٥ يونيو ان دلت على شىء فانما تدل على قوة الاصرار وعمقه فى قلب هذا الشاعر ، وهو نفس الاحساس الذى يملأ نفوس زملائه من شعراء المقاومة الذين يتعرضون لأقسى المحن وأكثرها صعوبة ، ومع ذلك فانهم يمتلئون بروح النضال والتفاؤل والايمان بالمستقبل والاحساس بأن الهزيمة ليست نهائية وانما هى خطوة على طريق النصر الذى لابد منه . وهذه الروح النضالية الاصيلة التى تملأ شعر محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة ، هى التى صورها أحد هؤلاء الشعراء وهو « توفيق زياد » فى قصيدة له عن أدباء المقاومة فى الارض المحتلة عنوانها « عشرون » ، وهو يعنى فى هذا

العنوان تحديد عدد هؤلاء الشعراء والأدباء الذين يمثلون حركة المقاومة فى الادب العربى الفلسطينى داخل الارض المحتلة ، ويتكون من بينهم تجمع أدبى كبير له تأثيره السياسى والنضالى عند الجماهير العربيــة الخاضعة للاحتلال الاسرائيــلى ، وهم فى نفس الوقت يمثلون قوة من قوى المقاومة العربية العنيدة بالنسبة للسلطات الاسرائيلية ، وقد استطاع بعضهم أن يحقق لنفســه سمعة خاصة فى الدوائر الثقــافية فى أوربا ، مثــل محمود درويش وسميح القاسم وراشد حسين ، ولذلك فان السلطات الاسرائيلية تخشى منهم جميعا ، وتفرض عليهم ألوانا من الاضطــهاد ولــكنهــا فى نفس الوقت تخشى كل الخشية من أن تقتل أحدهم أو تفرض عليه النفى خارج البلاد بعد أن أصبحوا قوة ذات صــوت مسموع ومرهوب ، ولا شك ان هؤلاء العشرين يمثلون مشكلة أساسية من مشاكل الســلطات الاسرائيلية لم تجد لها بعــد حلا نهائيــا وهى لا تملك أمامهم أكثر من مصادرة ما يكتبون ، واعتقالهم وتحديد اقامتهم ، وفصلهم من أعمالهم ... ومع ذلك فانتــاجهم الادبى يتسلل الى المواطنين العرب داخــل الارض المحتــلة ويتسلل بعض هذا الانتاج خارج الارض المحتلة ليمثــل تيارا كهربائيا فكريا وفنيا يهز الضمير العربى ويثيره باستمرار .

من هم هؤلاء العشرون ... زملاء محمود درويش ورفاق طريقه فى الفن والنضال ؟ . لقد عرفنا انتــاج بعضهم وقرأناه ولــكننا لم نعرف انتاج الآخرين بعــد ، أما أسماؤهم فقد أصبحت كلها معروفة لنا وهم : محمود درويش ، سميح القاسم ، نايف سليم ، حنا أبو حنا ،

محمود دسوقى ، حبيب قهوجى ، توفيق فيـــاض ، فوزى الاسمر ، سالم جبران ، فهد أبو خضرة ، أحمد حسين ، راشد حسين « وهو الوحيد الذى يقال انه هاجر من اسرائيل لضعف صحته وقسوة ما نزل به من اضطهاد » عصام العباسى ، عطا الله منصور ، ابراهيم مؤيد ، زكى سليم درويش ، جمال قعوار ، أبو اياس ، أحمد يونس ، توفيق زياد .

هؤلاء العشرون يحدثنا عنهم وعن دورهم النضالى وعن صمودهم واصرارهم واحـــد منهم ، هو توفيق زياد فيقول :

كأننا عشرون مستحيل
فى اللد ... فى الرملة ... فى الجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفى حلوقكم كقطعة الزجاج
وفى عيـــونكم
زوبعة من نار

وهو يؤكد انهم سوف يقبلون أشق الاعمال وأقلهـا قيمة ، ولـكنهم لن يتركوا وطنهم ولن يتركوا أقلامهم ولن يتخلوا عن ايمانهم بقضيتهم :

هنا على صدوركم باقون كالجدار
ننظف الصـــــحون فى الحانات
ونملأ الـكؤوس للســـــادات
ونمسح البلاط فى المطابخ السوداء
حتى نسل لقمة الصـــــغار
من بين أنيـــابكم الزرقـــاء
هنا على صدوركم ، باقون كالجدار
نجوع

نعرى
نتحدى
ننشد الاشعار
ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الاطفال . . . جيلا ثائرا
وراء جيل
. . . .
اننا باقون
فلتشربوا البحرا
نحرس ظل التين والزيتون
ونزرع الافكار كالخمير فى العجين
. . . .
اذا عطشنا نعصر الصخرا
ونأكل التراب ان جعنا
ولا نرحل
. . . .
يا جذرنا الحى تشبث
واضربى فى القاع يا أصول

هذه هى الروح التى تسيطر على شعراء المقاومة ، انها روح التمسك بالجذور ، روح الصلابة الثورية والاستشهاد والايمان القوى بعدالة القضية ، روح الاستبسال الحقيقى الصادق ، روح النضال ذى النفس الطويل الذى يحتمل الهزائم ، ولا يستسلم لها ، وانما يقف على قدميه كل مرة ليبدأ من جديد .

والحقيقة ان محمود درويش ورفاقه من شعراء المقاومة وأدبائها يمثلون « ظاهرة نفسية » جديدة لهـا

قيمتها وأهميتها بالنسبة للادب العربى المعــاصر كله ، فهم ليسوا مجرد ظاهرة فنية وحسب ، انهم خميرة نضالية صادقة تنقل عدواها الى الآخرين وتمسهم بقوتها السحرية الاصيلة • والحقيقة أن الشعر العربى المعاصر قد تأثر تأثرا واضحا بهؤلاء الشعراء ، وتعلم منهم الكثير • لقــد ترك هؤلاء الشعراء بصماتهم على الحركة الشعرية العربية المعاصرة ••• وخاصة من الناحية الموضوعية والنفسية •

والحق ان روح المقاومة التى يمثلها الفدائى والشاعر معا سوف تقدم للأمة العربية قوة جديدة تمنحها مزيدا من القدرة على الحركة والانتقال من الموقف الراهن الى موقف آخر أكثر أملا وأكثر اشراقا .

وسوف نقف أمام ثلاثة نماذج يمثل كل منها نوعا من التأثر بشعراء المقاومة . ولولا شعراء المقاومة ... لولا أشعارهم ومواقفهم لما ظهرت هذه النماذج الشعرية الجديدة ذات الدلالة العميقة .

والنموذج الاول تقدمه الشاعرة فدوى طوقان ، وهى الشاعرة الفلسطينية التى ولــدت وعاشت فى نابلس فى الضفة الغربية للاردن ، وقد بقيت الشاعرة فى مدينتها بعد الاحتلال الاسرائيلى ، وعانت ما يعانيه أهــل الضفة الغربية من ظروف الضغط والارهاب • وفــدوى طوقان كانت فى كل شعرها قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ تعبر عن قلب حزين متشائم يائس تملأه دموع غزيرة • وكما أشرت فى فصل سابق من هذا الكتاب كان وراء شعرها الحزين تجربة شخصية وتجربة عامة ، أما التجربة الشخصية فتتمثل فى موت شقيقها الشاعر الكبير ابراهيم طوقان عام ١٩٤١ فى زهرة شبابه ، ثم موت شقيقها نمر بعد ذلك فى حادث طائرة . أما التجــربة العــامة فهى تجربة وطنهــا

فلسطين . فلقد تركت المأساة الفلسطينية فى قلب هذه الشاعرة الحساسة جرحا عميقا ، هو الجرح الذى جعل من شعرها دموعا وأحزانا دائمة ... ولقد كان من المنتظر أن تزيدها أحزان ٥ يونيو حزنا فوق حزن ، ولكن الذى حدث هو العكس ، لقد انطلقت من أعماق الشاعرة الحزينة شرارة نضالية . فقد ذهبت الشاعرة الى يافا بعد عدوان ٥ يونيو ، ولاول مرة ترى هذه المدينة العربية منذ عام ١٩٤٨ ، حينما أقيمت دولة اسرائيل ، واختفت المدن العربية العزيزة واحدة بعد الاخرى خلف الأسوار التى أقامتها اسرائيل . وفى يافا وبعد عدوان ٥ يونيو بعدة شهور التقت فدوى طوقان بالشعراء الشبان الذين يقيمون فى الارض المحتلة ، شعراء المقاومة والنضال ... التقت بمحمود درويش ورفاقه ... وبعد هذا اللقاء كتبت الشاعرة قصيدة بعنوان « لن أبكى » :

على أبواب يافا يا أحبائى
وفى فوضى حطام الدور بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين
قفا نبكى
على أطلال من حلوا وفاتوها
تنادى من بناها الدار
وتنعى من بناها الدار
وكان القلب منسحقا ..

وقال القلب :

ما فعلت
بك الايام يا دار ؟

ولكن الشاعرة رغم كل هذه الاحزان التى هاجمتها

عندما رأت يافا ، قد وجدت فى نفسها أملا جـــــــديدا مشرقا بعد لقائها بهؤلاء الشعراء الشبان الذين يقيمون فى الارض المحتلة ، وانطلقت الشاعرة تقول :

احبائى ...
مسحت عن الجفون ضبابة الدمع الرمادية
لألقاكم وفى عينى نور الحب والايمان
بكم ، بالارض ، بالانسان
فواخجلى لو انى جئت القاكم
وجفنى واعش مبلول
وقلبى يائس مخذول
وهانا يا احبائى هنا معكم
لاقبس منكم جمرة
لآخذ يا مصابيح الدجى من زيتكم قطرة
لمصباحى ، وها انا يا أحبائى
الى يدكم أمد يدى
وعند رؤوسكم ألقى هنا رأسى
وأرفع جبهتى معكم الى الشمس
وها أنتم كصخر جبالنا قوة
وها انتم كزهر بلادنا الحلوة
فكيف الجرح يسحقنى
وكيف اليأس يسحقنى
وكيف أمامكم أبكى
يمينا بعد هذا اليوم لن أبكى

ثم تقول فدوى طوقان فى نفس القصيدة مخاطبة محمود درويش وزملاءه من شعراء المقاومة :

أحبائى ، مصابيح الدجى ، يا اخوتى فى الجرح
ويا سر الخميرة ، يا بذار القمح

يموت هنا ليعطينا
ويعطينا
ويعطينا
على طرقاتكم أمضى
وها أنا بين أعينكم
ألملمها دموع الامس
وأزرع مثلكم قدمى فى وطنى وفى أرضى
وأزرع مثلكم عينى فى درب السنى والشمس

وهكذا ، ولأول مرة على وجه التقريب بين عشرات القصائد التى كتبتها فدوى طوقان خلال ما يقرب من ربع قرن من حياتها الفنية نحس بروح التفاؤل الثورى ، والامل فى الغد ، بعد أن كان شعرها كله حزنا ودمعا وتعبيرا عن نفسية يائسة ممزقة خالية من اى أمل فى المستقبل ، ان الشاعرة فدوى طوقان تجسد فى هذه القصيدة بداية من بدايات التحول الكبير فى نفسية الشعراء العرب ، وهو التحول الذى يعود الفضل الكبير فيه الى ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة فى الارض المحتلة والى تأثيرهم على نفسية المواطنين والشعراء العرب على السواء ٠

أما النموذج الثانى الذى يكشف لنا أثر شعراء المقاومة على غيرهم من الشعراء العرب فيمثله الشاعر الفلسطينى « أبو سلمى » ، وأبو سلمى هو أحد كبار الشعراء الفلسطينيين الذين ينتسبون ـ كما اشرنا من قبل فى فصول سابقة ـ الى جيل الثورة التى اشتعلت على أرض فلسطين عام ١٩٣٦ ٠

وهى الثورة التى تآمرت عليها انجلترا مع الاسرائيليين ومع عدد من السياسيين

الرجعيين من أمثال نورى السعيد ، واشتركت فى هـذه المؤامرة بعض القيادات الفلسطينية التقليدية من أمثال الحاج أمين الحسينى ، ولـكن هذه الثورة مع ذلك كله كانت تمثل أعلى موجة من موجات المقاومة الفلسطينية قبل قيام اسرائيل . وفى ظل هذه الثورة اشتعلت روح المقاومة فى الشعر العربى الفلسطينى ، وهى الروح التى نجدها واضحة فى شعر « أبو سلمى » الذى كتبه فى مرحلة الثورة « ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ » وفى الاعوام القليلة التالية للثورة . على ان « أبو سلمى » بعـد أن رأى المأساة تزحف على وطنه تغير موقفه النفسى ،فبدأ الاسى يملأ وجدانه ، وأصبح شـــعره مليئا بالحزن والبكاء على أرضه وشعبه ، وقد ظل « أبو سلمى » يمثل هـذا الصوت الحزين المتفجع الباكى على اللاجئين فى خيامهم ، وعلى المدن والقرى الفلسطينيـة التى بدأت تغيب عن العين فى ظل الاحتلال الصهيونى ، حيث تغيرت أسماء هذه المدن والقرى بأسماء اسرائيلية ، فقد تحولت يافا الى « يافو » وعكا الى « عكو » وحدثت تغييرات أخرى شاملة لـكل الاسماء العربية الغالية على قلوبنا جميعا ، كذلك تغيرت الملامح العربيـــة للقرى والمدن واكتست بطابع يهودى وامتدت يد الهدم والتغيير الى الشوارع والـكنائس والجوامع .

وقد ظل ابو سلمى يعبر فى شعره عن هـذا الحزن الكبير العميق ، حتى اشتعلت المقاومة فى فلسطين بعـد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وحتى ظهر هؤلاء الشعراء الشبان الذين يمثلون الوجه الثانى من وجوه المقاومة العربية ، حيث يعتمد الوجـــه الاول على القـــوة الفدائية المسلحة .

واستطاع هؤلاء الشبان أن يدفئوا قلب الشاعر الكبير الذى قضى أكثر من ثلاثين عاما يحمل القضية الفلسطينية فى قلبه ، ويضمها بين جناحيه ، وقضى منها ما يقرب من عشرين عاما لا يجد لشاعريته زادا الا الحزن والاسى واليأس . وهكذا امتلأت نفسية « أبو سلمى » بعواطف جديدة ، وآزهرت فيها آمال حارة ، وتغير موقفه الوجدانى من اليأس الى التفاؤل . وها هو يقول فى قصيدة أخيرة له بعنوان «من فلسطين ريشتى» حيث يخاطب شعراء المقاومة الشبان :

شعراء الجليل والشاطىء الغربى
أنتم طلائع الفرسان
شعركم مثلكم خلودا ويسرى
من فلسطين فيه نفح الجنان
زنتم الليل بالحروف نجوما
يا احبـاى فى أحب مكان
تتحدون بالقوافى المدماة
نضالا عصابة الشيطان
طلع الشعر فوق أرضكم الخضراء
غرسا مخضب الاغصان
كل شعر سواه تلوى به الريح
ويطويه عالم النسيان
شعركم وحده يعمق فى الارض
جذور الصمود والعنفوان
شعركم وحده المجلجل فى الساح
رفيق السلاح فى الممعان

وهكذا يعود الامل الى قلب الشاعر الكبير الحزين ، فيحس باقتراب النور والخلاص ، بعد أن كان يحس

بأن الظلام يحيط به وبقضيته من كل جانب ، ولذلك فهو يخاطب الفدائيين والشعراء من ابناء الارض المحتلة فيقول :

عندما تخطرون تزدهر الارض
وتهدى غـــلائل الريحـــان
نحن اسرى وانتم انتم الاحرار
خلف السـجون والقضـــبان

ولـكن الاسير الذى يمثله « أبو سلمى » يتحرر من اسره وينطلق فى عالم كبير من الامل عندما يرى الاسرى الحقيقيين من امثـــال محمود درويش يشعرون بالقوة والامل الـكبير فى الغد ولا يمر عليهم اليأس القاتم الا كما يمر النسيم الهادىء العابر ٠

والنموذج الثالث الذى يمكن أن نقـــدمه فى هـــذا الميدان ، كأثر من آثار محمود درويش وزملائه من شعراء الارض المحتلة وصمودهم الكبير سواء فى مواقفهم ضـــد السلطات الاسرائيلية أو فى أشعارهم الثورية التى تنبض بالامل وبروح النضال الحقيقى ٠٠ هذا النموذج الجديد يمثله الشاعر نزار قبانى الذى أحس بصوت الهزيمة فى ٥ يونيو احساسا مدويا عنيفا ، فانفجر فى عدد من قصائده يصب غضبه على شعبه ، ويحمل فى هذه القصائد سكينا يمزق بها نفسه وقومه معا ، ويحاول أن يضع اصبعه أو سكينه بقسوة على مناطق الداء ويطالب بالقضـــاء عليها ، ولقد كان معظم شعر نزار قبانى قبل النكسة يدور حول المرأة وحول تجارب الشاعر العاطفية بل والحسية أيضا ٠

ولـكن صـــوت الهزيمة أيقظه من احلامه النـــاعمة الهادئة ، فانطلق ليغنى فى شعره بطريقة جديدة وأسلوب جديد ، وكان من أكبر التجارب النفسية والفنية التى

أثرت فى نفسه تجربة لقائه مع شـــعر المقاومة وتأثره بشعراء المقاومة ومواقفهم المختلفة ، لقـــد اهتز نزار قباني من اعماقه أمام هؤلاء الشعراء الشبان المناضلين ، ووقف أمامهم يعطيهم العهد الصـــادق أن يتعلم منهم ويجعلهم مثلاً أعلى لدور الفنان فى حياتنا العربية ، بل واخذ يطالب بصوت مرهف وعنيف بأن يقف كل الشعراء أمام محمود درويش وزملائه ليتعلموا منهم كيف يكون الشعر وكيف يكون الانسان . يقول نزار قبـــانى فى قصيدته الى « شعراء الارض المحتلة » :

شعراء الارض المحتلة
يا أجمل طير يأتينا من ليل الاسر
يا حزنا شفاف العينين ، نقيا مثل صلاة الفجر
يا شجر الورد النابت من أحشاء الجمر
يا مطرا يسقط رغم الظلم ورغم القهر
نتعلم منكم كيف يغنى الغارق من أعماق البئر
نتعلم كيف يسير على قدميه القبر
نتعلم كيف يكون الشعر

وفى فقرة سابقة على هذه الفقرة يقول نزار :

نتعلم منكم منذ سنين
نحن الشعراء المهزومين
نحن الغرباء عن التاريخ وعن احزان المحزونين
لنتعلم كيف الحرف يكون له شكل السكين

اذن فقد استطاع شـــعراء المقاومة ان يخلقوا نغمة نفسية جديدة فى أعمـــاق الشاعر العربى خارج الارض المحتلة ، وهذه النغمة الجديدة هى الخروج من الحزن والبكاء كما خرجت فدوى من عالمها الباكى الحزين على يد شعراء المقاومة ، لتنضم الى موكبهم الصامد المملوء

بالامل والتفاؤل والاصرار على النضال • وهـــذه النغمة النفسية الجديدة هي نغمة العودة الى التفتح والانطلاق وروح النضال عند شاعر مثل « أبو سلمي » ... لقد أعاده هؤلاء الشعراء الشبان الى روح ثورة عام ١٩٣٦، وهي روح المقاومة والاصرار لا روح الحزن والاستسلام.. لقد عاد أبو سلمي الى حرارة شبابه ، بعد أن كان قد يئس وسلم وجدانه لأحاســـيس المشرد الضـــائع . والنغمة النفسية الجديدة أيضا هى الخروج من التجارب الذاتية الناعمة التي كانت محور قصائد نزار قباني في معظمها ، ثم هذا الوعد الذى يقدمه نزار بالالتزام فى الموقف الشعرى ... الالتزام بالقضيـــة العربية حتى النصر ، فهي وحدها منبع الشعر ومصدر الهامه عند نزار منذ ٥ يونيو الى اليوم .

هكذا .. لقد أعاد الفدائي الامل الى النفس العربية وانتقل بنا الى عالم جديد وموقف جديد من الحياة : ليس فيه يأس ولا بكاء بل فيه أمل وتفاؤل ونظرة الى الامام • ان يد الشاعر فى الارض المحتلة تمسح على نفوس الشعراء خارج هـذه الارض لتمحو آثار الهزيمة المعنوية التى ملأت نفوسهم بعد ٥ يونيو

وهكذا فالجريح الآن هو الذى يعطينا الدواء ويقدم الينا العلاج الروحي ، لأن نفسه رغم الجرح أقوى من نفوسنا وأشد عزما واصرارا من الجميع .

كلمة أخيرة

بعد هذه الرحلة مع محمود درويش وفنه نستطيع أن نخرج بمجموعة من الملامح الرئيسية التي يتكون منها فن هذا الشاعر ووجدانه . وان كنت أشعر أن من الصعب أن يقول النقد كلمة نهائية فى فن محمود درويش وذلك لانه ما زال شابا أمامه فرصة واسعة للتطور الفنى ، رغم أنه ، وهو فى السابعة والعشرين ، قد قدم الينا انتاجا فنيـــا غزيرا يسمح لنا بدراسته والوقوف أمامه كشــــخصية واضحة المعالم وعلى درجة كبيرة من النضج والعمق والحرارة

وخلاصة ما يمكن أن نقوله بعد هذه الرحلة مع محمود درويش ومن خلال المجموعات الشعرية التى أصدرها حتى الآن هو أنه تأثر فى تكوينه الفنى والفكرى بعدة عوامل منها :

أولا : العقيدة الاشتراكية التى خلقت فيه نزعة انسانية عميقـــة ، وفتحت أمامه افاقا واسعة يطل منها على ثورة الانسان المعاصر ضد الظلم والاستغلال ... لقد ساعدته هذه العقيدة الاشتراكية على النضج المبكر والتفتح والفهم الصحيح لمشاكل الانسان والمجتمع

ثانيا : عقيدته القومية ... فهو عربى مؤمن بعروبته كل ذلك فى غير ما تعصب أو استعلاء أو محاولة للرد على المأساة التى يعيشها العرب فى فلسطين بأفكار عنصرية

مليئة بالحقد والكراهية للشعوب الاخرى ··· انه عربى انساني يطلب العدل والخلاص من الظلم والقضاء على الاستغلال

ثالثا : شعر محمود درويش ليس وليد التأمل الشخصى والحجرات المغلقة ، فهو شاعر مرتبط بالناس .. بمشاكلهم وقضاياهم ، وكثيرا ما ألقى قصائده على الجماهير ، وأحس دائما أن الكلمة لا معنى لها « اذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت » ، فشعره كله يحمل نبضا صادقا هو ثمرة الاتصال بالناس والمحبة الغامرة لهم والمشاركة الصادقة غير المفتعلة لآلامهم وظروفهم المختلفة التى هى آلام محمود درويش وظروفه في نفس الوقت

رابعا : من ناحية الثقافة الفنية استطاع محمود درويش أن يكون نفسه تكوينا ثقافيا ممتازا ومتكاملا ، فمحمود درويش وثيق الصلة بالثقافة العربية القديمة ، ووثيق الصلة بالثقافة العربية المعاصرة ، يتابعها بأمانة ودأب ويتأثر بتياراتها المختلفة ، ولذلك لا يبدو محمود درويش ظاهرة منفصلة عن التطورات الادبية العربية ··· بل نجد أنه قد تأثر بحركة الشعر الجديد واستفاد منها فائدة واسعة وأضاف اليها فى نفس الوقت اضافات حقيقية . أما ثقافته العامة فقد امتدت الى الادب العالمى عن طريق اللغة الانجليزية واللغة العبرية التى يجيدها محمود درويش ويقرأ بها مايترجمه الاسرائيليون من الادب العالمى .

واذا كانت هذه هى العوامل الرئيسية التى أثرت فى شخصية محمود درويش الفنية بالاضافة الى « عامل العوامل كلها والذى يتجسد فى المأساة الفلسطينية نفسها ··· فمحمود هو تلميذ هذه المأساة ، وابنها ، وشاعرها ، ومغنيها الكبير ··· بالاضافة الى هذه العوامل كلها فاننا نلتقى فى شعره بملامح أخرى لنفسيته وموقفه الفكرى ، فهو شاعر « التفاؤل الثورى » بكل معنى الكلمة

... انه يؤمن ايمانا « صوفيا » بعدالة قضية وضرورة انتصار هذه القضية ، ولا يعبر فى شعره عن يأس أو روح عدمية قاتمة ، وكثيرا ما يترك الواقع ويرفرف بجناحيه فى عالم الاحلام .. ذلك لانه يعيش فى حلم كبير متوهج هو حلم النصر الكامل للقضية المظلومة التى يعبر عنها .

وهو شاعر الارض ... يتمسك بها ، بأعشابهـــا وصخورها وتراثها وترابها الى أبعد الحدود ... وقضية ارتباطه بالارض تبدو قضية مقدسة عنده ... فهو يلح الحاحا وجدانيا عميقا على نغمة التمسك بالارض ومن هنا استحق ـ فيما أتصور ـ أن نسميه « شـــاعر الارض المحتلة » ... لانه يغنى دائما لهذه الارض ويتمسك بهــا ويحنو عليها :

يا نوح
لا ترحل بنا
ان الممات هنا سلامة
انا جذور لا تعيش بغير أرض
ولتكن أرضى قيامة !

وهو شاعر « الحنـــان » و « الاسرة الممزقة » ... ان قلبه ملىء بالحنان الغامر الدافىء ، يحـــاول أن يجمع بين جناحى قصائده كل ما تبعثر وتمزق من أسرته التى هى نموذج لشعبه أيضا ، والاسرة تحتل فى شـــعره مكانا بارزا ... الاب والام والاخت والجد ... أنه يعبر عن الاسرة بالحب العميق واللهفة الصادقة ، والحنان الحقيقى الاصيل ... ذلك لان جرح وطنه قد أصاب الاسرة فى بلاده فمزقها وفرقها وابعد الام عن طفلها والاب عن زوجته وأولاده ... وهكذا .

ان حنان محمود درويش ، نحو شعبه واهله ، ونحـو

أسرته على وجه الخصوص هو عاطفة أساسية تحس بهـــا كالتيار المتدفق الجارف فى داخل شعره ••• انه يقول عن أخته :

حرير شوك أيامى على دربى الى غدها
حرير شوك أيامى
وأشهى من عصير المجد ما ألقى لاسعدها
وأنسى فى طفولتها عذاب طفولتى الدامى
وأشرب كالعصافير الرضا والحب من يدها

ويقول عن أمه بنفس الحنان والحب والحرارة :

أحن الى خبز أمى
وقهوة أمى
ولمسة أمى
وتكبر فى الطفولة
يوما على صدر يوم
وأعشق عمرى لانى
اذا مت
أخجل من دمع أمى

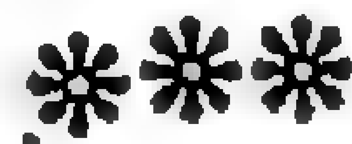
انه حنان صادق وحقيقى ، يكشف لنا مدى ما يحمله قلب الشاعر من عاطفة أصيلة تهدف الى تجميع شعبه المشرد من جديد ••• بحيث تعود الاسرة العربية والبيت العربى الى الحياة الســـــعيدة التى يلتقى فيها الاب والام والابن والاخت ... وبحيث ترفرف تلك العاطفة الحنون التى تملأ الاسرة على كل مكان ••• وبحيث ترتوى هذه العاطفة الصادقة الاصيلة التى مزقها اليهود !

ان محمود درويش صاحب شـــــاعرية خصبة وعاطفة عميقة وقلب كبير ونظرة انسانية مليئة بالحب للآخرين •• ولا شك أن ما حققه هذا الشاعر حتى الان على قيمته ونبله ـ انما يبشر ايضا بالكثير الذى يمكن أن يحققه فى المستقبل

وأخيرا ... أحب هنا أن أشير الى بعض المراجع الرئيسية التى أفادتنى فائدة كبيرة فى هذا البحث ... هناك دراسات الاستاذ غسان كنفانى القيمة عن أدب المقاومة ، ثم « ديوان الارض المحتلة » الذى أصدره الشاعر الاستاذ يوسف الخطيب وجمع فيه نسبة كبيرة من نصوص الشعر فى الارض المحتلة كما قدم له بمقدمة شاملة وممتازة ، وهناك الدراسات التى قدمها مركز الابحاث الفلسطينية الذى يرأسه العالم العربى اللامع الدكتور أنيس صايغ ، ان هذه الدراسات هي دليل ثقافي وافر الغنى والخصوبة لاى باحث فى القضية الفلسطينية من جوانبها السياسية أو الفكرية أو الفنية . وأذكر هنا على وجه الخصوص كتاب « العرب فى اسرائيل » للمحامى العربى المقيم فى الارض المحتلة : صبرى جريس . وقد أصدره مركز الابحاث منذ أكثر من سنتين . وأحب أن أشير أيضا الى كتاب « العرب فى الارض المحتلة » للاستاذ ربحى كمال . كل هذه كانت مراجع ممتازة فادتنى وساعدتنى فى اعداد هذا البحث عن محمود درويش .

***

ولنتذكر فى النهاية أن محمود درويش ليس مجرد شاعر كبير وانما هو مناضل كبير أيضا ، ولذلك فان أى دراسة له كان يجب أن تمتد الى معرفة بظروف الارض المحتلة وشعبها العربى ... ولعل خير ما يصور محمود درويش ، ذلك الشاعر المناضل الانسان ، فى كلمات قصيرة وصادقة هو قوله :



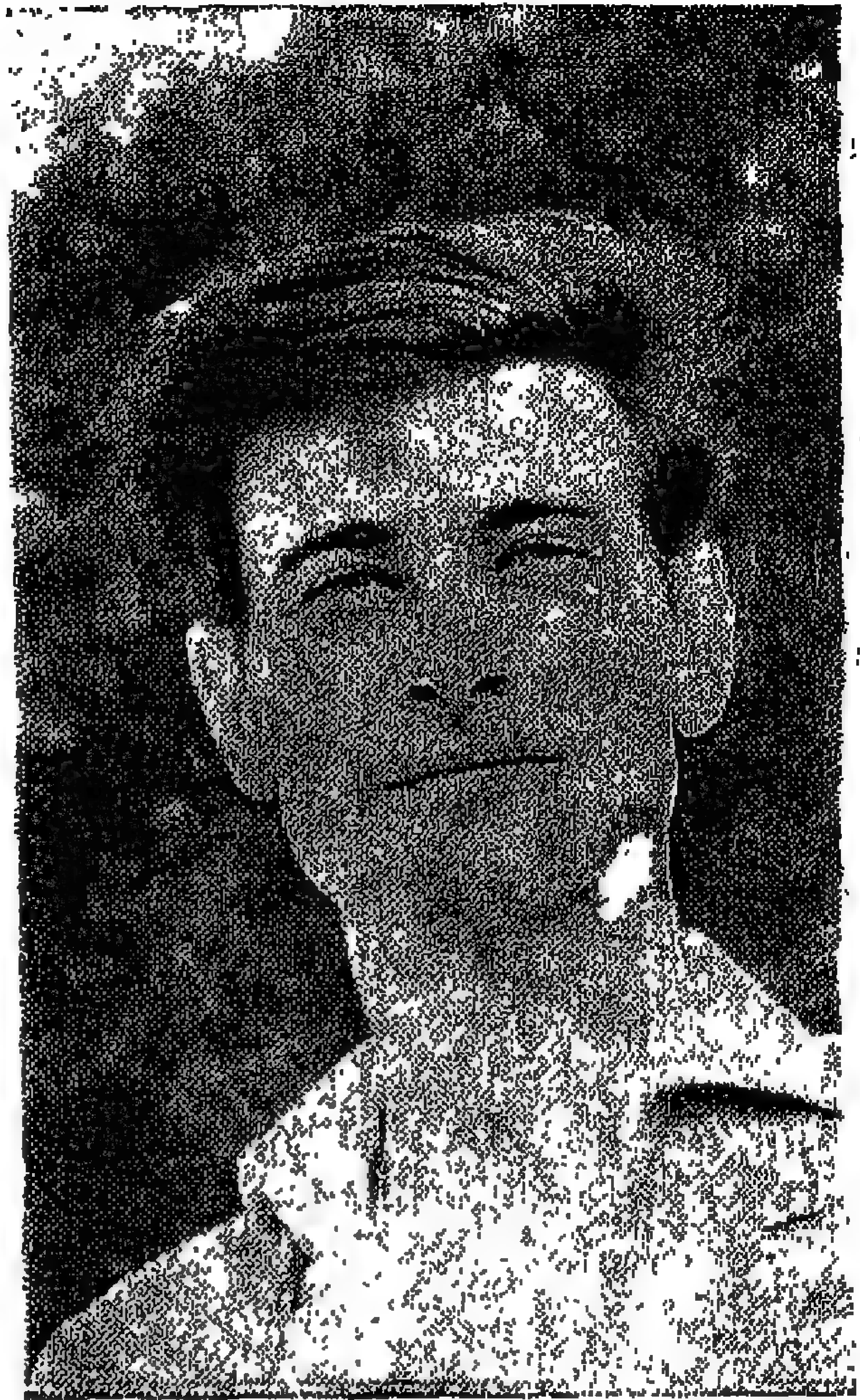
مليون عصفور
على أغصان قلبى
يخلق اللحن المقاتل

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل : M Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.



محمود درويش

محمود درويش شاعر من ألمع شعراء الارض المحتله ، بل لقد أصبح الآن من ألمع الشعراء العرب المعاصرين ، وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره ، هدمت السلطات الاسرائيلية قريته " البروة " قرب " عكا " ، وشاهد منذ طفولته صور المأساة التي حلت ببلاده وأهله ، وتعرض هو نفسه للسجن والاضطهاد والحرمان من التعليم والعمل ولكن موهبته الاصيلة وضميره الوطني الحي وشخصيته الانسانية المخلصة .. كل هذا ساعده على الصمود والمقاومة واحتمال هذه الظروف الصعبة . ولقد تحولت موهبته الشعرية العالية الى سلاح في يده ، وفي يد شعبه ضد الظلم والعدوان والقهر .

وهذه أول دراسة كاملة عن شعر محمود درويش وحياته .. ومحمود درويش في هذه الدراسة هو ثمرة لظروف بلاده المحتلة وثمرة لتيار شعر المقاومة في فلسطين منذ ثورة ١٩٣٦ ضد الاسرائيليين والانجليز الى اليوم .

١٢ قرشا